مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

عبيل

نذير الزعبي

رواية

عبيل

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

عبيل

رواية

نذير الزعبي

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الطبعة الأولى: آذار/مارس 2019 م – 1440 هـ

ردمك 978–6140–23–653–0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

www.zuabi.net

اللهجة الحلبية: م. حسام أغيورلي
تصميم الغلاف: نذير الزعبي

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

إلى السهل والريح والسماء..

جدّي.. موسى العلي

إنك قد رأيت الصورة، ولكنك غفلت عن المعنى.

جلال الدين الرومي

بعنادٍ شديد، أو ربما باستسلامٍ نهائي، التصقت ذبابةٌ بالزجاج الأمامي...

أو لنبدأ الحكاية من حيث بدأت معي أنا..

الفصل الأول

لو أن أحداً أخبركم بأنه قد رأى في ظهيرة يوم قائظ من صيف عام 1986 شاباً ثلاثينياً نحيلاً، بنظارة طبية سوداء الإطار، وشعر طويل أجعد، ولحية كثيرة النتوف كلحية جيڤارا، يجري في محطة عمّان بسرعة كلب سلوقي خلف القطار الذي انطلق لتوِّه، فإنه قد رآني. ولا شك بأنه قد رأى أيضاً أكثر المشاهد طرافةً، حين أوقعتُ أسرةً كاملة، كان أفرادها قد اصطفوا على الرصيف بجانب حقائبهم. اصطدمتُ بالأب السمين وأوقعته، ليوقع بدوره بقية أفراد الأسرة واحداً تلو الآخر كأحجار الدومينو.

ما إن التقطت أنفاسي داخل القطار، ومسحت العرق عن وجهي، حتى انفجرت بالضحك على ذلك الموقف المخزي. ولم يكن ليخرسني سوى وقوع عينيّ فجأةً على مشهدٍ صادم إثر بلوغ كبينتي، لم أستطع إزاءه منع عينيّ من الجحوظ في ذهول.

"صباح الخير" قلتها بصوتٍ متردد. أنزلت الحقيبة عن ظهري بارتباك ووضعتها على الرف فوق مقعدي، متلافياً التعثر بساقيه الممتدتين بين مقعدينا كجسر حجري مقوّس بين ضفتي نهر. لم أسمع رده على تحيتي، ولا أظنه قد رد. جلستُ في مقعدي قبالته واختلست نظرةً إليه بعد تردد. كان ساهم العينين بالمدينة من خلف الزجاج، فأخذت راحتي في تفحصه. إنه عملاقٌ حقيقيّ! قدّرتُ طوله بأكثر من مترين ونصف المتر. له وجهٌ كئيب شاحب، وجبهة عالية لافتة تشبه جبهة الغوريلا بتطابق غريب. فهي عريضة عند القاعدة برزت إلى الأمام، وضاقت من الجنبين متراجعةً إلى الوراء صعوداً إلى الناصية. لاحظت أنه حاول إخفاء ذلك العيب بإسدال غرته، لكن شعره المزيت لم يساعده، إذ التصق بجبهته محافظاً على شكلها المشوه، مكتفياً بصبغ قسمها العلوي بالأسود الفحمي. عيناه جاحظتان، انعطف حاجباه على جنبيهما كنصف إطار من الشعر الأسود

الكثيف. وله ذقن جرداء عريضة استطالت إلى أسفل، وأنف أفطس دهني، كثير البثور. أما كتفاه، فقد تقوستا إلى الأمام كقوقعة مفتوحة تضم صدره، وتحمل ظهره الأحدب. لم أستطع تقدير سنه الحقيقية بوجهٍ دقيق، فجثته الهائلة بهيئته الوحشية تجعله يبدو مخلوقاً قديماً بعمر آلاف السنين، بينما إن أعملت النظر جيداً في نعومة وجهه رغم دمامته، فسترجّح أنه في أواسط العشرينات.

كان ضوء الظهيرة الذي ألقى بنفسه بجرأةٍ على ذلك الوحش الكئيب، قد تولى رسم تفاصيله بدقة متناهية، موزعاً ظلاله الحادة على الوجه والكتفين والصدر والساقين ببراعة الهولندي يوهانِس ڤيرمير، فكان مشهداً من تلك المشاهد التي لا يحظى المرء برؤيتها سوى لمرة واحدة في حياته. فكرت لو أنني أحمل الآن آلة التصوير، لحصلت على جائزة World Press Photo دون منازع، غير أن صورةً أخرى أشد إغراءً، راحت تداعب مخيلتي بأنامل سحرية. إنها صورتي، وقد وضعتُ ساقاً على ساق في مكتب رئيس القسم، وألقيت رأسي إلى الوراء نافثاً دخان سيجارتي بغير اكتراث، مبتسماً للسقف بخدرٍ لذيذ، بينما يحاول إقناعي بعدم الانتقال إلى صحيفةٍ أخرى عرضَت عليّ ضعفَ راتبي، بعد أن جذب حواري مع هذا المخلوق اهتمام القراء، وأنساهم دفعةً واحدة بريق كأس العالم الذي كان لا يزال يحتل، على نحو غريب، بعض المربعات البيضاء في الصحف المحلية، رغم انتهائه على المستطيل الأخضر منذ ما يزيد عن الشهر بحمل مارادونا ورفاقه الكأسَ التي شغلت الناس طوال شهر حزيران، أكثر من انشغالهم بالتفجيرات الإرهابية التي هزت العاصمة وعدة مدن سورية منتصف شهري آذار ونيسان، بل وأكثر من انشغالهم بانفجار مفاعل تشيرنوبل الذي هز الرأي العام العالمي أواخر شهر نيسان. سيكون لحواري إذن، وقعُ انفجارٍ نووي، في بلادٍ لا تزال صحفها حائرة بين تسميته بالانفجار النووي أم الذري.

"بيقولوا إنو موجة الحر هاي جاية من الهند" قلت له مدفوعاً بالأحلام التي دغدغت جيبي. التفت إليّ نصف التفاتة وعاد إلى نافذته كمن توهّم للحظة سماعَ أحدٍ يخاطبه. فقلت موضحاً بأنه منخفض الهند الموسمي، الذي يبدأ ماطراً في الهند ثم تحمله الرياح إلينا فيصلنا جافاً شديد الحرارة بعد عبوره الصحارى الشاسعة. شعرتُ بالسخافة وأنا أحدث رجلاً غريباً بمثل تلك الترهات، غير أني كنت مضطراً كما تلاحظون، فبأي موضوع بوسع المرء فتحُ حديث مع رجل غريب غير الطقس؟ لكن الأمر لم يسر بالسلاسة التي تسير بها عادةً مثل هذه الأحاديث، إذ التفت إليَّ هذه المرة التفاتةً كاملة، وحدجني بعينيه الجاحظتين بنظرةٍ تقول بحروفٍ شديدة الوضوح: وما شأني أنا بكل هذا الهراء؟ هربتُ بعينيّ من نظرته المقرِّعة تلك، فوقع بصري على قدميه. تخيلت ما سيصيب

مؤخرتي إثر ركلةٍ هائجة من تلك القدم الهائلة إن أنا أغضبته، فانكمشتُ في مقعدي، مقرراً الاكتفاء براتبـي الحالي.

سادَ أذنيّ صمتٌ تام، كمن يغطس في ماء مسبحٍ مكتظ، فينقطع الضجيج عن أذنيه دفعةً واحدة، وما عدت أسمع من كل ما حولي سوى صوت أنفاسه المضطربة. أيكون لا يزال غاضباً مني رغم انكفائي؟ أيعقل أن يُشعل تحدث الغرباء إليه كل هذا الغضب في صدره؟ أم أنه لمح في عينيّ ما ظنه نظرة إشفاق أو سخرية؟

"أنا صحفي من جريدة تشرين" قلتُ بصوتٍ بدا آتياً من خارج القطار، ثم استدركت دون أن أنتظر منه أية إشارة على سماع العبارة الأولى: "جريدة تشرين السورية.. حضرتك سوري، مو؟" هز رأسه بالإيجاب ملتفتاً إلي بطرف عينه، فاستأنفتُ بصوتٍ أكثر وضوحاً بعد أن بلعتُ ريقي وركّبت في ذهني الصياغة المناسبة لما أود قوله: "إذا ما كان فيها إزعاج.." وهنا التفت نحوي بنظرةٍ لا تحمل أي معنى هذه المرة، فتشجعت على إكمال عبارتي التي جهزتها بعناية: "عم قول إذا ما كان فيها إزعاج، ممكن أتشرف بإجراء حوار صغير مع حضرتك؟.. شي هيك متل الدردشة بين أي اتنين مسافريـ..." فقاطعني بصوتٍ يشبه همس مجموعة من الرجال تمرنوا جيداً على التحدث بتزامن متقن: "ليش؟" لم أستطع تبيُّن ما إذا كان يستفسر أم يستنكر. "لحتى أنشر الحوار بالجريدة، ويقروه الناس.." وبادرت فوراً بإغلاق فمي وقد لمحتُ في عينيه ما ظننته شرارة غضب بفعل إجابتي الغبية. لكنه سرعان ما أزاح الخوف عن قلبـي، حين أوضح سؤاله بنفس الهدوء ونبرة الهمس الجماعي: "لا، قصدي ليش مهتم تعمل حوار معي أنا؟" كدت أن أجيبه ضاحكاً: لأن أطول شخص التقيناه في حياتنا أنا وقراء الجريدة لا يتجاوز ارتفاع رأسه سُرّتك! لكن إلهاماً هداني إلى كبح جماح حماقتي، والثبات على انتقاء الكلمات المناسبة، فقلتُ بعد برهةٍ من التبسم الأبله وهز الرأس بلا معنى: "لأني شفتك مميز، فخطر لي إن الناس، أكيد، رح يسعدهم التعرف عليك من خلال هالحوار" واكتفيت بهذا القدر كي لا يأخذ انطباعاً بأن أسئلتي ستكون طويلةً كردودي فيرفض الحوار، لكنه ظل صامتاً ينظر إلي بترقب كمن ينتظر بقية الإجابة.

لم يحدث مرةً، أن أربكني التحدث إلى شخص غريب كما أربكني التحدث إليه، فقد اعتدت في مهنتي كصحفي أن أحاور الغرباء، وأن أكون المبادر دائماً في فتح حديث معهم، غير أن هذا

المخلوق لم يكن كأي من أولئك الغرباء. كان الأمر أشبه بالمثول أمام تمثال إله أسطوري، دبت الحياة فيه فجأة بينما تتأمله.

طالت نظرة ترقبّه لتتمّة جملتي، فيما ظللت حائراً بين الاستمرار بالصمت تأكيداً على انتهاء الإجابة، أو إضافة عبارة أخرى تحمل دلالة انتهاء الإجابة بشكل قطعيّ، كأن أقول مثلاً: هذا كل شيء، فما قولك؟

هنا، أطلَّت من باب الكبينة سيدة بوجهٍ ذي استدارة مستفّزة، تفتح فمها ببلهٍ حين تبتسم مثل عرائس اليد. نظرَت إلى العملاق بسعادة مَن عثر على ضالته، وقالت لمن اختبأ خلفها، مشجعةً، بصوت مسموع أظنها قصدته همساً: "ليكو هون، تعال حبيبـي، لا تخاف" وسحبته من يده. كان فتىً سميناً أسمر، حشر رأسه في قبعة رياضية خضراء، فبدا كثمرة الباذنجان. اتسعت عيناه وهو ينظر إليه في دهشةٍ تشبه دهشتي الأولى، لولا أنها انتهت بطريقةٍ مغايرة، إذ سرعان ما بدأ جسده المنفوخ بالاهتزاز في ضحكةٍ مكتومة، تخللتها خنفرات من أنفه، لها صوت قباع الخنزير، بينما أرخت الأم فمها بابتسامتها البلهاء تلك.

سارعتُ قبل أن يأتي وحشي الرابض بأي رد فعل يضيع فرصتي في التدخل والدفاع عنه ومن ثمّ كسبه، فنهضتُ من مقعدي وصرخت في وجهها: "عفواً يا مدام! تفضلي من هون لو سمحتي!" فتشبث الطفل فزعاً برداء أمه التي امتقع وجهها، ورمقتني بنظرة احتقار كما ينظر المرء إلى كلبٍ شنيع أخاف ابنه، وتلفظت بشيء أظنه شتيمة، قبل أن تمسك بيد ابنها وتمضي.

إن الذي يمنح الأم قداستها في دواخلنا، لم يكن قائماً في يوم من الأيام على المبادئ والقيم. إن قداستها لتشبه إلى حدٍ بعيد قداسة الأوطان. فكم من وطن مغتصَب، وقف أبناؤه أمام رايته بإجلال الواقف في حضرة نبيّ، وكم من وطن جارَ على أبنائه، تجد دموعَ محبتهم له انهمرت في خشوع ما إن يسمعوا نشيده بين أناشيد البلاد في محفلٍ دوليّ.

"بنت الحرام!" قلت كازاً على أسناني متطلعاً إلى وجهه بنظرةٍ شرسة بينما أجلس. لكن وجهه كان هادئاً تماماً، وكأن شيئاً لم يكن! بل، وأرجو أن تصدقوني إذ أخبركم بهذا: كان مبتسماً ابتسامة رجل شديد الرضا، هانئ البال. وهكذا كما ترون، لم يكن لذلك المشهد المسرحي الذي أديته باقتدارٍ أدهشني شخصياً، أيُّ معنىً في نظره!

شعرتُ بحاجة ملحة إلى التدخين. رحت أفرك أصابعي متململاً في مقعدي، إلى أن نهضت وسحبت من جيب الحقيبة الجانبـي علبة لبان، رميت منها حبتين في فمي ومددتها إليه: "علكة؟" فالتفت إلي من فوره كمن كان ينتظر تحدثي، وقال: "بتغدر[1] تكتب عن هادا الشي إزا بدك.." وأشار بحركةٍ من رأسه إلى حيث وقفت المرأة وابنها قُبيل قليل.

ها هو إذن يود التحدث عن الأمر، فكرت. لكنه يحتاج مساعدتي في إشعال الفتيل لتفجير ما يعتمل في صدره.

"زعجتك هالحيوانة، مو؟".

إن صمته الثقيل الذي اتكأ على سؤالي، جعله ينفتح على سؤالٍ مخيف، أكثر واقعيةً ويأساً: ماذا لو أن الذي يختلج في صدره حقاً، وقد يغريه الالتقاءُ بصحفيٍّ لحوحٍ إلى إخراجه، لا علاقة له بهيئته التي أسالت لعابـي، بقدر علاقته بما يعتمل في صدورنا جميعاً؟ صدورنا المنفوخة بالكلام الممنوع الذي لا ينتهي، في دولةٍ فُرض على شعبها الحصار من خلف جدرانٍ ينخرها الفساد، تحت سقف قيادةٍ قمعية وإدارةٍ متخبطة. ما يجعل التذمر من غلاء المعيشة أمام صديق ضرباً من ضروب الانتحار، فما بالك بنشره في جريدة من جرائد دولة البعث؟

الفصل الثاني

لطختا دهان، لا شيء سوى لطختين من الدهان..

"إنت ولد محظوظ!" قال الطبيب محدقاً إلى ورقةٍ بين يديه لا أظنها تخصني، لكن يبدو أنها كانت مريحةً لعينيه أكثر من رؤيتي. "أغلب يللي بمتل حالتك بيعانو من الرؤية المزدوجة، بس إنت عيونك سليمة" وقد كانتا سليمتين بالفعل. أقول كانتا، لأن الأمر بدأ لاحقاً، بعد جلسة الفحص تلك ببضع سنين، حين كنت في الحافلة في طريقي اليومي إلى إحدى الورش في قرية مجاورة، فبدأت الصور من خلف النافذة بالتحول إلى خيالات ملونة، إلى أن غدت لطختي دهان.. لا شيء سوى لطختين من الدهان.

لم يصبني حينها أي ذعر، بل لا أذكر أن الأمر أدهشني. ربما لأني كنت قد استنفدت منذ زمن طويل تلك المشاعر كلها، فلم يعد في قلبـي ما يدخره المرء عادةً لمثل هذه المواقف الصادمة.

شيئاً بعد شيء، بدأت أشعر بالسرور حيال علتي الجديدة المتمثلة في رؤية الصور المتحركة بتعاقب أفقي، كالتي تُرى من نوافذ وسائل النقل، على شكل لطخات من الدهان. ربما كان سر احتفائي هذا، هو أن الدهان الذي يريح عينيّ عادةً، يمتاز هنا بكونه بلا أبخرة كيماوية تحرق العينين، وبغير تلك الرائحة التي ما زال أنفي لا يطيقها، على الرغم من مضي ما يقارب عشرة أعوام على عملي كدهّان. أو ربما، كان الذي قد سرني حقاً هو اختلافي عن الجميع، لأول مرة، في شيءٍ يمكن إخفاؤه.

"إنت ولد محظوظ" ارتدَّ رجع تلك العبارة في قلبـي لحظة اكتشافي ما أصاب عينيّ، ولم تزل تتردد إلى الآن، بعد كل تلك السنين، كلما رأيت اللطختين من خلف النوافذ المتحركة. لقد كانت

أجمل ما قاله لي طبيبٌ يوماً.. بل ربما الشيء الجميل الوحيد، في كل ما سمعته من الأطباء.

اللطخة السفلية لونها الآن رمادي، فالقطار لا يزال داخل المدينة. ستتحول إلى اللون البني في القفار، وتصبح خضراء مبهجة كلما مر القطار بالحقول. أما اللطخة العلوية، لطخة السماء، فلونها الآن مزيج من الأزرق والأبيض والأصفر الخفيف، بنسب مقاربة للتي أطلي بها فصول المدارس الابتدائية، إذ عليك أن تدُس الأصفر دائماً في كل مزيج تصنعه، فهو الذي يجعل الجدار يبدو كما لو أنه قد خُلق باللون الذي طليته به، وهو درس لقنني إياه المعلم أبو فادي في إحدى استراحات الشاي، بينما يلتهم بعينيه الضيقتين ما تكشّف من نهدي فنانة، طُبعت صورتها بلا ألوان، على الجريدة التي افترشها.

أشعر بالاختناق. الحر قاتل، والكبينة شديدة الضيق. أستطيع دون الحاجة إلى رؤيتك، أن أرى بجلاء كيف تتأمل هيأتي باندهاش. بصرك الآن معلق بجبهتي الغريبة. أستطيع تخيل جحوظ عينيك في ذهول. أستطيع سماعك تقول في سرك: كم يشبه رأسه رأس الغوريلا! أرى عضلات وجهك الحائرة بين الانقباض تقززاً والانفراج من شدة الإشفاق. تشيح عينيك عن وجهي هارباً، فتقعان على جسدي، يزداد اضطراب قلبك، إذ ترى وحشاً هائل الحجم يجلس على مسافة بضعة أشبار منك. يريحك قليلاً عدم التقاء عينينا، وتنزع وداعة نظرتي إلى الخارج بعضَ الخوف من قلبك. ربما، لو رددت عليك تحيتك لبعثت بعض الطمأنينة في نفسك، لكنني لم أردك مطمئناً، لم أشأ نزع الخوف من قلبك، فهو كل ما لدي لمنعك من الاقتراب أكثر.

قُبيل وصولك، زفرتُ بارتياح عندما بدأ القطار بالتحرك، إذ ظننتني سأحظى برحلة خالية من الناس. لكنك دخلت، فركلتَ بخطوتك الأولى فقاعة عزلتي فانفجرت من فورها، وانفجر الغضب في صدري. رائحة عرقك، لهاثك ككلب صيد، النبرة الكاذبة في تحيتك، تلصصك المضطرب بداية الأمر كمراهق مسعور جلست أمامه امرأة بساقين عاريتين، ثم وقاحة عينيك في تفحص هيئتي بعد أن لاحظتَ انشغالي بالنافذة. تملكتني رغبة عارمة بإلقائك تحت عجلات القطار. كنت في ذلك اليوم على وجه الخصوص في أمس الحاجة إلى ارتكاب جريمة، وكان اقتحامك خلوتي خير ذريعة لاقترافها دون تردد. غير أني، ولست أدري إن كان هذا من حسن حظك لحظتها أم سوء حظي مدى الحياة، لست مجرماً!

ابتلعت غضبـي كما اعتدتُ دائماً، وحاولت تناسيك، آملاً أن يتكفل خوفك بردعك عن فعل أي شيء يذكرني بوجودك.

كانت اللطخة السفلية قد انتقلت إلى اللون الأخضر عندما شرعت بالتحدث إلي. إنه لون له أثر البنج في أعصابـي، وهو شيءٌ كنتُ حينها في أمس الحاجة إليه. لقد كان توقيتك خاطئاً! فها أنت من جديد تتلف فقاعةً أخرى. هممت أن أرجوك أن تتناسى وجودي، وأن تنصرف إلى شؤونك طوال وقت الرحلة، لكنك ما لبثت أن أخبرتني بأنك صحفي! فأي رجاء سيكون مجدياً مع صحفي، يسيل لعابه أمام أي سبق، فكيف إذا كان هذا السبق، هو نشر حوار مع وحش بملابس إنسان؟

إلى ملاكي الطينيّ

كنت في طفولتي القصيرة، أرسم القلوب على الهيئة التي
تعلمناها من الكبار. وهو شكلٌ، فضلاً عن سذاجته، لا
يحمل أيَّ معنىً حقيقيّ. ولست أدري حقيقةً ما الذي وقع
لعقول الناس حين أجمعوا عبر الزمان على القبول به.

ربما لو استُشرت الآن حول الأمر، لاقترحت عليهم دونما
تردد أن يتحولوا إلى رسم القلوب على هيئة حصالات
نقود.. فما قلب الإنسان منا، يا ملاكي، سوى حصالةٍ
صغيرة، يُمضي طفولته البريئة بملئها بشتى أصناف
المشاعر، ثم يبدأ بصرفها دهشةً إثر
دهشة وضحكةً إثر ضحكة ودمعةً إثر دمعة. وهكذا.. إلى أن يغدو قلبه أخيراً
علبة صفيحٍ فارغة، يرتد فيها رجعُ الذكريات..

عبيل

سوريا/حلب 7 آذار 1986

الفصل الثالث

اتكأت على فخذي، وأرخيت خدي على يدي ملتفتاً إلى النافذة. كان القطار سائراً بمحاذاة سهول قليلة الخضرة ترامت على أطرافها بعض المنازل القديمة، لمعت على سطوحها خزانات المياه كالمرايا الصغيرة، عاكسةً وهج الأصيل. لم أكن يوماً ممن يستهويهم التأمل من خلف النوافذ. فلا أقف على نافذة منزلي إلا إذا سمعتُ جلبة عراك في الشارع، أو نداء بائع الغاز أو مزمار بائع المازوت. ولا أطل من نافذة حافلةٍ أو قطار إلا للتحقق من المسافة التي قُطعت، أو لإراحة عينيّ من القراءة التي غالباً ما تكون تسليتي الوحيدة في الرحلات. غير أني في تلك اللحظة، تعمدت تأمل المشهد خارج القطار، ربما لأصفه لكم كما فعلتُ الآن، إذ برغم اليأس الذي تملكني فقد كان ثمة إحساس خفي بداخلي ينبئني بأني سأكتب يوماً عن تلك الرحلة.

نظرت إلى ساعتي، وأخرجت كتاباً من حقيبتي أخيراً، لأشاغل نفسي عن الوحش ما استطعت فيما تبقى من وقت الرحلة. كان الكتاب هو العالم الشرقي لهيگل:

<ينبغي أن يبدأ التاريخ بإمبراطورية الصين، لأنها أقدم ما ينبئنا به التاريخ>[2].

<لكن لم يكن قد جال ببال غريغور أنه سيُخيف أحدًا ما، وعلى الخصوص أخته>.

<ونحن نرى الصين منذ فجر التاريخ على تلك الحال التي هي عليها في يومنا الراهن>.

<كيف أصبحت الشخص الذي أنا هو؟ هل أنا نفسي فعلاً؟ أم صنع مني الآخرون بالأحرى الشخص الذي أنا هو؟>.

أجل، راح شيطان كافكا، لحظتها، يوسوس في رأسي بكلمات روايته التحول، بينما تسير عيناي على سطور كتاب هيگل. كان صوت وسوسته أشد وضوحاً من الحروف المطبوعة على الصفحات التي رحت أقلبها باضطراب من أصابه مس..

<إذ استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، على إثر أحلام سادها الاضطراب، وجد أنه قد تحول، وهو في سريره، إلى حشرة عملاقة>.

حاولت تذكر المدة التي استطاع أن يبقى فيها غريغور على قيد الحياة منذ استيقاظه إلى أن قتلته التفاحة التي رماه بها والده. أكانت بضعة أيام؟ بضعة أسابيع؟ عدة شهور؟ لم أكن متيقناً، ولا أظن كافكا نفسه كان ليهتم بمقدار تلك المدة، فهو يعلم جيداً أن الموت الحقيقي قد وقع لسامسا لحظة استيقاظه.. مذ أدرك أنه قد غدا مسخاً في عيون من حوله.

أيرى هذا الرفيق نفسه مسخاً في عيون الناس؟ هل يعيش حياته ميتاً مذ بدأ يدرك اختلاف هيئته؟ هل يتمنى الآن، في تجهمه الأزلي هذا، أن يرميه أحدهم بتفاحةٍ قاتلة، فينتهي كل شيء؟

غمغمت عند وصولنا، دون أن ألتفت إليه: "حمد الله ع السلامة"، وأنزلت الحقيبة عن الرف، وهممت بمغادرة الكبينة، فسمعته يقول بصوتٍ بدا متردداً: "استنى"[3] فجمدتُ في مكاني!

<كانوا يريدون جميعا أن يدخلوا إليه، عندما كانت الأبواب مغلقة، والآن بعد أن فتح لهم أحدَ الأبواب بنفسه، لم يدخل أي منهم!> همس في رأسي كافكا.

أنزل حقيبته عن الرف قائلاً: "بدّي[4] أعطيك هالشغلة.." وفتح الحقيبة، وأخرج منها شيئاً أبيض اللون، مدّه إلي. مددت يدي لألتقطه بنصف وعيي، إذ كنت مأخوذاً بضخامته التي لم تكن مخيلتي قد أسعفتني على تقديرها حق قدرها بينما كان جالساً، والتي أعادتني إلى تلك اللحظة العصية على النسيان من سنين طفولتي. كان هذا في رحلة مدرسية إلى بلدة مشتى الحلو الساحلية، عندما توقفت الحافلة وسط البلدة، فكففنا عن صخبنا وأصخنا السمع إلى السائق العبوس الذي أعلن وصولنا إلى ساحة الدلبة، قبل أن تهتف المعلمة سعاد بصوتها المرح: "يللا انزلوا يا حلوين" فتقافزنا من الحافلة بابتهاج كالأرانب الصغيرة. وما إن وضعتُ قدميّ على الأرض حتى كتمت يدُ الذهول أنفاسي! لقد وجدت نفسي، بجسدي الضئيل آنذاك، وجهاً لوجهٍ أمام شجرةٍ عملاقة هائلة،

تكاد أن تشق بأغصانها المتطاولة وجه السماء! لقد كانت أكبر من أي كائن حي كنت قد رأيته من قبل، أو تخيلتُ وجوده!

شجرة الدلبة العظيمة تلك، نبتت أمامي فجأةً بعد كل تلك السنين في كبينة القطار، ملقيةً عليّ من جديد ظلال دهشتها القديمة.

"عطيني رقم تليفونك" قال. نظرت إلى ما وضعه في يدي، كانت رزمة رسائل مشدودة بحبل مطاطي. سألته: "شو هدول؟" فمدَّ يده إليها كما لو أنه تراجع عن قراره وأراد استعادتها، فسارعت إلى دسها في جيب الحقيبة، وأخرجت بطاقةً ناولته إياها قائلاً: "تفضل، هاد كرت الشغل، فيه اسمي ورقم تلفوني بالجريدة" نقّل عينيه قليلاً بين وجهي والبطاقة، وكأنه يطابق الاسم مع شكل صاحبه، ثم أخرج من جيب بنطاله الخلفي محفظةً بدت جديدة، أظنه اشتراها خصيصاً من أجل تلك الرحلة، دس فيها بطاقتي وأعادها إلى جيبه.

"شو أعمل بهاي الرسائل؟" سألته بعد تردد خشية أن يعيده السؤال مرةً أخرى إلى قرار استعادتها، فأجاب: "اقراها" واستدرك متلعثماً: "قصدي، خبّيّا لوقت أدقلك.. واقلك تقراها[5]" لم أفهم شيئاً من كل هذا. لقد كنت بالنسبة إليه طوال الرحلة شخصاً فضولياً غريباً غير مرغوب به، ولم تفلح أي من محاولاتي الخبيثة في سحب الكلام من فمه، وها هو الآن، بينما نفترق، يأتمنني على رزمة من الرسائل الغامضة!

أومأت له برأسي مؤكداً على احترامي لرغبته، ثم شكرته دون أن أدري على أي شيء أشكره، وعجّلت بوداعه قبل أن يغير رأيه ويرمي بطاقتي في وجهي، مستعيداً رسائله.

سأقرأها جميعاً فور وصولي إلى الغرفة! حدثت نفسي بلهفةٍ بعد أن أشعلت سيجارة الاحتفاء بالغنيمة فور نزولي من القطار، وشرعت بمغادرة المحطة بخطواتٍ واسعة، لكن شيئاً ما أثقل ظهري فجأةً وكبح تقدمي، فاختل توازني وكدتُ أهوي على وجهي. التفتُّ فزعاً إلى الوراء، كانت يده قد تعلقت بحقيبة ظهري كالرافعة، وكان وجهه غاضباً كما لو أنه قد سمع ما كنت أحدث به نفسي. فغرتُ فاهي وكدتُ أصرخ مستنجداً، لولا أن قال بينما يُفلت الحقيبة من يده بنبرةٍ خجول لا تتناسب مع ذلك الغضب المتبدّي في وجهه: "بدي الرسايل إزا بتريد[6]" فترت شفتاي عن ابتسامة ارتياح واستعدتُ أنفاسي. نظرتُ في عينيه فرأيت مخلوقاً ضعيفاً بائساً يرتدي جثة وحش. فكرتُ قليلاً، بينما أقلّبُ عينيّ

فيمن استوقفتهم ضخامته من المارة. شعرت كما لو أننا، أنا وهو، نؤدي مشهداً سينمائيا بين تلك الحشود في المحطة. ربما، لو كان ذلك حقاً مشهداً في فيلم، لكنت ألقيت حقيبتي تحت قدميه، وقلت مرتعداً بينما أتراجع إلى الوراء: "خذ الحقيبة كلها، لكن لا تؤذني، أرجوك!" أما وقد كنا لحظتها في عالم الواقع، وكنت قد لمست لتوي ضعفه وتردده، فما كان مني إلا أن أجبته بكثير من الهدوء والثقة، بعد أن سحبت نفساً طويلاً من السيجارة: "إيه، متل ما بدك، رح رجعلك اياهون، بس بشرط.. بدي توعدني إنك تتصل فيني قريباً لحتى نلتقي ونحكي" ارتجف صوتي قليلاً عند نطق الشرط، لكن لا أظنه قد لاحظ هذا، إذ هز رأسه موافقاً كطفلٍ ينصاع إلى شرط أبيه مقابل السماح له بالخروج للعب. أنزلت الحقيبة عن ظهري ووضعتها على الأرض، وسحبتُ منها رزمة الرسائل بعد أن حررت منها واحدةً استبقيتها لنفسي في جوف الحقيبة دون أن ألفت انتباهه.

تناول رزمته بامتنانٍ مُستكين. لكن عينيه ما لبثتا أن ازدادتا جحوظاً، واكتسى وجهه بشحوب الموتى، وتشنجت شفتاه، وأخذت ذقنه المستطيلة ترتجف، فور أن انتبه إلى تجمهر الناس. تلفّت حوله بارتباك غميم، وحدجني بنظرة تأنيب غاضبة، أيقنت أنه متبعها، لا محالة، بصفعة ترديني قتيلاً. لكنه أدار لي ظهره بعد أن أطلق صوتاً يشبه جئير ثور مكتوم، واندفع مخترقاً صفوف المتفرجين متهادياً كشجرة سنديان معمرة تدب على الأرض بجذورها المقلوعة، بينما تتأرجح ذراعاه الهائلتان على جنبيه كجثتين مشنوقتين تتدافعهما رياح عاتية.

الفصل الرابع

بعنادٍ شديد، أو ربما باستسلامٍ نهائي، التصقت ذبابةٌ بالزجاج الأمامي، بينما تتبدد في المرآة الجانبية حياتي التي عشتها قبل آلاف السنين.

كانت شمس الصباح لم تزل تتمطّى متثائبةً خلف الجبال السود، مع تثاؤب السائق العجوز الذي ما انفك يلتفت إليّ كل قليل كمن يريد التحقق من أنه قد استيقظ حقاً، وأن هذا الكائن المحشور بجانبه ليس وحشاً في كابوس عصيٍّ على الانتهاء.

"تگدر ترجّع المقعد أكثر لو مو مرتاح" اقترح أخيراً، متفرساً ركبتيّ الجاثمتين على تابلو السيارة. هززت رأسي بقصد الامتنان، وغمغمت بأني قد أرجعته مسبقاً إلى أقصى مداه. لكن أظنه لم يفهم ما أقول، ربما ليقينه بأني لا أتحدث لغة يفقهها البشر، إذ أعاد عليَّ اقتراحه مستعيناً هذه المرة بإشاراتٍ من يديه، ثم لم ينتظر مني استجابة، بل أوقف السيارة فجأةً ومد جسده الضئيل فوق فخذيَّ محاولاً بلوغ مقبض التحكم بمقعدي دون جدوى، إذ راح يتخبط كطفل نزق مدّدته أمه فوق فخذيها، فدفعتُ صدره عني بغضب لم أستطع كبحه، وكررت إجابتي بكلمات واضحة، فعاد من فوره إلى مقعده، متحسساً صدره بتألم حاول إخفاءه، وتابع المسير.

كانت الذبابة لا تزال قابعةً في مكانها، على الرغم من فرصة الطيران التي سنحت لها حين أوقف العجوز سيارته. لم يكن استسلاماً إذن لسطوة الهواء البارد الذي كان يضربها بضراوةٍ خلال المسير! إنها ذبابة وقحة عنيدة! طلبت من العجوز التوقف، فكبح السيارة من فوره دونما تردد. ترجلت بنفس الصعوبة التي ركبت بها، وهشتت على الذبابة بيدي، فلم تحرك ساكناً. كانت جثةً هامدة. استرقت نظرةً إلى العجوز فوجدته مشدوهاً يهز رأسه كالأبله مرخياً فكه. نقفت الذبابة النافقة

بظفري، وركبت من جديد. كان العجوز قد أشاح عينيه الدهشتين، وبدا سارحاً بالمقود بين يديه، متشبثاً به بقوةٍ كالمتشبث بحاجز معدنيّ بانتظار انقضاء العاصفة. وظل على هذه الحال موقفاً سيارته حتى ظننته لم يعد يرغب باستئناف مهمته؛ فأن يركب وحش بجانبك في صحراء تدمر فهذا أمر يمكن تحمله، أما أن يكون هذا الوحش مجنوناً فإن الأمر بلا شك يحتاج مراجعةً جدية.

لم يكن لدي سابقاً أي عداء شخصي تجاه الذباب، بل على العكس، فلطالما كان الذباب رفيقي الذي يشاركني لحظات التأمل والصفاء؛ أتأمل سقف الغرفة، فتتأمل الذبابة المتعلقة بالسقف أرضيتها، أتأمل الذبابة فتتأملني، ثم ننتهي إلى انشغال أحدنا عن الآخر بتأمل وحدتنا الأزلية.

انطلقت السيارة أخيراً. ربما قال العجوز لنفسه مطمئناً: لستُ ذبابة على أية حال..

استرقت نظرةً أخيرة في المرآة الجانبية، فكان موقع التصوير قد اختفى تماماً، مثلما توقعت.

كان من المفترض للأيام الثلاثة التي أمضيتها في موقع التصوير ذاك، أن تكون أجمل ما سأعيشه من أيام حياتي. كان عليها أن تكون كالحلم الجميل. وإن كنت لا أعلم كم يحق لمن هو مثلي استعارة تشبيهٍ كهذا ولو حتى في أمانيه، إذ لم أختبر شعور الحلم الجميل ولو لمرة واحدة، ولم أتذوق طعمه في يوم من الأيام.. فأنا عديم الأحلام خلال الصحو، قليلها في المنام، وغالباً ما تكون أحلام النوم القليلة تلك عبارة عن مشاهد مضطربة، كثيرة الظلام والصخب، أكون فيها راكضاً أغلب الوقت، باختلاج هارب من موتٍ وشيك. وأكون في بقيتها ساكناً تماماً سكون الجمادات، أنظر إلى جثتي الهائلة الممددة على السرير، وكأني أرى نفسي لحظة النوم من مقامٍ علوي. وغالباً ما يجيء هذا الحلم تحديداً، بعد تأمل طويل في ذبابة السقف.. الذبابة التي أحالت لاحقاً ما تمنيته حلماً جميلاً إلى كابوسٍ ظليم.

بدأت الحكاية حين زار منزلي رجل غريب في مساء يوم صيفي من شهر أيار، في السنة التي سبقت لقاءنا في القطار. سأل الغريب عني فأخبرته أمي بأني في العمل. ثم عرّفها بنفسه على أنه في مهمة لحساب قناةٍ تلفزيونية أجنبية لم تفلح والدتي الأمية في تثبيت اسمها، إذ أخبرتني بأنه يشبه اسم مشروب غازي أجنبيّ، ففقز الاسم الصحيح من فوره إلى ذهني، لكنني لم أجرؤ على تصديق تكهني، إلى أن التقيت الرجل صباح اليوم التالي، وسمعت من فمه اسم القناة بنفسي: قناة BBC!

كان الرجل قد سألها إن كانت تعلم أين هي الورشة ليذهب إليّ بنفسه، لكنها ادّعت عدم علمها، إذ لم تصدق ما قاله حول هويته، فكيف يكون لقناة تلفزيونية اسم مشروب غازيّ؟! "إي بقص إيدي إزا ما كان ابن هالحرام مخابرات!" قالت أمي بتوجُّس، ثم همست تسألني بنبرة خطيرة عما إذا كنت قد تحدثت مع أحد في السياسة، أو "ولاك[7]! لا تكون صرت من جماعة الإخوان!" قالت مرتعشةً وقد تجمدت عيناها.

خرجت من فوري إلى الدكان، واتصلت برقم الهاتف الذي كتبه الرجل لوالدتي على ورقة تحت اسمه. "فندق السلام" ردت الموظفة التي بدا صوتها كصوت الأطفال. زودتها باسم النزيل، فطلبت مني الانتظار بعد أن سألت عن اسمي بكثير من التهذيب. لا يبدو فندقاً شعبياً! فكرت، وسارعت إلى مراجعة ما في ذاكرتي من كلمات منمقة، يبدو أني سأكون مضطراً للاستعانة بها في حديثي معه، غير أني لم أعثر على أية واحدة، بل لم أعثر حتى على عبارة ترحيب مناسبة على الأقل، أستهل بها المكالمة. هل أقول "السلام عليكم" كما اعتدت دائماً، وهي عادة أخذتها عن أمي، أم أقول "مرحبا"؟ فالرجل كما فهمت يعمل لصالح قناة أجنبية، وربما يجد في التحية الإسلامية تلك ما يشعره بشيء من الغربة. سأترك له اختيار التحية التي تناسبه، وأرد عليه بمثلها. قررت أخيراً. فهو الذي سيبدأ الحديث حين يأخذ السماعة من يد الموظفة ذات الصوت الطفولي. بررت لنفسي كعادتي كلما أذعنت لعجزي. جاء صوته بعد طول انتظار. قال "ألو" فقلت "ألو.. الاستاذ عبد الهادي؟" لم أتوقع استغناءه عن التحية برمتها، فقد دخل من فوره في صلب الموضوع. تحدث باللهجة الشامية بصوتٍ خفيضٍ عميق، يثير في النفس النعاس. طلب لقائي ليخبرني بفحوى العرض الذي جاء ليقدمه، إذ أكد أن العرض برمته قائم بالأساس على مدى ضخامتي، وأن عليه معاينة هذا الأمر بنفسه ليرى إن كنت مطابقاً لما في مخيلة مخرج الفيلم. هنا تكلمت لأول مرة، بعد كل الهمهمات التي كنت أمررها بين عباراته دلالة الإنصات "أي فيلم؟ ومين يللي دلكون عليّ؟" سألته باستحياء من يسأل عن أمر ليس من بين شؤونه، فأجاب بحزم بدا دخيلاً على هدوء صوته: "بشرحلك كل شي لما بنلتقي.." اتفقنا أن يكون اللقاء في منزلي صباح اليوم التالي، وأنهينا المكالمة بعبارات لبقة منه لم أعرف كيف أرد عليها، فاكتفيت ببعض الغمغمات، وأعدت السماعة إلى "أبو إبراهيم" صاحب الدكان، الذي كان واقفاً كعادته ملصقاً رأسه برأسي، بينما أجري المكالمة حانياً ظهري فوق منضدة البيع.

"إشّو قصة هالزلمة؟ وإشّو فيلم ما فيلم؟" سألني بكثير من الدهشة، إذ لم يكن قد رآني أصلاً أحدث أحداً من هاتفه هذا، طوال سنين جيرتنا، سوى المعلم أبو فادي، بالإضافة إلى طبيبـي وخليل باشا بين الحين والآخر. ولم يكن يتوانى في كل مرة عن استراق السمع لما يدور من كلام، خاصة إذا كنت أحدث الطبيب، ليسارع بعد إنهاء المكالمة إلى سؤالي حول ما ذكرته من أعراض، وكأنه يحاول أن يقترح تشخيصاً أو حتى علاجاً غير الذي اقترحه الطبيب.

في البدايات، كان فضول أبو إبراهيم يزعجني، ويشعرني بغضب شديد، بل كنت أحياناً أستغني عن إجراء بعض الاتصالات الضرورية تجنباً لما سيأتي بعدها من أسئلة فضولية مستفزة. لكنني مع الوقت بدأت أعوّد نفسي على تقبل الأمر، والتغاضي عنه، إذ لم يكن لدي خيار غيره سوى البحث عن دكان آخر في الأحياء المجاورة، أجري منه هذه الاتصالات، ما يعني أن عليّ دخول هذه الأحياء، وهو أمر أكرهه أيما كره وأتجنبه تجنب الموت، فقد دأبت منذ زمن بعيد لا أعلم بدايته على سلوك طريق واحد لا أغيره، في دخولي وخروجي من الحي، لا يكلفني سوى عبور أطراف حي واحد فقط غير حينا، حتى وإن كانت وجهتي تقتضي مني سلوك طريق معاكس، وإن كان إصراري على التزام الطريق التي اعتمدتها سيلكفني سير أضعاف المسافة في التفافي خارج الأحياء للوصول إلى وجهتي. كل هذا لتجنب المرور فقط، فما بالك إن بلغ الأمر حد قصد دكان بعينه في قلب حي من هذه الأحياء، والتقاء أشخاص جدد في كل مرة، لم يرمقوني بعد بنظرات الاندهاش والتقزز والإشفاق، والتي استنفدها حتى آخرها أهل حيي وأطراف الحي الآخر، إذ صاروا يستقبلون مروري بهم، مرور حافلةٍ لا حاجة لهم بركوبها. إذن، فإن قصدي دكاناً في حي آخر، كان يعني تلقي أسهم النظرات تلك من جديد لشهور طوال، ناهيك عما ستُرجم به أذناي من تعليقات قذرة قذارة الخراء. ثم بعد كل هذا سيكون علي أن أجري مكالمتي أمام شخص بعينه لا أعرف ما إذا كان فضول أبو إبراهيم سيكون من أحمد الخصال مقارنةً بما قد يتصف به هذا الشخص من ثرثرة، فينقل ما يسمعه من شكواي للطبيب إلى كل زبائن دكانه، وهي صفة أشهد لصاحب دكان حيّنا بأنها ليست فيه على الأقل.

"ما بعرف. لسا ما فهمت شي" أجبت أبو إبراهيم بينما أناوله أجرة المكالمة، وعدت إلى المنزل تلفُّني الحيرة، بينما يعتمل في صدري شعور غريب لم أختبره من قبل، تأكد لي لاحقاً أنه ذلك الشعور الذي يطلق عليه من يتمتعون بمشاعر كاملة اسم (لهفة).

صباح اليوم التالي، وضعت أمي على الطاولة الصغيرة أمامنا صينية القهوة، واتخذت لنفسها زاوية في غرفة الضيوف، وهي في الحقيقة غرفة معيشة صغيرة بأثاث متهالك ورائحة رطوبة دائمة، لكنها تتحول إلى غرفة ضيوف كلما صادف حضور ضيف، وهو أمر على أية حال نادر الحدوث. وكان كل ما تقوم به أمي لإجراء هذا التحويل هو رفع الملاءات عن الكنبات الثلاث، وهي ملاءات كحلية من القماش الناعم، تحمي بها القماش الأصلي من الاهتراء جراء الجلوس اليومي المتكرر. إذن، فقد وقفت أمي في إحدى زوايا الغرفة، مسندةً قامتها القصيرة إلى الحائط، وقد وسمت وجهها بعبوس الحارس الشخصي، وراحت ترمي الأستاذ عبد الهادي بنظرات قط بري شرس، لم يسبق قبلاً أن رأيتها منها.

كنت قد سبقت الضيف بالجلوس، كي لا يختار الكنبة المخصصة لي، وهي كنبة أجرينا عليها بعض التعديلات لتناسب حجمي، إذ أبدلنا أرجلها الأصلية بأرجل أكثر ارتفاعاً وأشد متانة، كما دُعم مقعدها بلوح خشبـي إضافي، لتحتمل وزني الثقيل.

أخذ يتأملني بكثير من الهدوء والجرأة، على الرغم من الذعر الذي كان قد تبدى في عينيه حين استقبلته على الباب، الذعر الذي اعتدت رؤيته في أعين الأطفال والنساء، ولم أتوقع أن أراه يوماً في عينيّ رجل يبدو عليه كل هذا الاعتداد بنفسه.

"مظهرك ممتاز، ومناسب جداً للشي يلي بدنا اياه" قال بصوته المنوِّم، بعد أن اشتمّ القهوة بطرف أنفه كالقط، وأخذ منها رشفةً خاطفة تشي بتقزز حاول جاهداً إخفاءه منذ دخوله المنزل. صمتَ بعد ذلك التصريح برهةً طويلة، باحثاً في وجهي ربما عن أمارات السرور، أو ربما منتظراً مني أن أسارع إلى سؤاله عن معنى كل هذا. غير أني لحظتها كنت منشغلاً بالبحث في داخلي عن ذلك الشعور الجميل (اللهفة) إذ لاحظت تلاشيه بشكل غريب، فور أن رأيت أنفة الرجل وتقززه من المكان الذي لم تألُ أمي جهداً منذ الصباح الباكر بتنظيفه وتهويته استعداداً لاستقبال الضيف الاستثنائي المريب، والذي أخرجت في الليلة السابقة مواهبها البوليسية الدفينة كلها في تخمين حقيقته، وسر ظهوره المفاجئ، واقتحامه حياتنا الهادئة، بهذا الشكل المثير للقلق الذي لم يكن ينقصها. "معقول يكون من طرف أبوك؟" قالت، في ختام سهرتنا في الليلة السابقة، بذعر أشد من الذي اعتراها حين اقترحت إمكانية كونه عنصر مخابرات خبيثاً أرسلوه لإيقاعي في شركٍ شيطاني، وإلصاق تهمة سياسية بـي، تقضي على ما تبقى لي من حياة بائسة.

اعتدل الرجل فجأةً في جلسته، مضفياً على نفسه مظهراً أشد وقاراً، تمهيداً للدخول في الكلام الرسمي، وبدأ يشرح الأمر بكلمات عملية منتقاة، بأسلوب بدّد كل الشكوك حول صدقه، فقد بدا فعلاً متمرساً على أداء هذه المهمة: مهمة توفير الممثلين لمنتجي الأفلام.

"ما عرفت عن إيش الفيلم؟" قال خليل باشا، الذي استغل حضوره إلى المرسم للقائي فجلس يكمل لوحته الجديدة. "لا، ما عرفت" أجبته، بينما أقف خلف ظهره بثيابـي الملطخة بالدهان، إذ كنت قد توجهت مباشرة من الورشة إلى مرسمه. وضع الفرشاة من يده واستدار إليّ، فجثوت على الأرض كعادتي ليتسنى له النظر إلى وجهي دون عناء. تطلع في عينيّ بتلك النظرة التي لم يخطر ببالي غيرها فور أن غادر منزلنا صباحاً الأستاذ عبد الهادي؛ إنها النظرة التي ترى دائماً ما لا أستطيع رؤيته. نظر ملياً في عينيّ كمن يقرأ نصاً طويلاً قراءةً متدبرة، وقال أخيراً بفم متبرم: "هلأ يعني حضرة جنابك متصل علي من ع بكرة الصبح وجَيبني ع المرسم عند هالمسا على ملا وجّي لتستشيرني إذا بتوافق على شي إنت بزاتك ما بتعرف إشّو هو؟". كان مرسمه عبارة عن سردابٍ لڤيلا في حي الشهباء، علمت منه بأنه اشتراها خصيصاً من أجل إقامة ذلك المرسم، فلم يكن يذهب إلى ڤيلته تلك إلا إذا أراد الرسم أو مقابلتي. أطرقت كطفل تلقى لتوّه تقريعاً من والده. "إيش بتفرق معك عن شو الفيلم؟" غمغمت مكابراً، إذ كنت في حقيقة الأمر قد أمضيت نهاري بأكمله داخل الورشة ساهماً، مفكراً في ماهيته. فلو لم يكن فيلماً وثائقياً لكان موضوعه يدور بلا شك، ولو في جانب منه، حول مسخٍ ما، كأحدب نوتردام أو الرجل الفيل، أو وحش ما - في أسوأ الأحوال - من وحوش أفلام الرعب المبتذلة. أما وأنه فيلم وثائقي، فلم يخطر ببالي سوى احتمال وحيد، وهو أن يكون موضوعه عمن هم مثلي، أعني المصابين بداء العملقة النخامية. وهو أمر كان قد كلفني فيما مضى عناء البحث عن طبيب آخر ونقلِ ملفي إليه، بعد أن راح طبيبـي يلح عليّ بقبول عرض صديقٍ له في جامعة حلب للقيام بمهنة مجسم توضيحي في محاضراته عن أمراض الغدد الصماء. "إيوا!" صاح الباشا بينما ينهض، فعرفت أنه سيبدأ الآن بذرع أرض السرداب، كما اعتاد أن يفعل كلما أراد أن يجنبني رهبة المواجهة.

وقف أخيراً إزاء لوحتي المعلقة على الجدار القريب، وشخص بعينيه إليها، وقال مخاطباً صورتي فيها: "يعني إنت بس محتار إذا الفكرة من حيث المبدأ مقبولة.." فأجبته: "إي.." بينما أحدق إلى لوحته الجديدة. لم تكن تلك اللوحة غريبةً وحسب، كسائر لوحاته. لقد كانت مخيفة! "هممممم" غمغم متفكراً، وأخذ وقع خطاه يقترب، إلى أن وقف وراء ظهري مباشرةً، وهمس في أذني: "إشّو

رايك بشكل القمر؟" لا أدري كيف علم بأني أتأمل القمر تحديداً في تلك اللحظة، لكنني بالطبع لم أستغرب هذا منه. كان القمر مرسوماً على هيئة رأس بومة شاحب شحوب الموت، معلق بين غيم ضبابـي في حلكة سماء سوداء، وعلى الأرض تحته مجموعة من الرجال ساروا باتجاهات شتى، يتحسسون الفراغ بأيديهم كالعميان. "بخوِّف" أجبته، فقال محافظاً على النبرة الهامسة: "إي صح.. بخوِّف، مع إنو قمر.." لم أفهم ما يود الوصول إليه، لكني اكتفيت بالإنصات، إذ أعلم أنه سيشرح الآن فكرته. قال بعد برهة من الصمت وقد اختار لصوته الآن نبرة المعلم: "القمر عنوان كبير، والفيلم عنوان كبير، والعناوين الكبيرة غير صالحة لإطلاق الأحكام، أو اتخاذ مواقف تجاهها. يعني متل ما بيقول المتل الإنكليزي: الشيطان يكمن في التفاصيل. القمر عنوان كبير، تصويرو على هيئة راس بومة هو التفصيل، وهالتفصيل خلاه قمر مخيف. ونفس الشي بخصوص الفيلم، ما بتغدر تاخود قرارك تجاهو إلا إزا عرفت عن إيش بيحكي الفيلم، وإيش رح يكون دورك فيه" قاطعته هنا: "إي، ما أنا سألت الأستاز عبد الهادي، وقلّي إنو ما بيغدر يخبّرني بهيك تفاصيل قبل ما يعتمدني المخرج لأداء الدور". عاد الباشا إلى كرسي الرسم، وأمسك بفرشاةٍ صغيرة، وأخذ يضيف طبقة سوداء جديدة إلى عينيّ البومة، حتى غدتا أشد حلكة من الليل الجاثم فوق رؤوس العميان التائهين. "معناتا بدك تستنى بالأول لتعرف هالتفاصيل، وبعدها بعتقد بتغدر تقرر بدون ما تحتاج مشورتي" قال أخيراً.

إلى ملاكي الطينيّ

فيما مضى، كانت لديّ صديقة تُدعى ذبابة السقف. لم تكن تبرح السقف على الإطلاق، على غير ما جرت عليه عادة غيرها من الذبابات التي كانت تزور غرفتي بين حين وحين، والتي كانت لا تلبث أن تطير من جديد بعد أن تستريح قليلاً على السقف، أو فور انتهاء بياتها الشتوي إذا تزامنت زيارتها مع نهاية الخريف. أما صديقتي (ذبابة السقف) فلم تغادر السقف إطلاقاً رغم انقضاء فصل الشتاء، بل لم تتزحزح قيد أنملة عن البقعة التي استوطنتها من السقف فظلت ساكنةً فيها سكون الأموات.

لم يحتج تعارفنا إلى أي من المقدمات التي يقتضيها التعارف عادةً بين البشر. "أنا صاحب الغرفة" "أنا ذبابة السقف" فقُضي الأمر ببساطةٍ هكذا وغدونا صديقين.

كثيراً ما كنت أسألها عن أي شعور يرد ذكره في كتاب من الكتب التي أقرؤها، عما إذا كان قد اعتراها في يوم من الأيام. كانت تهز رأسها بالنفي على الدوام، بعد إطراقةٍ قصيرة في ما يبدو تنقيباً في خزانة مشاعرها الصغيرة.

رأيتني الليلةَ في المنام أفتح خزانتها الصغيرة تلك في غفلةٍ منها، فوجدت داخلها خطاطيف صغيرة تدلّت من أنبوبٍ صدئ، عُلق بكل منها زوجٌ من الأجنحة
الذبابية المنزوعة. "ما كل هذه الأجنحة؟" سألتها في المنام. "إنها مشاعري" قالت بغير اكتراث. "لكنها
متشابهة! فكيف تميزين بعضها عن بعض؟" سألتها متعجباً.

أغلقت درفتيّ خزانتها برويّةٍ، وقالت لاعقةً جناحيها المتيبسين: "
ما دمت لا أرتديها، فما الحاجة إلى التفريق بينها؟".

استيقظت من ذلك الحلم الغريب، لأرى في السقف صورتك التي
تحتل الآن مكان تلك الذبابة. فسألتها بعد طول شرود: هل في
خزانتك الكثيرُ، يا ملاكي، من المشاعر المعلّقة؟

عبيل

سوريا/حلب 10 حزيران 1986

الفصل الخامس

كانت قرابة الثامنة مساءً حين غادرتُ محطة الحجاز وتوجهت من فوري إلى مبنى الجريدة. كان علي مراجعة الحوارات التي أجريتها، والتقارير التي أعددتها على مدار الأيام السابقة في الأردن، ومن ثم طباعتها على الآلة الكاتبة لأسلمها صباح الغد لمحرر الصفحة الثقافية، وهي أعمالٌ تحتاج إلى شيء من الانتباه والتركيز الذي كان حينها غائباً تماماً عن ذهني المشغول بالرسالة المدسوسة في الحقيبة.

"والله يا أستاز عم بتدخن كتير" قال العم أبو صبحي بنبرة إشفاق وهو يضع أمامي فنجان القهوة، فناولته علبة السجائر دون أن ألتفت إليه. كانت تلك طريقته الشهيرة في طلب سيجارة. أشعل واحدةً وأعاد العلبة إلى مكانها على الطاولة: "يعني ما عجبتك عمّان؟".

"عجبتني، بس الفعاليات ما كتير عجبتني" أجبته بينما أصارع ورقةً جديدة لوضعها في الآلة الكاتبة، الجزئية الأبغض في عملية الطباعة بالنسبة إلي دائماً. "إي بسيطة أستاز، المهم غيرت جو وانبسطت كم يوم".

كان العم أبو صبحي قد أخبرنا غير مرة بأنه لم يغادر دمشق طوال سني حياته سوى إلى حمص، لزيارة ابنته المتزوجة هناك. "لوين بدي سافر يعني؟ إي ما حدا من كل أجيالي طلع برات سوريا إلا للحج.. الله يطعمنا بس زيارة مكة ويطعمها لكل مشتهي يا حق" لكنه في قرارة قلبه كان يشتهي أكثر من زيارة مكة. كنت ألاحظ كيف تشنف أذناه طرباً لسماع الأخبار والحكايا عن الأمصار والأسفار، وألمحُ ترقرق الدمع في عينيه الذاويتين، إن أحسن الراوي وصف المكان.

بعد ثلاثة أعوام من هذه الدردشة، سيصلني نبأ وفاة العم أبو صبحي، بينما أقضي إجازتي السنوية قادماً من الكويت. وسأقدم واجب العزاء لأبنائه في السرادق الذي أقاموه له في نهر عيشة. سأكون حينها برفقة أحد زملائي السابقين في الجريدة، والذي سيصر على نحو غريب على معاملتي طيلة المشوار على أنني سائح، أو مواطنٍ عائد من المهجر بعد عقودٍ من الغياب في أحسن الأحوال، رغم أني لم أكن قد غبت عن البلد أكثر من سنتين! "وهاي يا سيدي نهر عيشة" قال فور دخولنا. "الناس هون آخر تعتير الله وكيلك.. دخلك عندكون هيك عشوائيات بالكويت؟" فكرت لحظتها بصفعه لعله يعود إلى رشده. على أية حال، فلنعد نحن إلى وفاة أبو صبحي.. إذ بينما أسير رفقة زميلي المخبول نحو السرادق، ستلفت انتباهي ورقة النعوة الملصقة على أحد الأعمدة: "المغفور له بإذن الله (الحاج) محمود الرملي أبو صبحي" أسأل أحد أبنائه، بفضول الصحفي، بينما أصافحه مغادراً: "الوالد حج؟" ليتضح أن (الحاج) لم تكن سوى خطأ مطبعي، ربما تدخّل شبح المرحوم في اقترافه، بعد أن عجز المرحوم نفسه عن تحقيق حلمه الأثير ذاك خلال حياته. (أرجو أن يكون شبحي بنبل شبح العم أبو صبحي، وألا يكتفي بتلك الأفعال الصبيانية، ككسر الأطباق ليلاً وسحب الشراشف عن السيقان الناعمة).

كانت سماعات سيارة الأجرة التي ركبتها من أمام مبنى الجريدة تشدو بأغنية الهوى سلطان بصوتٍ خفيضٍ متسق مع الإضاءة الداخلية الخافتة التي تميز ليل التكاسي الدمشقية.

دمشق هي حبيبتي التي تكبرني بأحد عشر ألف عام. كنت في الخامسة عشرة من عمري حين التقيتها أول مرة. كان هذا في صيف عام 1970 حين اصطحبني أبـي إليها وفاءً بوعده، لقاءَ تفوقي في الصف التاسع. "وهاي هي الشام يا سيد هشام.. شو رايك؟ مين أحلى هي وللا طرطوس؟" كنت أعلم كم يعشق أبـي مدينته، وهو الذي كان يُكنى قبل زواجه بـ أبو أرواد[8]، فاستحيت من مصارحته بما اعتمل في قلبـي من مشاعر، مذ قرأت: دمشق ترحب بكم.

رفض السائق، رائقُ المزاج، دخولَ ساحة باب توما، بحجة أن الوقت قد تأخر، وسيعود من هناك بمقاعد خاوية، فأنزلني أمام باب شرقي. كان عليّ حمل الحقيبة والسير بها ما يقارب النصف ساعة، في تلك الليلة الصيفية الحارة، لبلوغ البيت الدمشقي القديم الذي استأجرت إحدى غرفه الصغيرة في الطابق العلوي.

كان الليل قد انتصف منذ ما يقارب الساعتين، فخلت الأزقة من المارة. كانت تلك الأزقة الضيقة ستبدو موحشةً بلا شك لمن سار فيها وحيداً في مثل ذلك الوقت من الليل، في مدينة أخرى غير دمشق.. أما دمشق، فللوحدة في أزقتها طعمٌ مختلف، إنها الوحدة المؤنسة.. يؤنسك عطرُ ياسمينةٍ غفت بسحر بياضها الأزلي على جدار حجارةٍ آخت بلونها الليل.. تؤنسك أدعية تدلت من شباك حجرة الأبناء إذ تغطيهم على أسرتهم أمٌّ لها شحوب وجه ملاك.. يؤنسك ضوء مصباحين تقابلا متسامرين حتى الصباح، كلٌّ تعلّق مثل نجمٍ فوق بابه.. ويؤنسك، تثاؤبُ قطةٍ شاميةٍ أيقظها مرورك فالتفتت إليك، ثم أغمضت عينيها باطمئنان جارٍ قديم.

استلقيتُ أخيراً على السرير، ورحت أقلّب الظرف بين يديّ بحماسةٍ شابها قلقٌ مبهم. كانت مرسلةً إلى عنوان في الأردن، وكُتب فوق العنوان: "تصل ليد الآنسة شذا عمران"، بينما كُتب على الوجه المقابل اسم المرسل وعنوانه، كان العنوان في حلب، أما المرسل فكان اسمه غريباً: عبيل!

عبيل!.. أيكون هذا اسمه؟ ومن تكون شذا عمران؟ أهي حبيبته؟ ماذا يكتب من هو مثله لحبيبته؟ كانت أصابعي تسابق تساؤلاتي إلى داخل الظرف بغير وعي، وسحبتُ الرسالة..

صباح اليوم التالي، في مكتب محرر الصفحة الثقافية، تمنيتُ لو أن لي بُنية ذلك العملاق!

"وين الصور؟!" تساءل المحرر بغضب بينما يقلب الأوراق التي سلمتها بين يديه المضطربتين.

"نسيت الكاميرا بالشام" أجبت مطأطئاً رأسي بينما أشتمه في سري. "نسيتها قلتلي؟ وبتلومني حضرتك لما برشح غيرك لتغطية الفعاليات الخارجية! والله ما يدرى رئيس القسم.." فقاطعته متمتماً بينما أحك عنقي: "أي خارجية؟! إي ليكها الأردن.. لزق درعا".

"إي والله، حقك عليي أستاز هشام.. المرة الجاية ببعتك على مهرجان أدنبرة.. وللا قلك، شو رايك تروح تغطيلنا معرض فرانكفورت؟ صحيح، ما قلتلي، شلونك بالألماني؟".

كنت كلما رأيت ذلك الرجل تذكرت جارنا في طرطوس أبو مرعي، كان مساعداً في أحد الفروع الأمنية، وكنا نلقبه بالمساعد صبارة، بسبب الشعر القصير المتناثر واقفاً فوق صلعته

الوردية، كشوك أشجار الصبار. غير أن المحرر لم يكن أصلع، ولا بشعرٍ كالشوك، لكنه كان يذكرني بجارنا بسبب الحكة التي تنهش عنقي كلما رأيت أياً منهما.

"إي وبعدين؟" سألتني في مكتبي زميلتي رنا، المدققة اللغوية، التي جلست لسؤالي عن رحلة الأردن.

"ولا قبلين، وعدته أمرق اليوم ع جسر الرئيس، واشتري كتاب تعلم اللغة الألمانية بدون معلم" أجبتها محاولاً موازنة القلم فوق سبابتي.

"مجنون إنت ع فكرة!" قالت مبتسمةً، وسحبت القلم من فوق يدي قائلةً: "المهم، كيف لقيتلي عمّان؟ حلوة؟ مين شفت هنيك؟ مع مين تصورت؟ إي صحيح نسيت.. ما كان معك كاميرا" استدركت ضاحكةً.

"دخلك.. مارق عليكي اسم عَبيل؟" سألتها معدلاً جلستي باهتمام.

"عبيل؟ ع وزن فَعيل يعني؟ لا والله مو سمعانة بهيك اسم.. بلكي قصدك عُبيل..".

"ما بعرف، هو مكتوب من دون تشكيل. وشو يعني عُبيل؟".

"ممم، كمان ما بعرف.. بس ممكن تكون تصغير لعبل".

"إي؟ وشو يعني عبل؟".

"عبل يعني ضخم.. بس خليني راجعلك المعجم لأتأكد إذا في كلمة فصيحة بفتح حرف العين وبخبرك".

"ماشي، ضروري ما تنسي".

"حاضر، ولا يهمك. بس ما قلتلي، وين قريت هالاسم؟".

"هلأ شو بدك بوين قريتو؟.. اي صحيح، زاهر شو أخبارو؟".

"ما في، على حطة إيدك.. قال داق خلقو من التدريس، وبدو ياني شفلو شغل هون معي بالجريدة".

"إيوا، داق خلقو من التدريس قلتيلي؟ والله مانك قليل يا أبو الزوز.. لكان يا عمي، ما في أحلى من قرب الحبيب".

"لا حرام عليك، والله المسكين كرهان المدرسة، وطلابو قرود، مجننينو".

"يعني حضرتك مفهمتيه إنو هالجريدة الموقرة جنة خالية من القرود؟ لك عالقليلة قرودو صغيرة مقدور عليها".

بعد قرابة خمسة أشهر من تلك الجلسة مع رنا، كان خطيبها زاهر لا يزال يقارع القردة الصغار في مدرسته، بينما رفعتُ أنا الراية البيضاء لغوريلا اللاجدوى، واستقلتُ من الجريدة.

نخطئ أحياناً حين نظن أن الذي نختاره عن محبة هو بالضرورة ما سيسعدنا. فالمحبة ماكرةٌ حسناء، تميلُ بقدها المياس خلفك لحظة الاختيار، ملصقةً صدرها الدافئ بعظام ظهرك، مغمضةً عينيك بكفيها الناعمتين كالسحاب، يضوع من فمها النديِّ عطر بستانٍ شهي حين تهمس في أذنك بصوتها العذب المخدِّر: ماذا تختار؟

فماذا عساك تختار حينها وقد تعطل عقلك؟

"صحافة شو؟ جنيت لك ابني؟ طالعلك طب أسنان بجامعة تشرين وبدك تروح تدرس أدب عربـي بالشام لتشتغل بالصحافة؟" كان أبـي إذ ذاك يدافع عن حلمٍ تراءى له فجأةً ليلة إعلان النتائج، مقابل الحلم الذي نما في قلبـي ليلةً إثر ليلةٍ منذ سنين طوال، مذ بدأتُ قراءة الصحف ومتابعة كتّاب المقالات والأعمدة.

في الممر الطويل المؤدي إلى مكتب رئيس القسم، سرتُ بانكسار من مشى في جنازة أمه، تتدلى من يدي ورقة الاستقالة متهاديةً كراية استسلامٍ بيد محاربٍ جريح. كانت ذكرياتي مع هذه المهنة تتقافز في رأسي كما تتقافز الدجاجات المحمولة إلى الذبح في سلة صاحب المدجنة، بدءاً من ذكرى يومي الأول في الجريدة، مروراً بذكرياتٍ ومواقف شتى بحلوها ومرها على مدى خمسة أعوام، وانتهاءً بتلك الذكرى المشؤومة التي كانت السبب وراء استقالتي. كان ذاك عندما كُلفت بإجراء حوار مع أحد (الأدباء الكبار) على خلفية حصوله على إحدى جوائز الدولة، فأمضيت ما يقارب الأسبوعين في مطاردته هاتفياً، إلى أن استطعت أخيراً الظفر بموافقته على إجراء الحوار

الذي كان يتهرب منه متذرعاً بكثرة انشغاله. كان من المفترض أن نلتقي تمام العاشرة صباحاً في مقهى الهاڤانا، لكنه حضر بعد ساعة، ولم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار عن تأخره. غير أن الجلسة لم تدم لأكثر من عشر دقائق، حين وضعتُ القلم من يدي بهدوء قبل أن ينهي الإجابة عن سؤالي الأول، وقلتُ له: "أنا رجلٌ مسالمٌ بطبعي.. مسالمٌ حدَّ الركض وراء القط معتذراً إن أفزعته بخروجي المفاجئ من باب المنزل. أتصدق؟ شتمتني سيدةٌ في الشارع منذ أيام، لسبب لم أستطع حتى الآن معرفته، فقابلتُ شتيمتها بابتسامةِ أخرس يردُّ تحية جارته".

"لكنك بهذا الشكل لا تكون مسالماً يا عزيزي!" علّق ساخراً.

"ماذا أكون إذن؟" سألته، فضحك قائلاً: "لا عليك.. لكن لماذا تخبرني بكل هذا؟".

"إنها نظرتك.. نظرة الاستعلاء هذه التي ما انفكت تنعق بوجهي صارخةً مذ جلسنا: قم واصفعني!".

وجدته صباح اليوم التالي بانتظاري في مكتب رئيس القسم، حيث تولى الأخير مهمة توبيخي أمامه، لأتلقى بعد ذلك محاضرةً في أصول تعامل الصحفي مع كبار الأدباء، من محرر الصفحة الذي كان هو من كلفني (على مضض) بإجراء ذلك الحوار.

حاولت بعدها تناسي الأمر والتعالي على الجرح في سبيل لقمة العيش، لكنني لم أستطع، فوجدتني صباح اليوم التالي أكتب طلب الاستقالة.

كانت عاملة مقسم الهاتف هي آخر من ودعتهم من الزملاء بعد استقالتي. أوصيتها بسؤال كل من يتصل في طلبي عن اسمه وأخذِ رقم هاتفه لأعاود الاتصال به، إذ أوجستُ بأن حظي الملعون، وهو مطرقٌ رأسَه قبالتي أمام رقعة الشطرنج، كان ينتظر بفارغ الصبر أن أقوم بحركة استقالتي، لكي يقوم بعدها بتحريك عبيل للاتصال بي، فيضيّع عليّ بهذا فرصة الرد على اتصاله. لكن يبدو بأن ذلك الحظ الوغد قد تفطّن إلى اكتشافي حيلته، إذ لم يصدف قط أن كان عبيل مِن بين مَن اتصلوا وتركوا أسماءهم في الجريدة على مدار أسبوعين منذ استقالتي، إلى أن قررت أخيراً مباغتته بحركةٍ حاسمة: كش ملك!

الفصل السادس

"رح انزل ع الشام مع الأستاز عبد الهادي" أبلغت أمي بقراري فور عودتي من مرسم الباشا. كنت قد وجدتها واقفةً على الباب في انتظاري، بوجهٍ بدا عليه شحوبٌ كئيب، لم أره منها منذ انقطاع رسائل والدي. كان قد هجرها وأنا لم أزل في العاشرة من عمري. كانت تقول لي في سني هجره الأولى بأنه سافر إلى ليبيا للعمل، وكانت كلما وصلتها رسالة منه تخبئها عني، بحجة أن فيها كلاماً لا يجوز للصغار قراءته، ثم تخبرني بأنه حمّلها سلامه لي وقبلاته، فكنت أهز رأسي مبتسماً في كل مرة، مبتلعاً مرارة خلو ذاكرتي من أي مشهد يقوم فيه بتقبيلي.. فكيف لمن لم يقدم يوماً على طبع قبلة على خدي حين كنت أمام ناظريه، أن يرسل الآن إلي قبلاته في رسالة؟ لم تكن أمي تجيد الكذب، أو لنقل لم يكن ماضي أبـي معنا ليساعدها على أن يبدو كذبها حول محبته واشتياقه قابلاً للتصديق، وهو الذي غادرنا مخلفاً وراءه من المشاهد المؤلمة ما لا أستطيع كلما تذكرتها أن أمنع نفسي من الشعور بشيء من السعادة إزاء رحيله، بل كنت كلما وصلتنا رسالة منه، أدعو الله في سري ألا يكون فيها خبر اقتراب عودته، لأدرك لاحقاً، بعد أن كبرت قليلاً، أن شحوب وجه أمي مع كل رسالة تصلها منه، كان لذات الهاجس.

كانت الدكتورة هالة، صاحبة الصيدلية الواقعة أمام منزلنا، هي التي تقرأ لها الرسائل دائماً. ثم بعد أن تيقنت أمي أن كذبها لم يعد مجدياً في شيء حيال ولد كبر قبل أوانه وبات يفهم أكثر مما تود له أن يفهمه، صارت أول الأمر تكتفي بالذهاب إلى الصيدلية لقراءة الرسالة فحسب، بينما توكل إلي مهمة كتابة الرد، ثم لم تلبث أن صارت الدكتورة هالة هي الممنوعة من معرفة فحوى الرسائل، فصرت أنا القارئ والكاتب الوحيد المعتمد. لم يكن في رسائلها إليه أي كلام يستحق حتى صفة الكلام. كانت كلها أشبه بكشوف الحساب التي يقدمها المحاسب لصاحب العمل آخر كل شهر: قوائم مصاريف

ومشتريات، وأرقام مداخيل ومخاريج. أما رسائله، فكان يستهلها دائماً، دونما تحية، برقم يدل على ما يحتويه الظرف الجديد من نقود، ثم ملاحظات مقتضبة حول الكشف السابق المرسل من طرف أمي. بينما تكون الاستفاضة على الدوام في الختام، حول ضرورة اقتصادنا في المصروف، وعن جهاده المضني في حصوله على كل فلس يرسله إلينا.

بعد عام من تسلمي مهام قراءة الرسائل وكتابتها، كتبت رسالة إليه من دون علم أمي، ادعيت أنها على لسانها. أخبرته فيها بأني تركت المدرسة، وحصلت على عمل بأجر جيد يكفي مصروفنا اليومي، وألا حاجة به بعد اليوم
إلى إرسال النقود. ومنذ تلك الرسالة لم نعد نتلقى منه أية رسالة.

كنت حينها في الصف العاشر، لم تعلم أمي بأمر تركي للمدرسة إلا بعد انتهاء العام الدراسي، إذ كنت أخرج كل صباح بملابسي المدرسية، لأبدلها بثياب العمل التي خبأتها في كشك السجائر الذي آخذ منه علب السجائر المهربة، وأبيعها لرواد الكراجات، ثم عند اقتراب موعد العودة من المدرسة، أرتدي لباسي المدرسي، وأعود إلى المنزل. وفي مطلع كل شهر أضع ما جمعته من نقود في ظرف قديم من ظروف أبـي، وأسلمه لساعي البريد الذي أخبرته بأن والدي يمر بظروف صحية صعبة تمنعه عن العمل، ولا أريد لأمي أن تعلم بشأنها. فتعاطف مع كذبتي، وتعهد بأن يكتم السر، وأن يؤدي دوره على أحسن وجه في المسرحية النبيلة تلك، حفاظاً على قلب الزوجة المحبة لزوجها من الانكسار.

بعد أشهر ستة من تلك المسرحية، ومع انتهاء العام الدراسي الذي يعني أن أسلم أمي شهادة نهاية العام كما العادة، جاء وقت إسدال الستار وتحية الجمهور..

لمنزلنا حوش صغير زُرعت أجنابه ببعض الأشجار والكثير من الزهور التي تحبها أمي. بنيت في إحدى زواياه غرفة للغسيل، وهي غرفة صغيرة بثلاثة جدران من الطابوق، تحمل سقفاً خرسانياً لحماية الغسيل المنشور من الأمطار في فصل الشتاء. كان صباح يوم صيفي، حين خرجت إلى الحوش باحثاً عن أمي، فوجدتها جالسةً أمام طشت الغسيل. جلست قبالتها دون أن أنظر إليها. كانت يداها الضئيلتان تغطسان برشاقة الإوز في الماء المغطى برغوة الصابون، ساحبتين معهما قميصي الأحب إلى قلبها من بين قمصاني، تدعكانه في القاع، ثم تخرجان به من جديد، في حركة آلية رتيبة، وكأنها مكنة غسيل غطيت بثوب امرأة.

"أنا مبطِّل من المدرسة" قلتها بصوتٍ بدا كأنين مسنن صدئ، فتوقفت مكنة الغسيل من فورها عن العمل. أخذت اليدان بالارتجاف تحت الماء، محدثتين اضطراباً في السطح الرغوي حولهما. صعدت بعيني الخائفتين إلى وجهها، فرأيت الهلع في عينيها. كانت شفتاها ترتجفان باضطراب كأنها تحاول النطق فلا تستطيع. سرت قشعريرة بحدة الثلج في أوصالي. "العاشر كتير صعب.. ما عم بفهم منو شي" كذبت لأهدئ من روعها، فازداد اضطراب شفتيها وجحوظ عينيها. لم تلزمها سوى نظرة خاطفة إلى عينيّ لتكتشف أمر كذبي. "إشقد إلك مبطل؟" نطقت أخيراً. "شي ست شهور" أجبت بارتياع دون تردد، ووجدتني مدفوعاً لإتمام الاعتراف كمعتقل تحت وطأة التعذيب: "كنت عبشتغل" انفجر الماء وانقضّت بيديها على كتفيّ، بعد أن فزّت من مكانها بشراسة وحش صغير، ملقية ثقلها كله على رأسي، فأسلمتها إياه بخضوعٍ تام، مغمضاً عينيّ، لتدفعه إلى الطشت، وتُغطس وجهي في مائه المعكر بالصابون وأقذار قميصي الذي تحب.

بدأت أشعر بالاختناق.. إنه الموت أخيراً! الموت الذي لطالما تمنيته ولم أجرؤ لحظةً، ربما لأجلها، على الذهاب إليه. ها هو الآن يأتيني على يديها تحت ماء غسيلها. لقد كان عليها أن تفعل هذا منذ زمن طويل، منذ أن كنت غارقاً في ماء رحمها، غير أنها لم تكن قد رأتني بعد، لم تكن تعلم أن الذي تحمله في أحشائها وحش دميم، لن تستطيع بعد إنجابه أن تمنع قلب الأم عن محبته. لكن ها هو الآن، بعد أن تحملت بشاعته، وكآبة منظره كل تلك السنين، وعناءَ الاهتمام المضني بمن هو بمثل تكوينه ووضعه الصحي، جاء ليغرس في قلبها سكين خذلانه لحلمها الوحيد بأن تراه في يوم من الأيام يشبه بقية الأبناء في أي شيء جميل، ولو بمجرد شهادة جامعية تعلقها على جدار متسخ في صدر البيت.

انتشلت وجهي من الماء، وراحت تصفعه بحرقة من تصفع وجه حبيب خائن، ثم ارتمت بوجهها على صدري وأجهشت ببكاء مرير، بينما يقطر من وجهي على منديل رأسها ماء الغسيل الممتزج بدمعي.

لم أبك لبكائها وحسب، بل بكيت لأني كنت بحاجة ماسة إلى البكاء، بعد أن كنت قد كتمت دمعي كل تلك الشهور، أمام ما كنت أتعرض إليه في كل يوم من سخرية الباعة الآخرين، ونظرات المشترين وتعليقاتهم، على حد سواء، إزاء هيئتي. ربما فاق بكائي لهذا السبب بكائي الذي أهرقته يومها على نواح أمي.. وربما بكيت أيضاً لأنها لم تقتلني..

بعد أسبوع من إضرابها عن التحدث إلي، وبينما كنت على الباب صباحاً أهم بالخروج إلى العمل، سألتني دون أن تنظر إلي: "ما بتِغدر ترجع السنة الجاي ع المدرسة؟" فأجبتها: "ما بعرف، بس ما بدي أرجع. أبوي لو كان ناوي يضل يصرف علينا ما كان رضي يخليني أترك المدرسة لما خبّرتو" نظرت إلي من فورها وقد تفاجأت بعلم أبـي بالأمر فأخبرتها بكل شيء، وأخبرتها بأني لم أعد أطيق قراءة تذمره حيال ما يعتبره تبذيراً للقروش القليلة التي يتصدق بها علينا بداية كل شهر. فانفرجت شفتاها عن ابتسامة مبهمة، ولمحت في عينيها شيئاً من السرور لم أفهم سببه، لكنه بدا لي مما تفيض به قلوب الأمهات. "إيش عبتشتغل؟" سألتني بشفتيها الباسمتين. "عم بيع دخان تهريب بكراجات هنانو" أجبتها، وغادرت من فوري مسابقاً تلاشي ابتسامتها التي كنت قد حرمت منها لأسبوع كامل بدا كالدهر.

على مفرش الغداء في نفس ذلك اليوم، قالت بصوتٍ بدا خارجاً من حنجرة فلاح قوي، بينما تعصر الليمون على طبق القرنبيط المقلي: "شفلك شي شغلة تانية غير هالشغلة، والله لتعفّن بالحبوس إزا بيلقطوك عم تبيع دخان مهرَّب".

لم تكن البدائل المتاحة كثيرة، فإما أن أستمر في الكراجات، لكن ببيع بضائع مسموحة، أو أن أتعلم حرفةً ما، من التي تمارس في المنطقة الصناعية. وفي كلتا الحالتين كان سيتوجب عليّ الاستمرار في التعامل المباشر مع الناس والاحتكاك بهم بشكل يومي، الأمر الذي صار بوسعي التحرر منه أخيراً، طالما لم يعد من الضروري اختيار مهنة تكون ساعات عملها بحدود ساعات المدرسة، ولا أن أعود منها إلى أمي خالياً من أدلة الإدانة.

شاءت الأقدار التي عودتني دائماً على مفاجأتي، أن تكون مدرستي هي الورشة الأولى في عملي كدهان. فها هي المدرسة التي تخليت عنها، لم تتخل بدورها عني، بل أصرت فيما يبدو على أن تستمر في تعليمي. "ها أنت أخيراً قد قررت أن أعلمك شيئاً مفيداً بدلاً من ذلك الهراء الذي كنت أعلمك إياه طوال تلك السنين" ربما قالت جدرانها عند أول خدش أحدثته في خدها بورق الصنفرة.

"شدّلي إيدك شوي، حاجتك عبتحف الحيط متل يللي عم يحك خد حبيبتو!" قال المعلم أبو فادي في يومي الأول معه، وسط ضحكاتٍ منافقة من بقية الشغّيلة[9].

لم تكن المدرسة حبيبتي في يوم من الأيام على أية حال، ولم يكن المعلم أبو فادي، حين شبّه بسخريته تلك أحد جدرانها بخد حبيبتي، يعلم أصلاً أن تلك المدرسة قد كنت طالباً على مقاعدها قبل بضعة شهور، فهو من صنف الرجال الذين لا يأبهون بشيء من كل هراء المعلومات الشخصية، إذ لم يسألني حتى عن اسمي حين ذهبت إلى منزله بعد أن دلني عليه زوج جارةٍ من صديقات أمي القلائل. تأملني حينها على باب منزله متفرساً طولي وكأن بكرة قياس تدور في رأسه، ثم قال بكآبة وقد وضع يديه في جيب بيجامته النيلون: "بتوفر علينا سيبة10" لم ألمح في عينيه أية دهشة على الإطلاق، لقد استقبل طفرتي كما يستقبل المرء عادةً أي شخص طبيعي، وهو أمر بث الطمأنينة في نفسي، فوجدتني أسأله بحماسة طفولية عما إذا كان بمقدوري مباشرة العمل صباح اليوم التالي، فنظر في وجهي نظرةً طويلة خلت من أي تعبير، كمن سرحت عيناه في جدار مصمت، ثم قال أخيراً: "إي بتغدر. ستة الصبح بتكون مزروع ع باب مدرسة سلطان باشا يللي قدّام الكازية" وأدار لي ظهره ودخل منزله مغلقاً وراءه الباب، وقد فتح في قلبي للرياح العاتية ألفاً من الأبواب، بذكر اسم مدرستي.

كنت قد التحقت بتلك المدرسة في صعودي من المرحلة الابتدائية إلى المتوسطة منتقلاً من الصف السادس إلى السابع، لتشهد جدرانها تحولي الجسدي، من طفل دميم، أطول بقليل من أترابه، بداية عامي الدراسي الأول فيها، إلى عملاق حقيقي مكتمل مع نهاية ثالث الأعوام.

"بس لا تكون صدّقت قصة الفيلم!" قالت أمي بغضب أم توبخ طفلها. "إي صدقت، إيش يعني بدّو يخطفني؟" أجبتها بعناد، وقد تقمصت دور ذلك الطفل على ما يبدو. كنت لم أزل واقفاً قبالتها في منتصف الغرفة. لاحظت كيف راحت تتأمل جسدي الهائل بعينين ذاهلتين، وكأنها تفكر بالانقضاض عليّ من جديد كما فعلت في غرفة الغسيل قبل ستة أعوام، متمنيةً ربما لو كنت جالساً لتسهل عليها المهمة التي تبدو الآن مستحيلة بوقوفي. "لا أكيد ما رح يخطفك.. بتخطف عشرة متلو، الله مصلّي ع النبـي" قالت، لا لتراضيني، بل لتطمئن نفسها.

إلى ملاكي الطينيّ

لست أدري، يا ملاكي، ما الذي يجنيه قلب الأم من حب الولد، غير الشقاء والعذاب. ربما لو كنت أماً لما ارتجيت من الإله سوى اجتثاث قلبي. سأقول رحماك يا رب القلوب، ما عدت أقوى على احتمال كل هذا القلب في صدري!

يا لبؤس الأمهات! تحسب الحُبلى ولادتها خلاصاً، ثم تدرك لاحقاً أن الولادة لم تكن سوى انتقال ذلك الحِمل الثقيل من الرحم إلى القلب..

عبيل

سوريا/حلب 21 نيسان 1986

الفصل السابع

إنها الثامنة صباحاً.. أنا الآن في طريقي إلى حلب.

توقفت الحافلة على حاجز تفتيش مزدوج، جيش وأمن دولة، ربما نُصب بناءً على إخبارية في سياق حملة الاعتقالات التي كانت لم تزل مستمرة منذ تفجيرات آذار ونيسان. دائماً ما ألمس في قسمات عناصر الجيش بؤساً لا أجده في وجوه عناصر أمن الدولة. ربما لأن عناصر الأمن يرتدون على الدوام لباساً مدنياً يجنبهم مظهر البؤس الذي يضفيه اللباس العسكري.. أو لأن الجندي في جيش هذا البلد بائسٌ حقاً، ولا شأن للرداء في الأمر، فها هو الضابط أيضاً بلباسٍ عسكري، إلا أن سيماء النعيم تتلظى في وجنتيه كتاجر ثري.

لقد كنت ضابطاً ذات يوم! كان هذا قبل ما يقارب سبعة أعوام، في الخدمة الإلزامية بعد تخرجي من الجامعة. لم تكن الخدمة العسكرية مدرجةً في مخطط حياتي على الإطلاق، إلى أن أنجبت أمي لي أخاً على غفلة من الزمان، بعد إضراب عن إنجاب الذكور دام لأكثر من سبعة عشر عاماً. كنت حينها في الصف الحادي عشر. أذكر أني فرحت أيما فرح بحصولي أخيراً على شقيق من شأنه أن يغدو لي صديقاً ذات يوم، لكنني سرعان ما استوعبت حين حملته بين ذراعيّ لأول مرة، أن هذا المخلوق الصغير، مهما اجتهد في أن يكبر سريعاً، سيبقى فارق السن الشاسع بيننا حائلاً دون صداقتنا. لكن خيبة الأمل لم تقتصر على هذا وحسب، إذ كانت خيبتي الأكبر عندما اضطررت بعد شهور من حصولي على هذا الشقيق الطارئ، إلى الذهاب إلى شعبة التجنيد، لتعديل وضعي، من معفى من الخدمة العسكرية الإلزامية بحسب قانون الخدمة، بحكم كوني الذكر الوحيد لوالديّ، إلى ملزم بالخدمة العسكرية. التحقت إذن بالخدمة العسكرية فور تخرجي، وأمضيت فيها عامين كاملين. كانا عامين للنسيان، وقد نسيتهما حقاً، على الرغم مما احتل صدري فيهما من ضيق

ظننته سيظل ملازماً لروحي ما حييت، وأن ظلال ما مر فيهما من ذكريات كئيبة ستبقى مخيمةً على جدار قلبـي حتى آخر العمر.

إذن، فقد امحت تانك السنتان من ذاكرتي تماماً، بكل ما مر فيهما من لحظات ووجوه، باستثناء شخص واحد، لم يكن من الممكن نسيانه؛ إنه ذلك المجند الحلبـي الذي كان أول كلامه لي "لستَ مثلهم" وكان يعني بقية الضباط، كان يعنيهم جميعاً، ضباط الخدمة الإلزامية مثلي، والضباط المتطوعين كهذا الضابط ذي الوجنتين المتوردين. ها هو الآن يعبر بين مقاعدنا بجسده القصير الممتلئ حانياً رأسه الكبير فوقنا كضبعٍ يرتقي أكمة، متفحصاً وجوهنا كمن يبحث بينها عن وجه مطابق لصورة تم تعميمها عليهم. يهوي بكفه الثقيلة فوق كتف شاب يتقدمني بثلاثة مقاعد، ويأمره بالترجل من الحافلة، ثم يكمل مسيره بين الوجوه. يقف فوق رأسي، يطلب بطاقة هويتي، أخرجها من محفظتي وأمدها إليه بيدٍ غير واثقة. يسألني عن مهنتي بينما يتفرس لحيتي، أجيبه بارتباك بينما أناوله بطاقتي الصحفية التي تعمدت الاحتفاظ بها بعد الاستقالة لتكون لي درعاً في مثل هذه المواقف. "جريدة تشرين" يغمغم بما يشبه السعادة، كما لو أنها المرة الأولى التي يلتقي فيها صحفياً. أهز رأسي مصادقاً بابتسامةٍ مرتجفة دون أن أنبس. يعيد إلي البطاقة الشخصية، ويستبقي الصحفية في يده ويكمل تقدمه.

"مين هم؟" سألت المجند الحلبـي، الذي بدا طفلاً لم يبلغ الحلم بعد، لفرط ضآلة جسده وبراءة ملامحه، رغم أنه لا يصغرني سوى بأربعة أعوام. "باقي الضباط" أجاب بنفَسٍ مضطرب، أربك البخار المتدافع من فمه في تلك الليلة الشتوية السامة. ربّتُّ على كتفه بعد تردد مرتبك، ومضيت مستأنفاً جولتي الليلية في تفقد حراس المعسكر.

"شو بتكتب بالجريدة؟" سألني الضابط بعد أن أنزل رجلين آخرين من مؤخرة الحافلة وعاد إلي. "بكتب بالصفحة الثقافية" أجبت بخوف لم أستطع مواراته، إذ كنت لتوي قد رأيت من النافذة كيف استقبل عناصر الأمن الركاب الثلاثة. ناولني البطاقة بعد برهة من التفكير حسبتها عاماً كاملاً، وترجل أخيراً بعد أن أمر معاون السائق بإنزال أمتعة أولئك الركاب، الذين لم يكن لهم حسن طالعي.

"شو قصة هالحاجز يا ابني؟ وليش أخدوهون" سألت عجوزٌ تجلس في المقاعد الأمامية، موجهة سؤالها الانتحاري إلى معاون سائق الحافلة، الذي لم يحر جواباً. أعادت عليه السؤال بصوت أعلى إذ ظنته لم يسمعها أول مرة، فردّ رجل من ورائها، بصوتٍ جهوري كمذيع نشرات الأخبار

في التلفزيون السوري: "وحدي الله يا حجة" فلاذت العجوز من فورها بالصمت، من دون أن توحّد الله.

"لستَ مثلهم" ربما لو لم يعجِّل المجند الحلبـي بقولها لي في وقت مبكر من بداية خدمتي، لأصبحت مثلهم، أو ربما أسوأ منهم. لكن كلمته تلك، ظلت متسلطة عليّ كأمر من السماء: لا تكن مثلهم!

أنا الآن في طريقي إليه، لدي رقم هاتفه في حلب، وعنوان عبيل على ظرف الرسالة، سأزور المجند أولاً، وربما أطلب منه مرافقتي إلى حيث يسكن العملاق.

حين قررت مواجهة عبيل أخيراً، كان قد انقضى على جلوسي بلا عمل نحو أسبوعين. لم يسبق لي منذ تعييني في الصحيفة قط أن أخذت إجازة طويلة. كانت كلها إجازات مرضية قصيرة، لا آخذها إلا إذا استبد بـي المرض وتمكن من جسدي الهزيل، تمكُّنَ الشيطانِ من جسد الممسوس، فيرديني طريح الفراش ليومين أو ثلاثة، أقضيها سابحاً في بحر هلوسات الحمى. أما هذه الإجازة القسرية المفتوحة، فقد كانت مداركي فيها متفرغة بتحفز تام للتفكير والتأمل.

يقول توماس أديسون بأن أفضل التفكير يكون في العزلة، وأسوأه ما يكون في الزحام. وهو محق بلا شك، فالأفكار تغدو أكثر جلاءً حين يكون عقل المرء متخففاً من مشاغله الاعتيادية. ربما لهذا ترى الفلاسفة على مر العصور يؤثرون الوحدة على مخالطة الناس، وسكون الليل على صخب النهار، والصمت على الكلام. لكن (وهو استدراك لا بد منه فأرجو أن تسمحوا لي به) أقول لكن شريطة أن يفضي صمتهم الطويل هذا إلى كلام يفيد البشرية، وإلا لغدوا كالزوائد الدودية والجراثيم الاجتماعية، كما وصفهم الماركسي الفرنسي بول نيزان في كتابه "كلاب الحراسة".

لا أعلم إن كانت الوساوس التي راودتني في عزلتي خلال ذينك الأسبوعين ترقى إلى أدنى مراتب الأفكار التي عناها أديسون، فقد كانت أفكاراً مضطربة تشبه هذيان السادة المجانين. كانت كدوران مراوح الطواحين بلا معنى، في قرية أهلكها الوباء. حسناً، أعلم أن نيزان ما كان لينتظر مني الخروج من عزلتي التافهة تلك بكنوز فلسفية تثري الحضارة البشرية وترسي دعائم الانتصار لقضايا البروليتاريا. فأنا بكل الأحوال لست فيلسوفاً ولا مفكراً. غير أني، ولسبب لا أعلمه، وجدت نفسي حريصاً كل الحرص على الخروج من عزلتي تلك بأي شيء مفيد، يجنبني تقريع الفيلسوف

الفرنسي، حتى وإن كانت فائدة لا تعود على أحد سواي. فمن يدري، لربما لو خرجت من عزلتي التأملية تلك خالي الوفاض مما يفيد نفسي على الأقل، لرآني نيزان، من تحت شاهدة قبره، زائدةً دودية في خاصرة حياتي. ولمّا كان أسهل ما يمكن الخروج به، في مثل حالتي، هو اتخاذ قرار، قررت السفر إلى حلب للقاء عبيل.

لم يكن قرار السفر إليه، بكل تأكيد، وليد تلك اللحظة الهذيانية. فقد بدأت الفكرة تراودني مذ قرأت رسالته المسروقة أول مرة، وراحت تتعاظم في نفسي مع كل قراءة جديدة لحروفها، التي أظنني قد حفظتها عن ظهر قلب لكثرة ما قرأتها، ولكثرة ما حركت في قلبـي من مشاعر مضطربة، وأفكاراً غريبة، تشبه غرابة كاتبها. غير أني، في كل مرة، كنت أقاوم رغبة التقائه بذرائع شتى، كانتظار اتصاله الهاتفي الذي وعدني به، وما يتطلبه سفري إليه من طلب إجازة، ومصروف إضافي يفوق طاقتي، وغيرها من الذرائع الواهية، التي لم أتوانَ عن إشهارها كالأسنة في وجه رغبتي الجرارة على مدار أكثر من خمسة شهور. أقول ذرائع واهية، على الرغم من صدقها، لعلمي في قرارة نفسي بالسبب الحقيقي وراء تهربـي من ذلك اللقاء.

الفصل الثامن

صباح يوم المقابلة المرتقبة، وقفت في غرفتي أمام المرآة المثبتة على طول درفة الملابس الممتدة إلى السقف. كانت مقلتاي تتأرجحان بالتباس بين انعكاس صورتي العملاقة، وقد تأنقت كما ينبغي لشاب حلبـي يزور الشام لأول مرة، وصورة أمي المنمنمة، التي وقفت ورائي كضمير مرهِق أوليت له ظهري.

"الله مصلّي ع النبـي.. عريس" غمغمت متبرمةً كحماةٍ غير راضية عن عروس ابنها، بينما تقترب مني وتعدل ثنية القميص حول خصري، ثم جثت على ركبتيها بين قدميّ وراحت تشد طرف البنطال إلى أسفل، فسارعت إلى إنهاضها محاولاً تقبيل يدها فسحبتها بشراسةٍ لم تستطع كبحها، وقالت محاولةً ترويض اضطراب مشاعرها: "هالأبو سليم لو كان بهيم كان حفظ طولك على قد ما خيّطلك بنطلونات! لك اشتهيت شي مرة تطلع قياساتو زابطة هالحمار! شوف اشقد طالع معو البنطلون قصير، تقول مشحدنا القماش شحادة هالابن الحرام!" كنت أنا المقصود في كل شتائمها تلك، وإن كانت بندقيتها مصوبةً نحو الخياط المسكين. قلت بهياج بينما أنكتل مبتعداً عنها: "إي خلص مَي[11] مشكلة، أصلاً ما كان إلو داعي هالبنطلون.. كُهنِه[12] بنطلوني البني لسّاعتو[13] جديد وطولو منيح" فصمتت لبرهة ثم صاحت بينما تتبعني إلى الصالة بخطىً كسّارة: "لك تضرب انت وهالبنطلون البني، ما بعرف إيش عاجبك فيه! مو قلك أبو عبدو إنو أهل الحارة عبيشبهوك بعامود الكهربا كل ما لبستو؟".

أبو عبدو هو صديقي الوحيد في الحارة، وأحسبني أيضاً صديقه الوحيد، فعلى الرغم من أن أهل الحي بمثل فقره، أو ربما كان منهم من هم أشد فقراً منه، غير أنهم يرونه جميعاً أقل شأناً منهم بسبب مهنته، فهو أبو عبدو الزبال.

لم أكن قد رأيت أمي يوماً تعامله إلا كما تعامل أي رجل غريب من رجال الحي، أما أنا فلم أختبر أصلاً في يوم الأيام أن أنظر لأي أحد سواي نظرة فوقية، أياً كانت مهنته ومهما كان أصله، فما دام ليس مسخاً مثلي فهو خير مني بلا شك. إذن فقد كنا أنا وأمي نعامل أبو عبدو بكثير من اللطف والاحترام، وما كنت لأتخيل أننا الوحيدان اللذان يعاملانه هكذا، لولا أن أخبرني هو نفسه بهذا بعد أن أصبحنا صديقين، لأكتشف حينها أنه مسخ مثلي، ملعون من الناس، غير أن لعنته لم تنزلها عليه هيئته، بل مهنته! كانت صداقتنا قد بدأت مع بدايات عملي كدهان، وتحديداً في ورشة تجديد صبغ مدرستي، أولى ورشاتي مع المعلم أبو فادي.

"لك أنا مو قايلك لسا بكير عليك مسك الفرشاية يا سيبة الهم؟" قال المعلم أبو فادي بزعيقه الذي يشبه زعيق الإوزة المهتاجة، وقد سحب من يدي الفرشاة التي ضبطني بها متلبساً وأنا ألطخ بالدهان جدار أحد الفصول التي كنت مكلفاً بمعجنتها. كان ذلك الفصل فصلي الذي درست فيه الصف التاسع. كنت أحاول طمس رسم على أحد جدرانه كان قد رسمه زميل في الصف، صورني فيه على هيئة وحش عملاق له وجه أبله سال المخاط من أنفه، وارتدى بنطالاً قصيراً تكشّف عن نصف ساقيه، وانتعل فردتي حذاء كبير على شكل باخرتين صدر من مدخنتيهما دخان أسود. كنت قد نسيت أمر ذلك الرسم تقريباً لكثرة ما تلاه من مواقف أشد تجريحاً على مدار ذلك العام الدراسي تحديداً، الذي كنت فيه بامتياز مادة التندر الأولى في المدرسة بأسرها، إذ كان هو العام الذي اكتمل فيه نموي على هيئة عملاق حقيقي. يقول الناس عادةً "خانتني ذاكرتي" عند نسيان أمر ما، أما أنا فإن ذاكرتي قد خانتني حقاً عندما ذكرتني بتلك الحادثة فور دخولي غرفة الفصل حاملاً عدة المعجون، إذ انقضّت عيناي من فورهما على ذلك الرسم، وكأن الدمع الذي أهرقتاه يوم عرض اللوحة على جمهور السيرك الماجن لم يكن سوى حبر سري رسمتا به دائرةً على الجدار حول تلك اللوحة، كما يرسم رجل البحث الجنائي خطاً بالطبشور حول جثة القتيل. ما إن وقعت عيناي على الرسم حتى ضج رأسي بضحكات الطلاب الهستيرية، وقهقهات بعض المدرسين المقززة، ونبرتهم الزائفة المتوارية خلف ابتسامة خبيثة، بينما يتظاهرون بتوبيخ راسم اللوحة.

اقتربت من الرسم بخطىً ثقيلة، بيدٍ ترتعش وعينين دامعتين. حاولت أن أفعل ما لم أقوَ على فعله طوال ذلك العام الدراسي، وهو أن أتأمل الرسم من جديد، مثلما فعلت يوم العرض بعد انتهاء الدوام، إذ انتظرت خروج آخر الطلاب، لأقف أمام الرسم وأتأمله بأناة ناقد تشكيلي محاولاً أن أفهم ما الذي جعله مضحكاً بأعينهم إلى ذلك الحد، غير أني حينها لم أفلح في العثور على أي شيء يستدعي

كل ذلك الضحك، سوى أنه رسم يدل عليّ. ما المضحك في رسم كائن مضحك، ما دمت تراه بشحمه ولحمه كل يوم؟ أرهقني هذا السؤال كثيراً وهو يدق رأسي كمطرقة عنيدة تنقب عن إجابة مفقودة، فتوصلت إلى قناعة بأن ثمة شيئاً في ذلك الرسم لم يسعفني الوقت الذي تسنى لي ذلك اليوم على اكتشافه قبل أن أسمع صوت الموجّه، الذي كان يطوف على الفصول، يأمرني بالانصراف من الفصل ومغادرة المدرسة. حاولت في اليوم التالي أن أعاود تأمل الرسم من جديد، لكن شيئاً مبهماً بداخلي كانت قوته أشد من وقع السؤال قد منعني. حاولت في اليوم الذي تلاه فلم أستطع أيضاً، حاولت بعد أسبوع، بعد شهر، فكنت في كل مرة أصطدم بمقاومة أشد تجعلني أرتعش لمجرد التفكير بالاقتراب من الرسم، إلى أن رفعت راية الاستسلام أخيراً، ليظل ذلك السؤال المضني معلقاً فوق رأسي كبندول ساعة ثقيل يتأرجح في الفراغ اللزج بغير إجابة، قبل أن يتكفل الزمان، بما يحمله من مواقف وأسئلة جديدة، بكبحه رويداً رويداً حتى توقف إلى ما ظننته الأبد، لأتفاجأ به بعد مضي قرابة العامين، يعود إلى التأرجح من جديد فوق رأسي وأنا بملابس الدهان، فخطوت نحو الرسم مدفوعاً بدقاته المدمدمة، غير أن ذلك الشيء الخفي بداخلي كان قد غدا عملاقاً هائلاً يفوقني حجماً، دفعني إلى الوراء كما يُدفع طفل بلا حول ولا قوة، فجريت إلى الفصل الذي اتخذناه مخزناً للأدوات والأصباغ، وعدت بفرشاةٍ وسطل دهان، وبدأت بتلطيخ الرسم بيدٍ متشنجة مصارعاً دمعي، إلى أن سمعت زعيق المعلم أبو فادي، الذي استل الفرشاة من يدي بغضب، وأمرني بمغادرة الورشة.

تعثرت على مدخل الحارة بعصا مكنسة أبو عبدو، وكدت أن أهوي بكامل جثتي فوقه، فرأيت هلع الموت في عينيه الصغيرتين، قبل أن أسارع إلى استعادة توازني، ومنع نفسي من الوقوع.

ظل مبخوعاً لبرهة طويلة يتطلع بعينين ذاهلتين إلى ذلك البرج الهائل الذي كاد أن ينهار فوقه ويسحقه فوق عربته المصنوعة من الصفيح والأخشاب. غمغمت باعتذار خجول وهممت بمواصلة المسير فقال دون مقدمات: "ليش مهموم هالقد لك ابني؟" فانغرست قدماي في الإسفلت. لا أذكر أني سمعت أحداً غير أمي يناديني بـ ابني، ناهيك عن أن سؤاله كان عن همومي.

أن تكون مسكوناً بالهموم على الدوام من غير أن يحفل أحدٌ بها، ثم تسمع شخصاً ما يسألك عما يهمك، فإن صدرك المنهك سوف ينهار بلا تردد باستسلام نهائي بين ذراعيه.

«تشـرب تشاي؟» قال مبتسماً ابتسامته التي تشبه الألم، وسارع إلى إخراج ترمس شاي صغير من صندوق خشبي مثبت في مؤخرة عربته. كانت كؤوسه شديدة النظافة، بعكس ما يمكن أن يخطر ببال من يقدم له الزبال كأساً من الشاي. غير أن ذلك الأمر لم يكن ليشغلني حقاً، بعد أن كنت قد أمضيت أسبوعاً في ورشة أبو فادي، حيث كنت أشرب الشاي بكؤوس ملطخة بالدهان وغبار الحفّ، ولعاب من سبقني من الشغيلة بالشـرب. إن انتباهي لنظافة كؤوس أبو عبدو كان سببه الحقيقي هو تناقضها مع رائحة القمامة النفاذة التي كانت تفوح من عربته، ما جعلني أفكر ما إذا كان عليّ أنا أيضاً أن أُخرج للناس كؤوسي النظيفة، كي ينسوا رائحة عربتي.

ركن أبو عبدو عربته جانباً ومشـى بي مبتعداً عنها إلى أن غابت رائحتها تماماً، وجلس مُسنداً ظهره النحيل إلى حائط أحد البيوت على قارعة الطريق، وجلست قبالته، فقال ممازحاً وقد بدوت أعلى منه بكثير رغم جلوسي: "عود لك خاي![14]" لأجد نفسي أضحك لأول مرة على دعابة تغمز من هيئتي، بينما اكتفى هو بضحكة خفيفة كشفت عن نافذة سوداء في صف أسنانه العلوي، وانكب بعدها على صب الشاي الذي لم يسبق لي أن ذقت شاياً بمثل لذته. لم أحدثه بطبيعة الحال عن أي من همومي في جلسة التعارف تلك، كما أنه لم يحاول بدوره التطرق إليها، وكأنه يدرك جيداً أني لم أكن أحتاج حينها إلى أكثر من سماع سؤاله ذاك، الذي جعلني أجلس لأول مرة، مذ غدوت ذلك المسخ، على قارعة الطريق.

"إي بس أنا رايح هلأ لعند ناس شايفين بطولي شي أهم بكتير من عواميد الكهربا" أجبت أمي بشيء من الزهو، وجلست على كنبتي بشموخ الملوك، بانتظار وصول الاستاذ عبد الهادي، الذي سيصطحبني بسيارته إلى مكتب الإنتاج في الشام، لمقابلة مخرج العمل، وإجراء ما أسماه Casting.

إلى ملاكي الطينيّ

أحاول الحفرَ عميقاً في صخر تاريخ الخطيئة، مُنقباً عن أول إنسانٍ سخِر بأخيه الإنسان، فأبلغ مقتل هابيل، ولا أجد ما أبحث عنه.

يبدو بأن القتل، يا ملاكي، قد أولي اهتماماً في الضمير البشري أعظم من غيره من الخطايا. وهو جرمٌ شنيع موغلٌ في الرذيلة بلا شك. لكن ماذا عن اغتيال الروح؟ أليس في سخرية أحدهم من غيره تنكيلٌ بروحه وإعمالٌ في الذبح؟ إن الذي نقتل جسده إنما نُريح روحه في حقيقة الأمر. بينما من ندأب على السخرية منه، وإن أبقينا جسده مصوناً من الأذى، فنحن إنما نُقطّع روحه الأسمى بنِصال بذاءتنا إلى مئات الأشلاء..

عبيل

سوريا/حلب 22 كانون الثاني 1986

الفصل التاسع

كان عليَّ أولاً الذهاب إلى طرطوس، لأستدين من أبـي ما يغطي مصاريف الرحلة إلى حلب، إذ كنت قد استنفدت تقريباً آخر ما أملكه من نقود.

علّقت أمي فور أن رأتني على شحوب وجهي، بل ولاحظت أيضاً زيادة نحولي، الأمر الذي لا أظن أحداً سواها كان قادراً على ملاحظته لفرط نحولي من الأساس.. لكنها عين الأم، فكيف إذا كانت هذه الأم قد أمضت سني حياتها بين الخطوط والألوان؟ لطالما تخيلتها ترى الناس من حولها على هيئة لوحات فنية تسير معلقةً بخيوط وهمية في الهواء؛ فهذا الرجل كثير الزهاء، بفراغات موزونة، وهذه المرأة قليلة الحمرة، بسيطة الخطوط، وهذا الفتى تم رسمه تحت ضغط نفسي يظهر جلياً في زواياه الحادة، أما جارتنا العجوز ففيها من السريالية الأولى ما يحيلك كلما تأملتها إلى بيان أندريه بريتون، وهكذا..

إن اشتغال أمي في فن الرسم عموماً، وفي مهنة تدريسه للمراحل الابتدائية على وجه الخصوص، جعل علاقتي بها منذ طفولتي علاقةً من نوع خاص، لا أظنها قائمةً بين الكثير من الأمهات وأبنائهن. أفكر الآن في التعبير الأنسب لوصفها، فأجدني أواجه حقيقة غريبة، وهي أني لم أتفكر يوماً في شكل هذه العلاقة على الرغم مما تحتله في نفسي، وما أسهمت به بشكل كبير في رسم ملامحي الحقيقية.. أجل، ربما هذا هو التعبير المناسب لتلك العلاقة.. إنها علاقة التشكيل! لقد شكلتني هذه المرأة بالمحبة والشغف اللذين يشكل بهما النحات تمثاله الأثير، فلم تزل تضيف تفصيلاً هنا، وتزيل شائبةً هناك، ثم تتراجع خطوتين هادئتين إلى الوراء، لتتأملني بعينٍ حصيفة تنشد الكمال، باحثةً عن أي سوء عليها معالجته.

"وليش نحفان هالقد كمان؟" تساءلت بقلق حاولت مواراته بالمحافظة على بحة صوتها التي سرعان ما تفقدها عادةً عند أي توتر صغير. "شوية ضغط بالشغل" أجبتها مقبلاً يديها بعد أن ضممتهما معاً، مستنشقاً عبق الألوان الزيتية المتغلغلة في مسامهما منذ الأزل، وهو طقس ألجأ إليه كلما شعرت بحاجة ملحّة إلى موتٍ مؤقت.

لم يلاحظ أبـي أي شيء مما أثار التوجس في قلب أمي، إذ استقبلني كعادته بابتسامته الوقور، وكعادته أيضاً، صدح بمهابة شيخ المينا: "أهلا بالغالي أهلا" فارداً لي ذراعيه الصلبتين، كما تفتح الحصون أبوابها لاستقبال فرسانها بعد المعركة.

لا يمكن لأحد أن يرى أبـي ويصدق أنه مدير قسم في مديرية التربية، لولا لباسه الأنيق. فملامحه القاسية، وجسده الصلب المكتنز، وطريقة كلامه بصوته الجهوري الخشن، خشونة ملح البحر، كل هذا يجعلك موقناً دون أدنى شك بأنه ريّس عمال في الميناء. لذا يحلو لي وله على الدوام أن أناديه بالريّس.

جلستُ على مائدة الغداء بجانب الريس، وجلس أخي الصغير بجانبـي (سبب التحاقي بالخدمة العسكرية)، بينما جلست أختاي (سلمى وسلوى) كملاكيّ الخير والشر عن يمين وشمال أمي التي جلست بدورها قبالتي لتأخذ راحتها في تأمل منحوتتها خلال انهماكي بالتهام الصيادية. أظن أول استنتاج قد تبادر من فوره إلى ذهنها، وقد رأت كيف انقضضت على الطعام ككلب طال تجويعه، هو: هالصبـي كاين مفلس بالشام، ومقضيها عالفلافل! لم يكن يلزمها للتحقق من دقة استنتاجها ذاك سوى استراق السمع مساءً لما همست به لأبـي بينما يدخن النرجيلة على عتبة المنزل، حين طلبت منه أن يقرضني بعض المال.

سألتني فجأةً شقيقتي التي تصغرني بثلاثة أعوام (سلمى/ملاك الخير) عن سر اختفاء اسمي من الصحيفة. تظاهرت بعدم سماعها ريثما أؤلف إجابةً آمنة، فأمهلتني بدورها بعض الوقت قبل أن تعيد السؤال، إذ أدركَت على الفور حاجتي لهذه المهلة لصياغة الكذبة المناسبة، فهي شريكتي في الكذب منذ طفولتنا. كنا نعقد اجتماعات سرية مغلقة، أنا وهي، نتشاور في صياغة الذريعة الأنسب لما اقترفناه، أو ننوي اقترافه من مخالفات لم يكن الريس ليمررها هكذا دون عقوبةٍ قاسية. أجبت أخيراً بأني معتكف على تحضير مادة بحثية طويلة، ستُنشر لاحقاً في الجريدة على حلقات. ابتسمت شقيقتي الأصغر بخبث، وهمت أن تلقي تعليقاً أشد خبثاً من ابتسامتها، لولا أن نهرتها بعينيّ.

كدت أن أتراجع غير مرة خلال ذلك اليوم عن قراري في كتمان نبأ الاستقالة، إذ كنت على يقين بحتمية اضطراري إلى الاعتراف عند قدومي في المرة المقبلة لطلب المزيد من المال، لكن في كل مرة أهم بالبوح، كانت تلوح لي في فضاء مخيلتي نظرة اللوم من أبـي على اختيار هذه المهنة دون الطب، وهي نظرة لم يفوت فرصةً منذ تخرجي إلا ورماني بها، وكأنه يعمد إلى تذكيري عند كل زلة قدم، بأنها جزاء من يعصي أحلام والده. لم أكن مستعداً يومها لحمل ما ستلقيه هذه النظرة فوق كاهلي من أثقال، وأنا في أمس الحاجة إلى التخفف؛ ما استطعت، من أي حمل زائد من شأنه أن يعيق سير رحلتي إلى حلب، والتي بدا لي بأنها ستكون رحلة مصيرية في مشواري المهني. كان هذا ما يمليه عليّ عقلي كلما عادوتني رغبة الاعتراف في ذلك المساء الطويل، أما قلبـي، فلم يكن يريني سوى شيء واحد، يضخ الذعر في شراييني كلما تبدّى: دمعة النحات.

اعترفت بالطبع لشريكة الكذب عند أول خلوة سنحت لنا. أما سلوى، فتظاهرت بعدم رغبتها بمعرفة السر الحقيقي، بعد أن تيقنت ألا نية لدي على الإطلاق في إخبارها. قدمت لي سلمى بدورها تقريراً مقتضباً عن حالها في بيت زوجها، وكان المنغص الوحيد فيما بدا هو استمرار عدم قدرتها على الإنجاب. "رح سميه هشام وحياتك" أكدت مبتسمةً ابتسامتها المحببة. "والله مو ناحسكون انتي وجوزك هالمعتر غير هالإسم" أجبت، وسرحت في النحس المحتمل الذي قد يواجهني مع صاحب الاسم الغريب عبيل.

لم تكن المرة الأولى التي أستدين فيها من أبـي مبلغاً من المال، لذا لم يثر طلبـي هذه المرة أية شكوك لديه حول احتمالية فقدي للوظيفة. كل ما كان علي فعله إذن، هو خلق ذريعة مناسبة لحاجتي لهذا المبلغ الذي لا يفي راتبـي الضئيل بتغطيته.

عدت إلى دمشق بعد أن بت ليلةً واحدة في بيت أهلي. حزمت حقيبةً صغيرة، وضعت فيها رسالة العملاق، والكثير من الورق الأبيض، والقليل من الثياب، وانطلقت صباح اليوم التالي إلى حلب.

الفصل العاشر

بخلاف ما تأملت، لم يدخل الأستاذ عبد الهادي الحارة بسيارته، بل أتاني راجلاً، ليحرمني بذلك فرصة التباهي أمام الجيران بركوب سيارة حديثة رفقة صاحبها الذي تبدو عليه سيماء الوجاهة والرقي.

لاحظت تجنبه السير بجانبي طوال الطريق من باب المنزل إلى حيث ركن سيارته خارج الحي، وكأنه يقتاد الغوريلا گرگانتوا إلى السيرك، فلم يرتضِ لنفسه أن يكون جزءاً من عرض مجاني مبكر خارج حدود الخيمة. كان قد مسحني بعينيه من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ حين فتحت له الباب، بنظرة ازدراء مشوبة بسخرية بدت جليةً في شفتيه المتبرمتين. يبدو أن ملابسي التي امتدحتها أمي كثيراً رغم تحفظها على قصر البنطال، لم ترقه، بل وجدها مثيرة للضحك، شأنها في هذا شأن حقيبة الزاد التي حمّلتني إياها أمي رغماً عني. تأملت هندامه بدوري بينما أسير خلفه بخطىً وئيدة تعمدتها كي أساعده على تجنب الحرج الذي كاد الرجل أن يعدو أمامي لتجنبه. كان لباسه أنيقاً حقاً، وقد كان محقاً بلا شك حين رماني بنظرة السخرية تلك وقد رأى لباسي الذي لم يتجاوز مجمل قيمته بكل تأكيد قيمة حذائه. لقد نبهني ذلك التباين بين مستوى لباسينا إلى أمر لم أكن قد انتبهت إليه من قبل، وهو أن كل مشاعر النقص الذي اعتدت اختبارها بسبب هيئتي باتت مرشحة للازدياد لأسباب أخرى غير الهيئة، كالفقر مثلاً كما يحدث الآن، أو المستوى الدراسي كما قد يحدث بعد ساعات حين ألتقي بصناع الفيلم في الشام. تثاقلت إلى أن تسمرت في مكاني. إلى أي هاوية أقود نفسي؟ كيف قررت بهذه البساطة الخروج من قوقعتي الآمنة؟ أهذا هو ما رأته أمي بقلبها الخبير بالأوجاع وأعمتني اللهفة عنه؟ "ليش وقفت؟" صاح الأستاذ عبد الهادي بتذمر برم، ملتفتاً إليّ وراءه وقد توقف عن المشي. "لك يللا يا حبيبي.. رح تلم الناس علينا!" أضاف بنبرة ساخطة متطلعاً إلى

المارة من حولنا. "خير سيبة، في شي؟" سألني أحد شباب الحي وقد أوقف دراجته النارية، حادجاً الأستاذ عبد الهادي بعينين متوعدتين. "لأ سلامتك عبود.. طالعين عِنّا[15] شغل.." أجبته بحرقة مكتومة، واستأنفت المسير خلف الأستاذ، بينما تتأرجح حقيبة زاد أمي تحت يدي، كالتميمة المعلقة إلى سرج دابة.

لم تكن سيارته حديثة كما تخيلتها في أحلام اليقظة بينما كنت أنتظره، بل لم تكن حتى كبيرة بما يكفي ليخطر ببال صاحبها إمكانية ركوبي بها من حلب إلى دمشق. فتحت الباب الأمامي للركوب بجانبه فاقترح علي الركوب في الخلف "قدامنا مشوار طويل كتير، بتصور القعدة ورا رح تكون أريحلك" نظرت عبر النافذة الخلفية للتحقق من صحة نظريته. "بس ورا أديَق[16] من قدام.." قلت بارتباك، فالتفت إليّ حيث كان وجهي لا يزال خلف الزجاج وقد حنيت ظهري إلى أقصى مداه كي أستطيع بلوغ النافذة الخفيضة. "لا، بدك تقعد بالعرض".

بعد عدة محاولات مضنية تمكنت أخيراً من حشر جسدي بين البابين على المقعد الخلفي؛ قدماي مدكوكتان بالباب الأيسر، تكاد ركباتي أن تبعجا حديد السقف الذي حشرت رأسي تحته، بينما التحمت حدبة ظهري بعظام الباب المقابل. "أستاز عبد الهادي، خليني أجرب بعد إزنك أقعد جمبك" غمغمت بعد قرابة نصف ساعة من انطلاق السيارة، أمضيتها مصارعاً خجلي إلى أن انتصرت عليه أخيراً وقد بدأت أشعر بالاختناق في تلك الزنزانة الانفرادية التي زجني فيها. أوقف السيارة على جنب الطريق متأففاً، وأعانني على النزول بكثير من النزق لم يحاول إخفاءه، بل إنه لم يتردد حتى في إعلان ندمه صراحةً على تكفله بتوصيلي، فور أن ركبت بجانبه بعد أن أرجع الكرسي إلى أقصاه. ليصمت بعد ذلك التصريح الوقح طيلة الوقت إلى أن بلغنا استراحةً في منتصف الطريق، فعرض عليّ بفم متبرم دخول الحمام أو شراء شيء آكله إن كنت جائعاً، ريثما ينتهي هو من قضاء حاجاته.

انتشلت حقيبة الزاد من المقعد الخلفي فور أن مشى مبتعداً، وأخرجت منها مطرة الماء فعببت حتى ارتويت. كانت أمي قد أجلستني فور أن استيقظت على مائدة إفطار مشبعة، وملأت لي حقيبة الزاد بالمعجنات كوجبة للغداء، إذ كانت تعلم جيداً بأن خجلي سيمنعني من تناول الطعام مع أحد غريب خلال الرحلة، حتى لو مت من الجوع. لم يخطر ببالها ولا ببالي شخصياً أن يكتفي ذلك

الغريب بإخباري، بجلافة، بأن ثمة مطعماً صغيراً داخل الاستراحة بإمكاني شراء طعام منه وتناوله بمفردي.

هل يعامل هذا الرجل جميع من هم أدنى منه بهذه الفظاظة المنفرة؟ أم أن هيئتي المنفرة هي التي أخرجت منه هذا الخنزير البغيض؟ لقد بدأت أكرهه على كل حال، بل وبدأت أكره حتى فكرة دخولي في عمل جاء عن طريقه، إلى درجة بلغت معها حد التفكير بالهروب منه في الاستراحة والعودة إلى حلب. ستفرح أمي كثيراً لمثل هذا الفعل، بل إنها ستبكي فرحاً إن أعلنت لها تراجعي عن خوض تلك التجربة برمّتها. أما الأستاذ عبد الهادي وجماعة الـ بـي بـي سي فسيغضبهم تصرفي كثيراً دون أدنى شك، لكنهم سرعان ما سينسون أمري ويعثرون على بديل لي. فالدائرة الصحية التي دلتهم عليّ من خلال كشوفها الإحصائية كما أخبرنا، دلتهم على غيري بكل تأكيد. فليس من المعقول أن أكون العملاق الوحيد على امتداد هذا الوطن. حتى وإن لم يكن هناك أحد سواي، فليس بوسع مخلوق أن يجبرني على فعل شيء.. طالما كان هذا المخلوق على الأقل لا يمثل سلطةً أمنية. لكن ما الذي أخشاه بعد لأهرب من مواجهته؟ المزيد من الفظاظة والاحتقار؟ ألم أعتد أصلاً كل هذا؟ فلماذا أقابله الآن بهذه الحساسية المفرطة وكأنه شيء جديد؟ ألأن الاحتقار الآن سببه طبقي بينما لم أعتد غير الاحتقار الناجم عن هيئتي؟ أليس من الحري بـي تقبُّل الطبقي أكثر؟ فهو على الأقل احتقار أشترك فيه مع شريحة واسعة من المجتمع، وهو اشتراك - رغم بشاعة موضعه - يكفل لي الشعور ولو لمرة واحدة بمشروعية انتمائي لهذا المجتمع. ثم ماذا لو كان هذا الذي أفكر بالهروب منه هو في حقيقة الأمر بوابة الهروب من حياتي البائسة؟ ألا يستحق هذا بعض التضحية، بل كل التضحية إن لزم الأمر؟ ألا ينتحر الناس لأجل هذه الغاية؟ أليس الانتحار بوابة هروب في نهاية الأمر؟ بلى، لكنها بوابة الضعفاء لا بوابتي. لذا سأطرق كل بابٍ ممكنٍ غير باب الموت. لن أترك الدنيا لكم طوعاً كي تستريحوا من كآبة منظري.. ولن أبرح الأبواب..

عاد عبد الهادي من استراحته ليجدني متحفزاً في مقعدي بشكيمة محارب، وقد أخرجت ذراعي من النافذة ممسكاً بحافة السقف، كالقابض على رمح.

إلى ملاكي الطينيّ

كنت عائداً ذات يوم من صبغ محل جزارةٍ قديم، فتبعني قطٌّ ضعيف، وراح يتمسّح بقدميّ تمسُّح المتملقين للملوك. وهو أمرٌ، فضلاً عن إرباكه النفسي، كاد أن يتسبب في تعثري غيرَ مرة، كما كدت أن أدهسه مرتين. ما اضطرني أخيراً إلى زجره بقسوةٍ، فهرول مبتعداً بعد أن أطلق صرخة مواءٍ حانقة، لم تتردد أذناي في استقبالها كشتيمةٍ من العيار الثقيل.

لم يكن، بالطبع، لديّ أدنى شك بأن ذلك القط الهزيل، إنما كان منجذباً إلى رائحة اللحم النيء العالقة في حذائي من بلاط محل الجزارة، لا إليّ. غير أن هذا لم يحُل دون إحساسي بوخزةٍ في قلبي فور أن خلوت بنفسي، إذ لم أكن قد ازدريت مخلوقاً من قبل.

كانت الوخزة، يا ملاكي، حارقةً شديدةَ الإيلام، برغم أنه لم يكن سوى قطٍّ شريد. فعجبت كيف يقوى الناس على احتمالها عند احتقار إنسان..

عبيل

سوريا/حلب 31 آذار 1986

الفصل الحادي عشر

نزلت في حلب في بنسيون زهيد الأجر، اخترته في منطقة قريبة من عنوان عبيل. لم تكن تلك زيارتي الأولى لحلب، فقد زرتها قبلاً في أكثر من مناسبة بتكليف من الجريدة، لكنها كانت زيارات قصيرة لم أبت في أطولها أكثر من ليلة واحدة. أما الآن، فالإقامة مفتوحة، وهي مرهونة بسلاسة سير جلساتي مع عبيل. أقول جلسات لأن الأمر لم يعد مجرد حوار صحفي سريع من التي تُجرى في جلسة واحدة. لقد كان مثل ذلك الحوار هو أقصى ما أصبو إليه عندما التقيته في القطار، بل وحتى بعد أن وعدني في المحطة بالاتصال بي لترتيب لقاء بيننا. إذ كان كل همي حينئذ نشر حوار يُحدث صدىً مدوياً بين قراء الجريدة، ويرفع من شأني لدى إدارتها. أما وقد تركت الجريدة وقراءها، ولعنت إدارتها، وتحررت مما كنت قد ألمحت إليه سابقاً كسبب حقيقي وراء تهربي من لقاء عبيل، وهو خوفي من أن يدفعني سماع حكايته إلى أكثر من مجرد كتابة حوار صحفي، وهو شيء كنت أرى فيه، بشكل أو بآخر، خيانةً لصاحبة الجلالة، فقد صار بوسعي الآن أن أمضي إليه بلا أية نوايا صحفية. أجل، سألتقيه بغرض الكتابة، وأعني هنا الكتابة بشكلها الأدبي.. رواية ربما، لست متأكداً، وإن كان هذا ما أتمناه حقاً. لكن لنترك الجلسات المزمع عقدها مع بطلنا هي التي تقرر ما إذا كانت خلاصتها ستصلح أن تكون مادةً خصبة لكتابة رواية تستحق النشر، أو حتى مخطوط رواية غير صالح للتطوير، يكون على الأقل خطوةً أولى على طريق الكتابة الأدبية، وربما على طريق اعتزال العمل الصحفي أيضاً. سيكون هذا الاعتزال إن وقع، بغير شك، قراراً متهوراً، بل وحتى مجنوناً، إذا ما نظرنا إليه من منظور الثقافة الموروثة حول الحرص على لقمة العيش مضمونة القطاف، والإخلاص المهيض لما أفناه المرء من سني عمره في دراسة أو تعلم مهنة ما. لكن من قال بأن الجنون هو بالضرورة نقيض الحكمة؟ وبأن الصواب لا يكون سوى بالذي يراه

العقل صواباً؟ ماذا عن الأحلام إذن؟ أليس من حقها أن تجد لنفسها فسحةً في العقل بين ركام الواقع المفروض؟

الكاتب هشام الأسعد.. ممم.. يبدو ذا وقعٍ أدبـي لا يخلو من الكياسة! حدثت نفسي بينما أستريح في غرفة البنسيون، متلفتاً حولي، متأملاً أثاث الغرفة (شأن كتّاب الرواية الذين يعنون بأدق التفاصيل في تأملاتهم اليومية). نظرت إلى ساعتي وقد بدأ النعاس يهدهدني، كانت تشير إلى الثالثة عصراً. هذا وقت مناسب لاصطياده في منزله.. فكرت متثائباً، ونزلت إلى مكتب الاستقبال واتصلت بالمجند. رد على الهاتف رجلٌ لم يذكر صلة قرابته به، لكن بدا من صوته أنه بعمر والده. أخبرني بأن الشخص المنشود قد تزوج وانتقل إلى منزل جديد، وأعطاني رقم هاتفه هناك. أدرت القرص من جديد، فردّت عليّ الزوجة بنزق غريب ما إن نطقتُ كلمة "ألو" وكأن صوتي قد خرج لها من مكان غير متوقع (كالمغسلة مثلاً). ثم بنزق أشد، أخبرتني بأن زوجها خارج المنزل، وعندما عرّفتها بنفسي، وذكرت أني كنت زميلاً له أيام الخدمة العسكرية لم تحفل بكل هذا الهراء، إذ اكتفت بالهمهمة من غير عبارة ترحيب واحدة من التي نجامل بها عادةً بعضنا بعضاً في مثل هذه المواقف، الأمر الذي أصابني ببعض الخيبة.. أو ربما بالكثير. لكن ما شأني أنا بزوجته؟ حدثت نفسي مواسياً، وطلبت منها بكثير من الارتباك - قبل أن تعجِّل بإقفال السماعة في وجهي - أن تتفضل بإخباري بموعد رجوعه المتوقع، فأجابت بحزم بأنها لا تعلم، وانتهت المكالمة.

ما حاجتي بلقائه أصلاً؟ تساءلت بينما أعيد السماعة إلى موظف الاستقبال، وجلست على إحدى كنبات البهو المتسخة (ربما لم تكن متسخة، فلم أعر الأمر حينها أدنى انتباه، بكل أمانة، وأنا بتلك الحالة النفسية. لكن أظنني بحاجة هنا إلى وصفها، لتقمص دور الكاتب الفطن المهتم بأدق التفاصيل، كما اتفقنا أنا وأنتم مسبقاً). جلست إذن على الكنبة المتهمة بالاتساخ، وأطرقت محاولاً تذكر السبب الحقيقي وراء رغبتي في التقاء ذلك الزميل القديم. إن كان الأمر مجرد اشتياق لعين، فلماذا لم يحركني الشوق إليه في زياراتي السابقة إلى حلب؟ ولماذا قررت في هذه الزيارة تحديداً لقاءه؟ لا، هذا كذب. فأنا لا أشعر تجاهه بأي نوع من الاشتياق، ربما ببعض الامتنان أجل، لكن ليس الاشتياق. فهو في نهاية المطاف لم يكن سوى زميل خدمة عسكرية، كان فيها من أداء أدوار تمثيلية فيما بيننا أكثر بكثير مما يكون من مشاعر صادقة بين البشر في حياتهم الاجتماعية. ناهيك عن أن لقاءه بلا ريب سيعيد إليّ ذكريات الخدمة البغيضة، التي كم أسعدني كنسها عن آخرها من بلاط ذاكرتي. ثم إنني (وهذا برأيي أوجهُ دليل نقض لفرضية الشوق الهشة تلك) لم أشتق يوماً لأي أحد!

فلم يكن للشوق إذن أية صلة بقرار لقائه.. أتكون غايتي هي سؤاله مرافقتي إلى منزل عبيل، لكن ما الفائدة التي أرجوها من هذا؟ بل على العكس، لا شك بأن عبيل سيغضبه أيما غضب أن يجدني قد اصطحبت معي شخصاً غريباً إلى منزله.. يكفيه غضب اكتشاف أمر سرقتي لإحدى رسائله حين يسألني متعجباً عن كيفية حصولي على العنوان..

أجل! هذا هو إذن سر رغبتي بلقاء المجند الحلبـي، إنه حلبـي مثله، ربما كنت أنوي إخبار عبيل بأن صديقي الحلبـي هو من ساعدني في التوصل إلى عنوان بيته، بل وربما الادعاء أيضاً بأنه عنصر في أمن الدولة (هذا هو التفسير المنطقي الوحيد في هذه البلاد، لتمكنك من الوصول إلى بيت أحد لا تعرف عنه أي شيء، ولا حتى اسمه الثنائي) لا، هذه حماقة! إن اعترافي له بأمر السرقة، لهو بلا شك أقل وطأة عليه بألف مرة من وقوفي المفاجئ على باب منزله رفقة عنصر من أمن الدولة.. ناهيك عن إمكانية اعتزالي للصحافة لاحقاً، الأمر الذي يستوجب عليّ منذ الآن تمرين نفسي على التخلي عن الكذب، فالكذب أداةٌ لا غنى عنها في العمل الصحفي للحصول على حوار صعب المنال، أو دخول محفل ما بلا دعوة رسمية. أما الآن، وقد سلكت طريق الأدب، فعلي التحلي ببعض الأدب، والكف عن الكذب (إن هذا الهراء لهو الكذب بعينه). على أية حال، فإن الذي أراحني حقاً من عذابات حيرتي، هو حقيقة أن عبيل، بلا شك، قد اكتشف مسبقاً أمر سرقتي لتلك الرسالة، عند أول مراجعة قام بها لحزمة رسائله بعد ذلك اليوم البعيد. فكل ما عليّ الآن فعله إذن، بدلاً من تشويش ذهني حول جدوى التقاء المجند، أن أجهز اعتذاراً مناسباً على سرقتي، يلقى قبولاً لدى الوحش، اعتذاراً يضمن لي مغفرته، لطي صفحة ما مضى تمهيداً لإقناعه بالموافقة على عقد تلك الجلسات، وهي المهمة الأصعب في كل هذا، إذ ما زلت أذكر جيداً كم كان عنيداً إزاء إجراء مجرد حوار.

خرجت من البنسيون للبحث عن مطعم قريب أتناول فيه وجبة الغداء، لأشرب بعدها فنجان قهوة، يعيد إلى ذهني اتقاده، فيصيغ لي اعتذراً مناسباً سيتوقف عليه (كما يبدو لي) مصير نجاح مشروع الكتابة برمته.

شربت فنجانين من القهوة بعد وجبة الكباب الحلبـي، ودخنت ربما خمس سجائر، بينما أعصر ذهني وأحفزه دون أدنى جدوى، إلى أن استسلمت أخيراً، وقررت اللجوء عند لقائه إلى فن الارتجال، فهو فن أظنني أجيده بحسب تجاربـي السابقة، وإن كان قد عاد عليّ غير مرة بنتائج كارثية. لكن لنأمل ألا يضاف ارتجال يوم غد إلى القائمة المشؤومة تلك، في سجل ارتجالاتي.

كان الوقت لا يزال مبكراً على موعد النوم، وقد بدأ الضجر يتسلل إلى نفسي في ذلك المساء الشتوي الطويل بعد أن عدت إلى البنسيون. فقررت أخيراً أن أعاود الاتصال بالمجند الحلبـي للقائه، لكن بنيّةٍ شديدة الوضوح هذه المرة: قتل السأم.

لم تكن زوجته هي من رفعت السماعة هذه المرة (شكراً لله على رأفته بالضعاف).

"مرحبا".

"أهلين".

"عفواً، فيني حاكي خلدون؟".

"معك.. تفضل..".

"كيفك يا غالي؟ معك هشام الأسعد.. تذكرتني؟".

"لا والله!".

"لك الملازم هشام.. خدمنا سوا بـ...".

"إي أهلا وسهلا..".

"كيفك، كيف أمورك؟".

"ماشي الحال..".

"أكيد تذكرتني؟ ما بعرف.. بس حاسس إنك مو..".

"لا مبلا متذكرك".

"طيب.. ممم.. أنا حالياً بحلب.. لسا اليوم واصل.. هيك يعني زيارة شغل فيك تقول.. وخطرلي حاكيك إنو بلكي بنلتقي اليوم إزا بيناسبك".

صمت طويلاً حتى ظننت أن الاتصال قد انقطع، ثم أجاب بنفس الفتور الذي حدثني به طوال المكالمة، بأن أعطاني اسم المقهى وعنوانه وحدد من تلقاء نفسه ساعة اللقاء، ملغياً أي دور لي في

كل هذا، حتى شعرت بأن عليّ أن أجيبه على الفور: "حاضر سيدي" العبارة التي كنت قد سمعتها منه مراراً فيما مضى من غابر الأيام، عندما كانت الأدوار مختلفة عما تبدو عليه الآن.

ها أنا الآن في المقهى أجلس قبالته، بعد أن حملني على انتظاره لأكثر من نصف ساعة عن الموعد الذي اقترحه بنفسه. لم يستطع أي منا التعرف على الآخر بادئ الأمر، إذ لم أره قبلاً بمثل هذه البدلة الأنيقة التي يرتديها الآن، كما أن وجهه صار أكثر رجولةً ونضرة عما كان عليه أيام الخدمة. أما أنا، فأظنه لم يستطع التعرف عليّ بسبب اللحية التي لم يكن إطلاقها مسموحاً في الحياة العسكرية، أو ربما بسبب نضارة الوجه أيضاً، لكن التي فقدتها.

تأملت ملامحه الجديدة بشيء من الإعجاب، إذ لا أذكر أن كان بهذه الوسامة أيام الخدمة. صار يشبه إلى حد بعيد أبطال أفلام الكاوبوي الأمريكية، ربما كلينت إيستوود على وجه التحديد، بذقنه العريضة وعينيه الحادتين وأنفه الدقيق، وشعره الكستنائي الطويل ذي الخُصل اللامعة.

كان أول قرار اتخذته بعد أن أنهيت مكالمتي معه، هو عدم الذهاب للقائه. كنت سأتركه يذهب وحده، ليلتقي بنفسه هناك، فيتعانقا ويجلسا متسامرين حتى صياح الديك، ما دام مزهواً بها كل هذا القدر. لكنني بعد أن صعدت إلى الغرفة، واستلقيت على السرير، واستعدت كامل سكينتي وهدوء أعصابـي، بدأت أختلق له الأعذار: ربما لا شأن للغطرسة بكل هذا، فهو في النهاية لم يرفض لقائي، وإن كانت موافقته قد جاءت على مضض شديد كما بدا، لكن من يدري، فربما جاء اتصالي في وقت غير مناسب من يومه، أو ربما من أيام حياته بأسرها، فحياة المرء في هذه البلاد أشد لعنةً من بكرة مسدس تدور في لعبة الروليت الروسي. إذن فربما كان يمر هذه الأيام بظروف بائسة، يستحيل معها (مهما كان المرء مهذباً ومتواضعاً) التصرف بلباقة من خلت صدورهم من الهموم.. بل وربما كانت زوجته (المسكينة) هي الأخرى تشاركه هذه الظروف، فوجدَت في العثور على أذن رجل غريب، وقد انفتحت لها فجأة مثل بالوعة في سماعة الهاتف، فرصةً للبصق لا أكثر. سأحسن الظن به إذن. حدثت نفسي. وسأذهب للقائه في الموعد المحدد، ولأنظر بعدها إن كنت قد ظلمته حقاً، أم ظلمت نفسي بهذا اللقاء.

"شو أخبارك؟" بادرت بسؤاله، بعد برهةٍ من الصمت تلت عناقاً فاتراً من كلينا.

"تمام" أجاب متلفتاً حوله، ثم أشار بحركة رشيقة من أطراف أصابعه للنادل الذي كان قد أطل عليّ غير مرة بينما أنتظره، وفي كل مرةٍ كنت أخبره بأني سأؤجل الطلب ريثما يصل صديقي، وفي كل مرة كان يرمقني بتلك النظرة التي نرمي بها عادةً متسولاً مر بنا في اليوم نفسه مرتين.

"إيش رايك بنفَس أرگيلة؟" سألني وقد انحنى النادل بيننا. كانت نبرته في السؤال لطيفة، حتى ظننته لوهلةٍ يحدث نفسه. "هالمكان أرگيلتو ظريفة كتير" قال مشجعاً بابتسامة مرحة ناظراً في عينيّ بمودّة. "لا والله يسلمو يا غالي، ما بأرگل للأسف" أجبت بارتباك فاجأني، فسارعت إلى محاولة التخلص منه بتوجيه الحديث إلى النادل: "أنا باخود فنجان دبل عالريحة" وطلب هو بدوره شاياً بالنعناع مع أرگيلة تمباك.

إنهم في مقاهي حلب يستمعون مثلنا إلى أغاني أم كلثوم، فلا تتوقعوا دائماً (كما كنت أظن) أن تُشنف آذانكم هناك بالقدود الحلبية أينما وليتموها. هذا هو اليقين الوحيد الذي خرجت به من كل تلك الجلسة التي استمرت لقرابة الساعتين، إذ لم أفلح، رغم طول شرحه، بالتوصل إلى فهم أكيد حول طبيعة عمله، ولا استطعت، رغم محاولاتي في استدراجه، أن أستنتج سبباً واضحاً لسر تحوله المفاجئ معي، من فظاظة مطلقة على الهاتف، إلى دماثة مربكة في المقهى دون مقدمات. بل لم أستطع حتى التعرف على هوية ذلك الرجل الذي استقبل اتصالي بمنزل أهله، رغم سؤالي المباشر حوله، إذ وجدته يقفز إلى شرح أسباب حبه لفصل الشتاء، بسلاسة جعلتني أستقبل كلامه ذاك على أنه الإجابة المنطقية الوحيدة لسؤالي.

ربما لو أردت وضع عنوان أدبي لتلك الجلسة، لاخترت دونما تردد العنوان التالي: سهرة في المقهى الحلبي مع الثعلب الوسيم.

أصر صديقي الثعلب على أن يوصلني إلى البنسيون بسيارته. لا شك بأن مؤخرتي قد ظنت أنها تعرضت للاختطاف، وقد وجدت نفسها فجأةً على مقعد سيارة بيجو 505، وهي من فصيلة المقاعد التي لم تستأنسها بعد، في دولة البعث، سوى مؤخرات المسؤولين وعائلاتهم.

كانت تلك ربما رابع مرة خلال حياتي، أركب فيها سيارة ليست سيارة أجرة، فكل من أعرفهم منتوفون مثلي، أو أشد نتفاً، والمرات الثلاث التي سبقت ركوبي لسيارة الثعلب كانت كلها

بمعية زميل ما في الجريدة تبرع صديقه بتوصيلنا بعد سهرةٍ في مكان ما، ولم تكن أي منها سيارة بيجو بكل تأكيد.

هذا تحول طبقي خطير في مجرى علاقاتي.. حدثت نفسي بينما تعبر عيناي المشاهد الليلية في شوارع حلب، والتي بدت هامشيةً من خلف زجاج المركبة الدافئة الملطخ بغبش برد الليل.

"تفضل نكمل السهرة عندي" قلتها بعفوية أمام باب البنسيون، كما لو كان منزلي، فابتسم ابتسامة مبهمة، وناولني بطاقة عليها هاتف مكتبه، طالباً مني الاتصال به متى شئت رؤيته من جديد.

لم أتطرق خلال جلستنا إلى تفاصيل سبب زيارتي لحلب، إذ لم أجده مهتماً لهذا الأمر، فاكتفيت بذكر نيتي حول إجراء حوارات مطولة مع شخص بعينه، فكان سؤاله الوحيد هو عن طبيعة عمل ذلك الشخص الذي يستحق إجراء حوارات معه هذا السفر الطويل وتحمُّل تكاليف الإقامة في مدينته. "ما بعرف" أجبته متفاجئاً بهذه الحقيقة التي لم أنتبه إليها من قبل، وهممت مستبقاً اندهاشه أن أوضح ما يميز هذا الشخص فعلاً غير المنصب أو طبيعة العمل، لكنني كبحت لساني، كما يكبح المرء لسانه فجأةً عن ذكر مفاتن حبيبته أمام غريب. في أية حال، لم ألمح في عينيه أدنى علامات الاندهاش إزاء جهلي لطبيعة عمل عبيل، ربما كان ليندهش أو يبدي اهتماماً أكبر لو أجبته مثلاً بأن ذلك الرجل من تجار حلب الأثرياء ممن ذاع صيتهم في دمشق بعد أحداث حماة، أو ربما كان سيعجبه أن يكون عضواً في القيادة القطرية، أو من يدري فربما كان ما سيجعل عينيه تلتمعان حقاً هو أن تكون إجابتي: "بدك الصراحة؟ هالشخص هو صباح فخري" كل هذه تخمينات لا يرقى أي منها إلى أدنى مراتب اليقين، فقد كان شديد الغموض حقاً إزاء كل أمر خلال تلك الجلسة، باستثناء أسباب حبه لفصل الشتاء. "أظن نزول آدم إلى الأرض كان في فصل الشتاء، وإلا ما الذي كان بوسعه زرع السكينة في نفس حواء، بعد طردهما من الجنة، غير رائحة المطر؟" قال عبارته الشعرية تلك في ختام شرحه المستفيض، وأعقبها من فوره بنداء جهوري دوى كالرعد في سماء المقهى، في طلب نارة للأرگيلة.

أما ذكرياتنا المشتركة في الجيش، وإن كانت هي مبتدأ تعارفنا ومنتهاه، فقد كان ثمة تواطؤ غير معلن فيما بيننا، على عدم التطرق إلى ذكر أي منها، ولا حتى مقولة البدء: لستَ مثلهم.

الفصل الثاني عشر

"دمشق ترحب بكم".. أحقاً؟ من الذي قرر بالنيابة عن مدينة بعراقة دمشق وقيمتها التاريخية أن ترحب بكل من هب ودب إليها؟ أم أنكم عنيتم بأن أهلها هم من يرحبون بزوار مدينتهم أياً كان زائرها؟ إن كان هذا هو فعلاً ما تعنيه هذه اللافتة، وإن سلمنا جدلاً بأن أهل دمشق قد أجمعوا على هذا الترحاب وفوضوكم بنصب هذه اللافتة على مداخلها، فهل يشمل ترحابهم الودود هذا مَن هم مثلي؟ أم أنهم سيتراجعون عنه دونما إبطاء فور أن يروني بوجهي القبيح سائراً بينهم بظهري الأحدب وقامتي الوحشية؟

وددت لو أشرك الأستاذ عبد الهادي بتساؤلاتي المشروعة تلك، بينما تعبر سيارته مدخل الشام الشمالي عصر ذلك اليوم الذي سيكون أول يوم جديد في حياتي. لكنني آثرت الاستمرار بالصمت، إذ لم يبد لي أن هراءً مثل هذا كان ليطيب له سماعه مني، بعد أن أمضى بجانبي كل هذا الوقت صامتاً صمت من يصطحب بهيمةً صماء. ناهيك عن كوني لم أعتد أصلاً أن أشارك أحداً بتساؤلاتي التي لا تنتهي، والتي لم يصدف أن كان أي منها، في يوم من الأيام، تساؤلاً يسر غيري سماعه.

أتاح لي تحرك السيارة البطيء في شوارع دمشق فرصة تأمل المدينة، إذ لم أعد أرى المشاهد على جنب الطريق على هيئة لطخات من الدهان. فجاءت الصور في قلب دمشق شديدة الصفاء كاملة الدهشة.

لا شك بأن للدروع التي تحتمي بها بعض المخلوقات الضعيفة، كالسلاحف والحلازين، فائدةً لا تقل أهمية عن وظيفة الحماية من الأعداء. إنها فائدة التأمل دون لفت الانتباه. هممم.. إنه شيء

يشبه أن يتلصص عليك أحدهم من داخل التلفاز بعد أن تطفئه. فحين تجر السلحفاة رأسها بهلع إلى داخل الدرع، لا أظنها تعمد إلى إغماض عينيها تماهياً مع عتمة القوقعة، بغية الاستغراق بعد ذلك في نوم عميق تاركة للزمان مهمة زوال الخطر. بل أحسب أنها ما إن تبتلع العتمة رأسها الضئيل، حتى تسارع إلى فتح حدقتيها على وسعيهما، فإذا بعينيها الناعستين على الدوام قد غدتا عينيّ صقر يقظتين أيما يقظة، لتشرع بعد ذلك في ممارسة هوايتها الأثيرة، في تأمل الدنيا عبر نافذتها الحصينة، دون أن يدري بها أحد.

أنا أيضاً مخلوق ضعيف، تماماً كتلك السلحفاة. أستطيع تحسس ضعفي هذا مع كل شهيق عسير، وكل دمعة مطواعة، وكل تردد وتلعثم، وكل إهانة أبتلعها، وكل لحظة خوف، وكل كابوس ثقيل، وكل اشتهاءة موت. ولفرط هذا الضعف مُنحت جسداً غير آدمي ليكون على ما يبدو بمثابة الدرع. إن المفارقة المضحكة المبكية في تكوين الكائنات الضعيفة ذوات الدروع، هي أن دروعها التي خُلقت بها لتحميها، هي نفسها التي تلفت أنظار الناس إليها. فالقنفذ لولا شوكه لما التفت الناس إليه أكثر من التفاتهم إلى جرذ عابر، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى قواقع البحر والسلاحف والحلازين.. ولي أنا! أجل، أنا؛ فلولا هذا الجسد الهائل لما التفت إلي أحد، وبالتالي لما احتجت إليه أصلاً! إن الأمر يشبه أن تحمل رمحاً لتدافع عن نفسك في وجه من لا يُعادي سوى حاملي الرماح.

أخذت راحتي إذن في تأمل المشاهد من حولي من داخل السيارة كما تفعل أختي السلحفاة. فأنا الآن بنظر من يلقي عليّ نظرة عابرة وأنا منكمش على نفسي داخل السيارة، مجرد رجل دميم الوجه لا أكثر، ربما يقابل الناس كل يوم من هم أشد قبحاً منه.

لم أتخيل أن تكون شوارع دمشق مكتظة بكل هذه السيارات، بل إنها بدت أليفة لأهل المدينة ألفةً جعلت المارة يعبرون الطريق من أمامها بطمأنينة العابر من أمام بغل كسول يجر عربة خضار. هل كان الناس ليألفونني هنا ألفة تلك السيارات؟ هل كانت السكنى في مدينة مزدحمة مثل دمشق ستكفل لي أن أضيع في زحامها، ضياع نداءات الباعة الرتيب على الأرصفة، وزعيق أبواق السيارات اللانهائي؟ أيعقل أن يكون لنشوئي في حارة صغيرة من حارات حلب، يدٌ لا تقل تورطاً عن يد التشوه المرضيّ في حياكة مأساتي؟ على أية حال، لم تدم هذه الوساوس طويلاً، إذ سرعان ما انتبهت إلى أن سكن من هو بمثل وضعي المالي في دمشق، لن يختلف عنه في حلب. فأنا ممن كُتبت عليهم السكنى في أحقر الحارات وأشدها بؤساً، أياً كانت المدينة، وبالتالي ما كنت لأحظى بظروف

تبخر مثالية كالتي أراها الآن في شوارع دمشق الرئيسة. ناهيك عن أني لم أزل حتى هذه اللحظة مختبئاً في هذه القوقعة المعدنية، ولا أعلم يقيناً ما ستكون عليه الحال عند خروجي منها. فربما ما إن أترجل من السيارة وأنتصب بكامل هيئتي بين الناس في هذه البقعة التي أحسبها الآن بقعة تبخر مثالية، حتى تنخرس من فورها حناجر الباعة وأبواق السيارات، ويهرع الجميع إليّ ليتحلقوا حولي تحلُّق من هُرعوا إلى حفرة هائلة في الإسفلت أحدثها سقوط نيزكٍ أمام أعينهم. راعني تخيل ذلك المشهد، فازددت انكماشاً على نفسي، ورحت أرقب الناس الآن من خلال النافذة بحذر سلحفاة مختبئة، سُلط شعاع ضوء باهر إلى داخل قوقعتها. بقيت على هذه الحال من الاضطراب إلى أن لاح لي فجأةً جبل قاسيون كلوحةٍ جدارية عملاقة في مشهدٍ مهيب أزاح عن كاهلي ذلك المشهد التخيُّلي المفزع. لو أن لي بيتاً على قمة هذه العزلة السماوية! حدثت قلبـي الذي راح يخفق باهتياج محتدم، بينما أتأمل تلك الجنة الصخرية وهي تزداد اقتراباً بهوادة امرأةٍ عاريةٍ خجول، تحت شمس الأصيل.

انحرفت السيارة في طريق فرعي، فانحجبت جنتي خلف أبنيته المتراصة، وظلت محجوبة هكذا إلى أن توقفنا أخيراً تحت مبنى في حي داخلي، من أحياء السبع بحرات كما أخبرتني اللافتة الزرقاء. "يلا تفضل" قال الأستاذ عبد الهادي بصوتٍ كسول بينما يترجل مدلكاً عنقه، فأجلت عينيّ سريعاً في المحيط، لأتبين حجم الجمهور الذي سيشهد بعد قليل انتصاب العملاق، وترجلت بعدها دونما إبطاء وقد تبين لي خلو المكان تقريباً من المارة.

يصيبني صعود السلالم بما يشبه نوبة هستيرية مكتومة، إذ أشعر مع كل درجة أصعدها أن طيني يزداد بلة. أعني أني أزداد طولاً فوق طولي البغيض. أدرك طبعاً أن هذا لا يحدث فعلاً، لكنه شعور لا أستطيع مقاومته. إن الأمر يشبه أن يكون المرء عارياً رغماً عنه وسط حشد غفير، ثم يبدأ أشخاص جدد بالانضمام إلى ذلك الحشد واحداً تلو الآخر. هو لا يزداد عرياً فوق عريه السابغ بلا ريب، لكن هذا ما سيشعر به رغماً عنه، مع كل انضمام لمتفرج جديد.

صعدنا سلم البناية الضيق، وقد تقدمني كعادته الأستاذ عبد الهادي، الذي راح يقفز بين الدرجات برشاقة قطٍّ ظريف، بينما أقتفيه بخطى ثقيلة، تحت وطأة هستيريا الصعود، والذعر الغريب الذي استبد بـي فجأة فور أن عبرنا مدخل البناية. لقد شعرت كما لو أنني أُساق الآن إلى عالم غيبيٍّ مظلم، عالمٍ سفلي.. اختير له أن يكون هذه المرة في طابقٍ علويّ.

"إشقد مظلومة هالسراديب!" قال خليل باشا، مستهلاً أول أحاديثه معي، بينما يتفقّد طلاء الجدران في سرداب قيلته الجديدة في حي الشهباء. لقد اختار الباشا لسردابه الأثير لوناً رمادياً داكناً، جعله يبدو ككهفٍ في قلب جبلٍ صخري. "ممتاز" قال مبتسماً وقد اشرأب عنقه الدقيق الموشّى بشالٍ صوفي أحمر، شابكاً يديه الناعمتين خلف ظهره، وقد ارتدى معطفاً طويلاً من الجوخ العسلي، وجزمةً جلدية لامعة، تمنيت فور أن رأيتها لو أن لي قدمين طبيعيتين، كي أحلم بارتداء مثلها.

أسعدني كثيراً إعجابه بضربة فرشاتي، إذ كان المعلم أبو فادي قد أخبرني بأنه فنان. أذكر أني سألته حينها عما إذا كان يقصد بالفنان أنه يغني، فضحك قائلاً: "لا يا جحش، إشو بغني؟! لك هاد خليل باشا، زلمة من أغنى تجار حلب.. بدك اياه يوقف يترقوَص ويغني للبجم يللي متلك بالأعراس؟!" وددت أن أجيبه بأني لم أحضر حفل عرس طيلة حياتي، لكن خشيت أن يظن اعتراضي هذا تلميحاً لكونه هو البجم ما دام هو من يحضر الأعراس لا أنا. "ولك فنان يعني رسام يا بهيم" هززت رأسي علامة الفهم، وقد أدهشتني فكرة أن يمتلك تاجر ثري موهبة أخرى غير جني المال.

"ما بدك تسألني لشو عبقول عن القبو مسكين؟" قال خليل باشا متطلعاً في عينيّ بخيلاء معلم حكيم، وقد ترك بيني وبينه مسافةً تمكنه من النظر إلى وجهي دون أن يرهق عظام عنقه. لم أحر جواباً، إذ لم أكن قد شعرت فعلاً بضرورة تبرير وصف شيء من الجمادات بالمسكين. إن كان مساكين البشر أنفسهم لم يتساءل أحد يوماً عن سر تعاستهم، فما الذي سيدفعنا الآن في هذا الكهف الأرستقراطي إلى بحث أسباب تعاسة الجدران؟ طال تحديقه إلى عينيّ، ثم ألقى نظرة خاطفة على جسدي، كتلك التي ألقاها عليّ حين التقاني أول مرة قبل أسبوع رفقة المعلم أبو فادي ومقاول البناء الذي أحضرنا إليه ليشرح لنا بنفسه تصوراته اللونية الغريبة. أظن صمتي قد أثار حفيظته، إذ لم يعتد من هو مثله بكل تأكيد أن يُقابَل أحدُ أسئلته بالصمت. لكن كبرياءه أمسكه عن إبداء غضبه، بل إنه أنشأ يشرح فكرته باندفاعٍ مرح كما لو كنت قد رجوته أن يفعل. قال إن السرداب مسكين لأن من قرروا أن يكون مكانه تحت الأرض هم أنفسهم من يحتقرونه لذات السبب. آنست في مقولته شيئاً من الوجاهة المحببة إلى عقلي المكتظ بأصابع الاتهام الموجهة على الدوام بلا هوادة نحو الإنسان. "تخيل يعني لو هالدنيا ما فيها ناس.. وقتها إشو رح يفرق القبو عن أعلى طابق بناطحة سحاب؟" قال وقد اشتدت حماسته موضحاً فكرته، فأجبته بلا تردد: "السحاب". نظر إليّ بتوجس كما لو أنه لم يسمع جيداً ما قلت، أو لم يفهم معناه. فقلت بعد أن ازدردت ريقي: "الطابق يللي فوق البرج رح

يكون حواليه غيوم.. حتى لو ما في حدا يشوف هالشي" امتقع وجهه قليلاً، ثم أطرق سارحاً في أفكاره، وكأنه يراجع صحة نظريته. صاح فجأة بصوتٍ حاد تردد صداه كلسع السياط بين جدران السرداب الخاوي، منادياً حارس القيلا الذي لم يلبث أن نزل إلينا مهرولاً باندفاعٍ محموم كاد أن يدحرجه من منتصف الدرج. "هتلك[17] كرسيين من فوق يا ابني" قال له الباشا بوقار مصطنع دون أن يلتفت إليه.

جلس خليل باشا على أحد الكرسيين، وأمر الحارس بالانصراف. ثم أمال ظهره إلى الوراء شابكاً يديه خلف رأسه، وقد وضع ساقاً على ساق، دافعاً مؤخرته إلى الأمام، حتى بدا كمن استرخى للتشمس على كرسي الشاطئ. "ليش لسّاعتك واقف؟" قال مبتسماً وقد سره الظن بأني أنتظر إذنه بالجلوس. "ما بقعد على كراسي" أجبت بجرأة لم أعهدها لديّ، مراقباً ابتسامته التي ما لبثت أن تلاشت مثلما توقعت، فسارعت إلى الجلوس على الأرض إزاء كرسيي لأنفي عن نفسي أية نوايا بالتمرد على الباشا أو عصيان أوامره.

كان مدير المدرسة التي تعملقت فيها، قد أمر بصنع مقعد خاص لأجلي، بعد أن تلقى بهذا الشأن أمراً مباشراً من مدير التربية الذي اصطحبني إليه جارنا الحزبيّ بعد زيارة استجداء من أمي، التي كنت قد شكوت إليها أخيراً صعوبة جلوسي في المقعد الخشبـي المصمم لطلاب بأجسام طبيعية، أقصى ما يمكن أن يصيب أحدهم سمنة مفرطة يستطيع المقعد المدرسي استيعابها برحابة صدر، تماماً كما اعتاد الناس أن يستوعبوا في غيرهم أي تشوه من التشوهات التي لا يضمنون نجاتهم من الإصابة بمثلها.

أذكر حين دخلت الفصل بعد عشرة أيام من زيارتنا لمدير التربية. كنت قد وصلت متأخراً صباح ذلك اليوم، فكان الطلاب قد سبقوني إلى الفصل على غير العادة، إذ اعتدت دخول الفصل صباحاً قبل بقية الطلاب، بسبب حصولي على إعفاء صحي من حضور طابور الصباح. كان المدرس قد شرع في إعطاء الدرس حين دخلت، فتحولت أنظار جميع الطلاب إليّ كما لو أنهم يرونني لأول مرة. لم أفهم سر انتباههم الغريب الذي أربكني، وجعلني أخطو مسرعاً نحو مقعدي آخر الفصل دون أن أستأذن المدرس أو حتى أعتذر منه عن التأخير. لكن، ما إن بلغت مقعدي حتى فهمت سبب احتفاء أعين الطلاب بوصولي. إنه مقعدي الجديد الذي احتل مساحة مقعدين خلف بعضهما، بسبب حجمه الكبير وتصميمه الغريب. لقد كان شيئاً يشبه العرش؛ عرشاً شديد القبح

مصنوعاً من تجميع خشب مقعدين مدرسيين، لم يُصنع لأجل ملك، بل ليعتليه في المملكة الطلابية أبشع كائناتها وأكثرها غرابة.

عادت الابتسامة إلى شفتي خليل باشا فور أن جلست على الأرض، فأخذ يتأمل وضعية جلوسي الغريبة بعينين مرحتين، كطفلٍ أُلقيت تحت قدميه آلة عملاقة عجيبة. "زكرني إيش كان اسمك؟" قال وقد استقرت عيناه أخيراً على أحد ذراعيّ اللتين نصبتهما على جنبيّ كالدعامتين. "سيبة.. بينادوني سيبة" قهقه ضاحكاً مغمضاً عينيه الزرقاوين، وقد تغضّن وجهه بشكل غريب بدا كتغضّن البكاء. ثم راح يردد بينما يكبح ضحكته بشكل تدريجي: "قال سيبة قال!..".

كنت قد تعودت كلما ضحك أحدهم عليّ، أن أبحث بعينيّ سريعاً عن أي شيء ثابتٍ حولي أصب عليه انتباهي ريثما يتوقف الضحك. كانت حفرة النعامة هذه المرة بقعة دهان لم تزل رطبة، بدت بلمعانها على سطح الرخام الموشى بالغبار، مثل دمعةٍ وحيدة غافلت عين صاحبها غليظ الفؤاد. "سيبة، سيبة.. متل ما بدك خيّو!" حدجتُ عينيه، فابتلع بقايا ابتسامته، واعتدل في جلسته، وأطرق محدقاً إلى حيث بقعة الدهان. لم يحدث من قبل أن التقى رأسي برأس أحدهم داخل حفرتي. بدا لي الأمر مربكاً بادئ الأمر، ثم لم يلبث أن تحول إلى عبء ثقيل يصعب احتماله. إنها حفرتي أنا! ليس من حق أحد أن يزاحمني عليها. خصوصاً إذا كان هذا الأحد هو نفسه من اختبأت منه!

مددت إحدى ساقيّ المطويتين، ودست البقعة بحذائي، وجعلت أفركها بشراسة إلى أن شعرت بأن الحفرة قد طُمرت إلى غير رجعة. "كيف العالم[18] معك؟" قال بصوت بدا عميقاً، فتخيلته يحدثني من تحت الحفرة المردومة. "ماشي الحال" أجبته بصوت خفيض بينما أثني ساقي من جديد. إن لزرقة عينيه سطوة المعوذات إذ تتلى من فم أمي. ظل محدقاً إلى عينيّ طويلاً وكأنه قرر النبش بنفسه عن إجابات حقيقية مطولة، غير تلك الإجابة المستهلكة القصيرة كالنحنحة.

قال أخيراً وقد استعاد نبرة المعلم: "انسالي هلأ، يا سيد سيبة، ناطحة السحاب.. يمكن هالمثال ما كان زابط كتير" نهض هنا عن كرسيه، وراح يذرع الأرض أمامي بأناة الذي يتدبر مسألةً أشكلت عليه، إلى أن توقف بعد جيئة وذهاب عند أسفل السلم، فأسند إحدى قدميه إلى أولى درجاته، واتكأ بذراعه على الدرابزين الحديدي، مولياً ظهره للدرج، وقال بروية من يزن الكلمات قبل إخراجها: "مشكلة القبو مَي بوجودو تحت الأرض.. مشكلتو الحقيقية إنو نحنه ما منحب ننزل لتحت". هنا نهضت عن الأرض، وتوجهت إلى حيث يقف، كالمقبل على بائع يحسن النداء على

بضاعته. هز الباشا رأسه مرحباً باهتمامي، وصعد بضع درجات كي يجعل وجهه قبالة وجهي، وراح يكمل كلامه. قال إن كره الإنسان للنزول أسفل الأرض عائد إلى سببين رئيسين؛ واحد نفسي والآخر تاريخي. أما النفسي فهو ارتباط النزول بعموميته في المخيلة البشرية بالانتقال من حال جيدة إلى أخرى سيئة، فالصعود دوماً يمثل النجاح والارتقاء بينما يمثل النزول السقوط والانحطاط. أما العامل التاريخي فإنه يعود إلى ارتباط التعذيب البشري والإلهي على حد سواء بالنزول تحت الأرض. فأول السجون التي صنعها الإنسان كانت عبارة عن زنازين تحت الأرض، وها هي السلطات القمعية حتى يومنا هذا تمارس في أقبيتها المشيدة تحت الأرض أبشع صنوف التعذيب وأكثرها وحشية. وكذلك هو الأمر في ما يختص بالعذاب الإلهي. ففي الديانتين اليهودية والمسيحية ارتبط هذا العذاب بالنزول أسفل الأرض، حيث نجد الجحيم في الديانة اليهودية عبارة عن وادٍ سحيق مخيف اسمه جهنم، بينما يقبع الجحيم في الديانة المسيحية في عالم سفلي مظلم، محفور تحت الأرض أيضاً. وذكر هنا لوحة بوتيتشيلي التي رسم فيها الجحيم طبقاً لوصف دانتي المريع في الملهاة الإلهية، فكان الجحيم في هذه اللوحة عبارة عن حفرة هائلة على هيئة جبل مقلوب. "الوديان السحيقة جبالٌ شاهقة في عين السماء" قلت مغمضاً عينيّ كمن يقرأ كلمات مكتوبة بحبر سحري لا يُرى سوى في أعماق العتمة، فسمعته يقول بصوتٍ بدا فيه شيء من ذهول: "وين قريت هالعبارة؟" فتحت عينيّ، ونظرت إليه كمن ينظر إلى من أيقظه من حلم غريب، وأجبت في شرودٍ خدِر: "مو قاريّا بمكان". تفرّسني ملياً وقد فترت شفتاه عن ابتسامةٍ مبهمة. نزل الدرج بهوادة، ووقف أمامي مباشرةً، لا تفصل بيننا سوى بضع خطوات. رفع وجهه إلى أقصى مداه متطلعاً إلى وجهي بضراعة المبتهل إلى السماء، تترقرق الزرقة في عينيه كالماء البعيد.

"شو؟ أول مرة بتطلع درج؟" سألني الأستاذ عبد الهادي الذي وجدته واقفاً بانتظاري مكتفاً يديه في ردهة الطابق الثاني، حيث يختبئ جحيمي المحتمل خلف أحد أبوابه الأنيقة المصنوعة من الخشب.. الخشب المقصوص من الأشجار.. الأشجار التي قُطعت جذوعها فوق الأرض.. حيث يحيى الإنسان.. وظلت جذورها آمنة تحت الأرض.. حيث يخشى الإنسان.

إلى ملاكي الطينيّ

ما الخوف إلا لعنةُ الذاكرة.. فالذبابة التي لا تلبث أن تعود من جديد لملاقاة حتفها، بعد أن فرّت قُبيل قليل حين هششتِ عليها بيدك، لم تتخذ قرار المواجهة بعد الهروب بفضل شجاعتها، إنما بسبب ذاكرتها شديدة القِصر.

لست أدري إن كنت أتمنى ذاكرة الذباب للتخلص من الخوف المقيم في داخلي.

الغريب، يا ملاكي، أنني مثل الذبابة لا أهاب الموت. لكنني، وبعكسها، أخشى عيون الناس. أخشى العيون كأنها أيدٍ تهشُّ عليّ، وكأنني.. لستُ سوى ذبابة..

عبيل

سوريا/حلب 9 أيار 1986

الفصل الثالث عشر

دخلت البنسيون بعد أن ودّعت خلدون، وجلست في البهو على الكنبة المتهمة بالاتساخ، لتدخين سيجارة أخيرة قبل الصعود للنوم. تفكرت في شخصيته، أعني شخصيته الجديدة. كيف لسبعة أعوام أن تصنع من المرء إنساناً جديداً؟ ما بال الحضارات إذن تحتاج إلى كل هذه القرون لتنشأ، ثم إلى مثلها لتستقر وتزدهر؟ لكن مهلاً، فالتاريخ نفسه يخبرنا أيضاً بأن انهيار الحضارات يقع دائماً بشكل مفاجئ، كوقوع سقف متهالك فوق رؤوس أصحابه. أيمكننا قياساً على هذا، اعتبار تبدل المرء السريع انهياراً؟ لكن هل من الإنصاف أصلاً اعتبار التبدل في سبعة أعوام من حياة الإنسان تبدلاً سريعاً يثير الاستغراب؟ ربما لو كنت ملازماً لخلدون خلال تلك السنين، لما انتبهت إلى هذا التبدل من الأصل، أو لم أنظر إليه على الأقل بعين التعجب، كما أفعل الآن. ألم أتغير أنا أيضاً خلال هذه الأعوام؟ هل يلاحظ الإنسان تغيره؟ ماذا لو كان خلدون في هذه اللحظات يقول لنفسه بينما يقود سيارته في الشوارع المعتمة: "ياه، كم تبدل هشام!".

دخلت سيدة في أواخر عقدها الثالث، لها وجه صوفيا لورين، أو هكذا بدا لي على الأقل من خلال دخان سيجارتي ورغباتي الشتوية. كانت ترتدي معطفاً من الجوخ الأحمر، وصبغت شعرها القصير بلون ذهبي أضفت عليه إضاءة البهو الخافتة دفء طلاء أيقونة العذراء في أديرة معلولا. ألقت تحيتها بالفرنسية على موظف الاستقبال الذي ردها بـ "أهلين مدام" بينما ينهض بوقار، ونظرا إلى بعضهما بصمت، وكأنهما بانتظار وصول رسالة غير مرئية أرسلتها إليه بعينيها المغريتين، لينتفض رأسه فجأة بعد برهة كقط أصابه البلل، ويقول على استحياء: "إي، المفتاح.." واستدار إلى الخلف مفتشاً بعينيه بين المفاتيح المعلقة على اللوح الخشبي، واستل منها مفتاح الغرفة 7، ومده إليها حانياً رأسه بابتسامة مرتبكة. شكرته بالفرنسية، ونظرت إلى ساعة يدها نظرة خاطفة جداً لا

أظنها كانت كافية لمعرفة الوقت، فقلت لنفسي ربما تتحقق فقط من أنها لم تُنشل. التفتت إلى كنبتي ورمقتني بنظرة لم يبدُ فيها السرور على الإطلاق، إذ يبدو بأن الكنبة المتهمة بالاتساخ هي كنبتها المفضلة في هذا البهو الصغير، الذي لم يتسع سوى لثلاث كنبات صغيرة تحيط بطاولةٍ خفيضة وُضعت عليها منفضة وبضع صحف. فكرت للحظة بأن أتنازل لها عن كنبتها الأثيرة متظاهراً بأني اكتفيت من الجلوس في البهو، لكنها كانت أكثر رشاقة من الفارس الشرقي بداخلي، فلم تلزمها سوى خطوتين راقصتين لتستريح على الكنبة المقابلة. عاجلت بإطفاء سيجارتي خوفاً من إيذائها بدخاني ذي الرائحة الوطنية بامتياز، الذي لم تلبث آخر خيوطه المتصاعدة من المنفضة بالتلاشي، إلا وقد أخرجت من حقيبة يدها علبة سجائر وطنية من نفس صنف سجائري، وأشعلت واحدة. لقد كانت تلك اللحظة، يا سادة، هي لحظة تصالحي التاريخية مع السجائر الوطنية! فشفتاها الخمريتان المكتنزتان أسبغتا على السيجارة المضمومة بينهما رونقاً أرستقراطياً، بينما تقلد تبغها الرديء شهادة جودة عالمية مستحقة، بامتزاج دخانه برائحة عطرها الفرنسي شديد التأنيث الذي احتل هواء البهو منذ اقتحمته جيوش فتنتها الآسرة. نظرت بحسرة إلى سيجارتي المهروسة في المنفضة وهي لم تزل في مقتبل عمرها، وشتمت تسرعي لسببين وجيهين (إن وجاهة السبب شرط أساسي في مبادئي لإطلاق شتيمة، فالشتائم كالرصاص، إن لم يكن لديك سبب وجيه لإطلاق إحداها فعليك الاحتفاظ بها في مخزن مسدسك. أعلم أن الشتائم، بعكس الرصاص، لا تنفد، لكنها بلا شك تفقد قيمتها كما يفقد السلاح المستخدم في الأعراس هيبته مع الوقت، أو يُفقدنا العريسَ برمّته إلى الأبد). كنت أقول بأني شتمت تسرعي لسببين وجيهين؛ السبب الأول بلا شك هو التبذير الذي اقترفته بتسرعي حين أطفأت سيجارة لم تكن قد وصلت بعد إلى منتصفها، وهي خطيئة ترقى إلى مستوى الجريمة لمن هم بمثل وضعي المالي آنذاك. أما السبب الثاني وهو برأيي أكثر وجاهة من الأول (بل أكثر وجاهة حتى من تفريغ مخزن كامل، بحجة الابتهاج، في صدر عريس استولى على حبيبتك بأموال أبيه) هو أن تلك السيجارة التي أعدمتها لتوي بيدي الآثمة، كانت حجة كافية طويلة الأمد لبقائي جالساً قبالة الفتنة الشتوية الدافئة تلك، فأسترق إليها النظرات كلما تسنّى. ومن يدري، فربما تجاوز الأمر حدود النظرات إلى تبادل البسمات ومن ثم التعارف، فأخرج من رحلتي على الأقل بنصر عاطفي إذا ما مُني مشروعي الأدبـي مع عبيل بفشلٍ ذريع.

"إنها سيدة متزوجة أيها الوغد، ولا شك بأنها جلست تنتظر وصول زوجها ليصعدا معاً، ألم تسمع موظف الاستقبال يدعوها بـ مدام؟" قال ملاك الخير لاكزاً كتفي اليمنى، فألقيت على ساقيها

المكشوفتين نظرة وداع مريرة، وقلت لموظف الاستقبال بينما أنهض: "مفتاح الغرفة 12 لو سمحت".

كانت الغرفة شديدة البرد، فأشعلت حطب المدفأة والتصقت بها.

"حبيبـي احضنها فرد مرة بلكي بتدفى اكتر" قالت لي سلاف ساخرةً قبل عامين، بصوتها الذي لا بد وأن يكون صوت السلاف حقاً لو كان للخمر صوت، عندما رأت مني هذه العادة لأول مرة. "بس ما تكوني غيرانة منها!" أجبتها بينما أبتعد عن المدفأة وأقترب منها. لا أعلم كم مر من الوقت وهي بين ذراعيّ، ربما بضع ثوان، بضع دقائق، لا أدري، لكن دفء حضنها كان، بلا ريب، دفئاً سرمدياً يشتهيه الأبد.

بدلت ثيابـي بعد أن أخذت قسطاً كافياً من الدفء من المدفأة الحديدية الصغيرة التي سرعان ما التهب حطبها، ربما على ذكرى سلاف، وارتميت تحت اللحاف. "لست هنا لتكتب عنها" حدثت نفسي أخيراً مصارعاً أطياف قصتنا التي راحت تحوم في رأسي كفراشات محترقة يتصاعد منها دخان خانق، ونهضت عن السرير، وأخرجت من حقيبتي رسالة عبيل إلى شذا عمران:

إلى ملاكي الطينيّ

هذه الدنيا ملعونة، والناس فيها إما أبالسة ملعونون مثلها ومثلي، أو بؤساء مسحوقون مثل أمي. لا تصدقي من يقول بأن ثمة فئة أخرى غير هاتين. إن أي تصنيف يحمل تسمية مختلفة ما هو إلا تفريع من الأصل، صدقيني. فالطغاة أبالسة، وعبيدهم أبالسة، والمنافقون والأثرياء والأدعياء والمحتلون والقوادون، كلهم أبالسة، والمسوخ مثلي أيضاً أبالسة ملعونون، غير أنها لعنة لم يستجلبوها لأنفسهم كغيرهم من الأبالسة، بل أنزلها عليهم أهل الأرض بالإجماع، في حكم نهائي مقدس غير قابل للطعن أو المساس. أما الفقير والمظلوم والممسوس

بالفنون والأمهات البائسات والأطفال في أوطاننا والحالمون الهائمون تحت شمس الخوف، فكلهم مسحوقون. بيد أن تصنيفاً كهذا، لا ينفي مرور من هم خارجه بهذه الدنيا على مر الزمان، من أنبياء وقديسين وثوار وملوك عادلين وبضع ملائكة من طين، قلما جاد الزمان بمثلهم.

كم تمنيت يا ملاكي الطيني أن أكون في عداد المسحوقين، أو حتى الملعونين بملء إرادتهم. أحسب أن كليهما قد اعتاد حقيقته وتوصل معها إلى تصالح ضمني، فها هم الطغاة ترينهم في كل عصر يشرعون إلى الجحيم بخطى دؤوبة فوق أشلاء ودمع، بلهفة الماضي إلى جنان الخلد والنعيم، بعد أن قطعوا لسان ضمائرهم مع أول ثرثرة أقضّت مضاجعهم، فأخرسوها إلى الأبد. وها هو الفقير منشغلٌ في حدود فاقته بلقمة عيشه، وقد تخلى عن سؤال (لماذا أنا) بعد أن رأى نفسه محاطاً من كل حدب وصوب بمن هم مثله، فأسقط الـ (أنا) من سؤاله ابتداءً، ثم أسقط السؤال بكليته عندما أدرك أن انشغاله بالبحث عن إجابة يعني انشغالاً عن قوت يومه، في الوقت الذي تخلى فيه كل من حوله ممن هم مثله عن واجباتهم في البحث. أما أنا، فلا أرى حولي من المسوخ سواي، فيصير من حقي السؤال (لماذا) ولزاماً عليّ أن أتبعها بـ (أنا) لإتمام السؤال.

أنا يا ملاكي وحشٌ مثقل، كسائر الوحوش، بلعنات البشر. غير أني مثقلٌ أيضاً بلعنةٍ أخرى أشد وطأةً، تنمو بغير هوادةٍ في داخلي، هي لعنة السؤال..

عبيل

سوريا/حلب 18 شباط 1986

أذكر أن أول سؤال تبادر إلى ذهني بعد أن قرأت هذه الرسالة لأول مرة، هو في أي خانة سيضعني عبيل وفق تصنيفه المتطرف هذا بعد أن يعرفني؟ ملعون أم مسحوق؟ ثم بدأت أتساءل، وقد تسللت إلى نفسي شكوكٌ ملغزة، ماذا عن رأيي أنا بنفسي؟ أين أضع أنا نفسي وفق هذا التصنيف لو تفكرت في شخصيتي ومسار حياتي؟ هل يكفيني الفقر وحده للتمدد مستريح الضمير في عنابر المسحوقين؟ لكن ماذا عن مهنتي؟ ألم يجعل العمل الصحفي مني دميةً ملعونة تحركها خيوط الكذب والخداع والنفاق؟ ألم أكتب الكثير من المراجعات لكتب لا تستحق حتى ثمن حبر غلافها، بسبب خلو جعبتي من أي تحقيق أو خبر جديد يستحق النشر؟ ألم أسكت في بعض مراجعاتي عن العيوب الفنية الواضحة، مخرساً ضميري الأدبي - كما أخرس الطغاة ضمائرهم في رسالة عبيل - فقط لأنها كانت مراجعات لكتب أصدقاء؟ بل قبل هذا كله، وعلى ذكر الخرس، ألم يكن اختياري الكتابة في الصفحة الثقافية هروباً من محاباة السلطة؟ أليس الهروب السري من محاباتها أشد جبناً من محاباتها المعلنة؟ لا، إن هذا تصنيف مجنون وليس فيه أي إنصاف! قلت لنفسي أخيراً، في محاولة يائسة للتسلل من عنابر الملاعين، غير أنني لم أفلح. إذ لم أستطع في قرارة نفسي أن أسلّم بجنون عبيل، أو التعامي عن حقيقة أنني لست إلا شيطاناً لعيناً، يرتدي زي المثقف الصحفي..

أعدت الرسالة إلى الظرف، وقد ضجّت الآن في رأسي أفكار مضطربة: ربما كان هذا ما دفعني حقاً إلى قرار الاستقالة، ولم تكن حادثة حواري مع الأديب الوغد سوى ذريعة كنت بحاجةٍ إليها كي أستطيع اتخاذ مثل هذا القرار، تمهيداً لاعتزال الصحافة لاحقاً. بل وربما كان إقدامي على مشروع رواية عبيل ليس إلا مخرجاً من عالم الصحافة لا مدخلاً إلى عالم الأدب، كما كنت أحاول حتى تلك اللحظة أن أوهم نفسي!

وضعت الظرف في جيب معطفي المعلق على المشجب، كي أستعين صباح الغد بالعنوان المكتوب عليه عند توجهي إلى بيت عبيل، وأطفأت مصباح الغرفة، وعدت إلى السرير الذي كان دفء حضن سلاف لم يزل ينتظرني تحت لحافه. غير أن ذلك الدفء السرمدي لم يكن كافياً لمنع أوصالي من الارتجاف، وقد تمثل لي في غياهب العتمة شبح عبيل الهائل، بينما أسائل نفسي بهذيان

المحموم: كيف لرسالة قصيرة كتبها شخص غريب إلى سواي، أن تقوى على دفعي إلى اعتزال المهنة التي دست على حلم أبـي من أجلها، وأفنيت عشر سنين من عمري وتخليت عن الكثير من مبادئي في سبيل إرضائها؟

بدأت عتمة الغرفة تشتد حلكةً، بينما أخذ شبح عبيل يزداد استطالةً وتوهجاً بشكل لا نهائي أعشى عينيّ فأغمضتهما عنه، متمتماً في تجلٍّ صوفي: لا يمكن أن يكون كاتب هذه الرسالة إنساناً عادياً، ولا يستقيم وضعه، كما ارتضى هو لنفسه، في خانة الملعونين، ولا حتى في خانة البؤساء المسحوقين. لا، إن من تقوى بضع كلمات منه أن تكون صفعة مدوية على وجه الضمير البشري، لا يمكن اعتباره كسائر البشر..

الفصل الرابع عشر

لم تستطع السكرتيرة الشابة كتم شهقتها حال أن رأتني أدخل المكتب خلف الأستاذ عبد الهادي، كما لم تستطع تمالك أعصابها حين أخبرها بنيته بالانصراف. "ما بدك تحضر الـ casting؟" سألته بانفعال. "casting شو؟" قال ضاحكاً. "هو بس بدو يشوفو، وأكيد رح يعجبو" أضاف بأريحيّة من يتحدث عن شخص غائب، أو آلةٍ صمّاء أوقفها وراءه. "طيب استنى ع القليلة ليجي السيد يوسف إذا ما بدك تنتظر المخرج" قالت بصوت منخفض، مومئة إليّ بعينين قلقتين، ففهمنا أنا وهو أنها خائفة من البقاء معي لوحدها. كانت شابة صغيرة وجميلة. لا أعلم إن كانت جميلةً فعلاً، فأنا أرى كل النساء جميلات، ويعتريني خجل مشوب باشتهاءٍ وجِل كلما اضطررت إلى التعامل مع إحداهن. فكر الأستاذ عبد الهادي قليلاً، ثم التفت إليّ وطلب مني أن أتبعه. أدخلني غرفة الاجتماعات، وأمرني بالانتظار ريثما يصل المدير، وأقفل عليَّ الباب بالمفتاح. هكذا بكل بساطة!

هل سُجنت لتوي؟! فكرت ذاهلاً بهذه البداية التراجيدية التي لم تكن تنقصني. قرعت الباب، ثم قرعته مرةً أخرى لكن بعزم أقل، إذ خشيت فجأةً أن يُسمع القرع! أفزعتني فكرة الاعتراف بحقيقة أني قد سُجنت، حتى وإن كان اعترافاً عبر احتجاجٍ غاضب. بسطت قبضتي في ارتماءتها الأخيرة على الباب، وكأني أطبق فمه الخشبـي بكفي: شششش.. أتوسل إليك، لا تخبر أحداً!

تناهى إلى مسمعي صوت ضحكهما. يبدو أن ما فعله بـي لطمأنتها قد وجدته لا يخلو من الطرافة. ودّعها بعد برهة من التعليقات والضحكات المتبادلة، ثم خيّم الصمت على المكان. أغلقت جفنيّ مبتلعاً دمعي، وأنخت جسدي على البلاط، مسنداً ظهري إلى الباب.

لن يبكيني سجنٌ مثل هذا.. حدثت نفسي بعد أن زال غباش الدمع عن عينيّ وأعملت النظر في أرجاء الغرفة النظيفة ذات الطاولة الحسنة والكراسي الفارهة. لا، إن سجناً وديعاً مثل هذا لن يُبكي من كانت حياته بأسرها سجناً وضيعاً آسناً منتن الجدران.

فتحت حقيبة الزاد، والتهمت فطيرتين من الجبن مززت معهما ما تبقى من الماء في المطرة، وتجشأت مثل بغلٍ سعيد.

تلفتُّ حولي متحسساً ركبتيّ المتيبستين. كنت محتاجاً إلى تمديد جسدي على الأرض بعد أن حشرته كل هذا الوقت في مقعد السيارة. نهضت بمشقة وعاينت الغرفة، فاخترت أن أستلقي بين حائط النافذة وطاولة الاجتماعات، بحيث لا أكون مكشوفاً لمن سيفتح باب الزنزانة. كان السقف شديد النقاء، وقد بدا لي حديث الطلاء أيضاً. طوّفت عينيّ في أرجائه البيضاء باحثاً عن أية ذبابة تؤانسني خلال انتظاري الذي لا أعلم كم سيطول، فلم أجد أحداً. نظرت بعينيّ الخائبتين إلى ساعة يدي، كانت تشير إلى الرابعة والنصف. ستكون أمي الآن لا تزال جالسةً على سجادة الصلاة مستغرقة بتلاوة المعوذات، بعد أن فرغت من أداء صلاة العصر. لم أسمعها يوماً تتلو غير المعوذات في أذكارها، منذ أن كانت تعيذني بها من عيون الحاسدين عندما بدأت أزداد طولاً، إلى أن صارت تستعيذ بها من طولي المخيف. فلم تزل من حينها لا تردد غيرها بعد كل صلاة، ملقيةً وجهها بين كفيها في خشوعٍ مضطرم، وكأنها تنزّلت عليها.

إن كانت حياتي زنزانةً بائسة، فإن أمي هي الخربشة الجميلة التي خلّفها على أحد جدرانها ذات يوم سجينٌ عابر.

عدت بعينيّ إلى السقف الخاوي خواء حياتي. تُرى ما الذي يراه في المساحة الفارغة من كانت حياته ممتلئة؟ وكيف يبدو السقف الخاوي في عين من استلقى أحد بجانبه؟ لو كنت مدير هذا المكان، لطلبت الآن من السكرتيرة، بحصافة من يطلب أمراً جليلاً، أن تضع كل شيء من يدها وتأتي للاستلقاء بجانبي لتشاركني التحديق في السقف. "ماذا ترين الآن يا آنسة؟" سأسألها بعد انقضاء مهلة من الوقت. قد يربكها السؤال قليلاً، فالناس ربما لم يعتادوا مشاركة الغرباء خيالاتهم السقفية. "لا تخجلي يا عزيزتي، فأنا أيضاً أرى الآن الكثير من الأشياء" سأكذب عليها. فتبدأ بعد تردد بوصف ما تراه، فأحاول تتبعه بعينيّ المنتبهتين. سيُشكِل عليّ تحديد موضع الشجرة من النهر، فأقاطعها بكياسة: "مهلاً يا عزيزتي، على أي ضفة تقف شجرتك المزهرة؟" ربما تتنهد قليلاً قبل أن

تجيب: "لا فرق في الخيال!" فأقول: "أجل بكل تأكيد، لا فرق.." ثم تتابع الوصف، تاركةً النهر الصافي والشجرة المزهرة خلف ظهرها، بينما أظل أنا عالقاً في مجرى النهر المضطرب، أتلفت في تيه إلى ضفتيه، محاولاً تحديد موضع الشجرة.

ربما ليس كافياً أن يستلقي أحد بجانبك لترى في السقف ما يراه، فكرت. فمساجين الزنزانة الواحدة وإن تشاركوا التحديق كل يوم في السقف نفسه، فإنهم لا بد وأن يكون لكل منهم خيالاته السقفية المستقلة، كما كانت له ابتداءً جريمته المستقلة. إن جريمتي ليست مستقلة وحسب.. إنها جريمة فريدة! لا أظن سقفاً واحداً في كل سجون الدنيا، غير هذا السقف، قد حدق إليه يوماً من كانت جريمته الوحيدة هيئته. ربما يكون السقف الآن هو الذي يحدق إليّ بنظرةٍ فيها الكثير من الاحتقار، مغمغماً: لا بد وأن هذا المسخ المخيف قد اقترف جرماً عظيماً حدا بهؤلاء السادة النبلاء أن يحولوني من سقف محترم يشهد اجتماعات فنية راقية، إلى سقف زنزانة وضيع.

أُديرت قبضة الباب فجأةً غير مرة، فانتفضت واقفاً، بينما أسمع صوت رجل غاضب يوبخ السكرتيرة: "لشو قافلتيه بالمفتاح؟!" دار المفتاح في القفل، وانفتح الباب. زال احتقان وجهه فور أن رآني، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة محببة، تشبه ابتسامتنا من خلف النافذة لصباح مشمس بعد عاصفة ثلجية. "والله يا سيد يوسف مو أنا يللي قفلتو.. هاد عبد الهادي الله يسامحو!" أجابته السكرتيرة من وراء كتفه، وقد امتقع وجهها. أقبل عليَّ دون تردد، ومد يده مصافحاً: "يوسف سليمان" وسكت مفسحاً لي أن أعرّفه باسمي. كدت أن أقول "محسوبك سيبة" لولا أن تداركت الأمر، وغمغمت بارتباك مشوب بالخجل: "جلال الراوي" فقال بينما لم تزل يده الصغيرة معلقة في قبضتي: "جلال وللا جلال الدين؟" فأجبت: "جلال الدين" مد يده الثانية مربتاً على ظهر كفي التي تصافحه، وقد اتسعت ابتسامته، ثم قال بابتهاج تلميذ يجيب على سؤال معلمه إجابة صحيحة أمام بقية الطلاب: "جلال الدين الراوي.. جلال الدين الرومي!" كان خليل باشا قد مر على ذكر جلال الدين الرومي غير مرة في جلساتنا السردابية، من دون أن يخطر لأي منا هذا التشابه بين الاسمين، ربما لأنه اعتاد أن يناديني بـ جلال مجرداً من تركيبه، مثلما تفعل أمي، بعد أن تخلى منذ لقائنا الثاني عن مناداتي بـ سيبة كما يفعل الناس. أما أنا فقد تخليت عن اسمي الرسمي هذا منذ أن تخليت عن امتلاك أب، إلى أن نسيته تماماً كما نسيت أبـي. هززت رأسي مبتسماً لهذا التشابه، من غير أن أشعر حقاً بأنه يعنيني.

وقعت عيناي في هذه اللحظة على السكرتيرة التي كانت لم تزل واقفةً على الباب، فلمحت في وجهها غيظاً من حفاوة ترحابه أشد من غيظها جراء توبيخه لها قُبيل قليل. وكم سرني أن أرى أخيراً نظرة الحسد من عين أحدٍ تجاهي. "مستر جاويد على وصول يا مولانا[19]، تفضل ننتظرو بمكتبـي" قال السيد يوسف مبتسماً، فتبعته إلى مكتبه، من غير أن ألتفت إلى الحسود الخرقاء التي لم تستطع أن تدلني على موضع شجرتها المزهرة.

إلى ملاكي الطينيّ

تخيلي سجناً صغيراً من حجرتين: محبس السجين، وحجرة السجّان، وبينهما جدار..

نوافذ حجرة السجان رحبة مشرعة للشمس والهواء، بينما محبس السجين بنافذةٍ وحيدةٍ صغيرة لا يستطيع بلوغها. السقف فوق غرفة السجان أبيض، بينما سقف السجين معتمٌ من غير لون. وكذلك قاع الحجرتين، فعند السجين بلا بلاط، بينما رُصفت حجرة السجان بالرخام. وكذا أثاث الحجرتين، دون ريب.

حسناً، تخيلي لو أننا قمنا بتبديل الأماكن، فصارت حجرة السجان محبسَ السجين، وصار المحبس الوضيع حجرةَ السجان. فنقفل على السجين باب حجرته الجديدة، ونترك السجان طليقاً مثلما كان. هل سيكون تبادل الأماكن كافياً لتبدل المشاعر؟ لا تفكري كثيراً يا ملاكي، فليس هذا هو السؤال.

هل تذكرين ذلك الجدار بين الحجرتين؟ بماذا سيهمس الآن وجهه الكئيب للسجّان؟..

عبيل

سوريا/حلب 13 تموز 1986

الفصل الخامس عشر

استيقظت صباح اليوم التالي على ألم في عنقي، تسببت به الوسادة الصلبة بلا شك، فقد كانت أقسى من كيس ملاكمة.

نظرت إلى النافذة مدلكاً عنقي، فوجدت البرد قد ألصق وجهه على الزجاج كمتلصص وقح. كانت الغرفة لا تزال محتفظة ببعض دفء المدفأة. سأقابله اليوم! حدثت نفسي بحبور يشوبه الوجد، في ضراعة صوفي مقبل على لقاء شيخ طريقته.

لم أترنم بينما أنزل الدرج (كما يحق لكم أن تتوقعوا) بأحد الموشحات الصوفية على الإطلاق، على الرغم من أن عقلي الواعي أخذ يحضني على فعل هذا بغرض التماهي مع ما يختلج في قلبي، غير أن عقلي الباطن (وهو ابن كلبة بالمناسبة، لا تليق به المقامات الروحانية) كان حينها أكثر تأثراً بكيس الملاكمة الذي لوى عنقي، فانتقى لي من أرشيف ذاكرتي السمعية موسيقى فيلم الملاكمة الأمريكي روكي، ليرافقني وقع أنغامها طوال نزولي. ولولا أن تدخل عقلي الواعي أخيراً حيال تلك المهزلة الروحية، لكنت قفزت في الهواء رافعاً قبضتيّ إلى أعلى لحظة بلوغي أسفل الدرج، كما فعل روكي بالبوا في المشهد الشهير مختتماً عدوه في شوارع فيلادلفيا وقد ركض خلفه عشرات المؤازرين.

خرجت من البنسيون بعد أن أودعت مفتاح الغرفة لدى موظف الاستقبال. فكرت بأن أتلكأ قليلاً خلال تلك المهمة على أمل ظهور صوفيا لورين في صدفة صباحية جميلة، لكنني لم أفعل مخافة أن أغضب ملاك الخير من جديد، أو ربما لأن الحياة علمتني أن الصدف التي ننتظر وقوعها لا تقع أبداً في لحظات الانتظار.

كان الطقس شديد البرودة ذلك الصباح، فحثثت الخطو بحثاً عن مطعم أتناول فيه وجبة الإفطار وأنعم بقسط من الدفء، ريثما يصير الوقت مناسباً لقيام غريب بقرع باب أحدهم. كانت موسيقى روكي لا تزال متشبثة برأسي كصداع لعين، بينما أحوم بخفة اليعسوب في الأزقة المتجلدة، معلقاً على كتفي الحقيبة الجلدية المذخرة بالأوراق البيضاء. لم يكن لدي أدنى أمل بأن تُتاح لي كتابة كلمة واحدة في زيارتي الأولى بكل تأكيد، لكنني ارتأيت أن دخولي عليه بتلك الأوراق سيكون من شأنه أن يشي بمدى جديتي إزاء المشروع الذي جئته به.

عثرت أخيراً على مطعم صغير يقدم البيض المقلي. تناولت الإفطار على أنغام فيروز، التي تكفل صوتها المطري بغسل رأسي من شوائب البطولة الأمريكية، لتتكفل بعد ذلك السجائر الوطنية مع القهوة المغلية جيداً باستعادة أصالتي السورية.

كانت الوصلة الفيروزية مقدمة من برنامج مرحبا يا صباح الذي تبثه إذاعة دمشق. إنه البرنامج الذي لم أعد أستطيع سماعه دون أن أشم رائحة الموت، مذ همس لي أحدهم قبل ثلاثة أعوام بأن مقدمه السابق منير الأحمد مات في أحد أقبية المعتقلات السياسية. "مو هو ابن بدوي الجبل؟" سألته حينها متعجباً، فهز رأسه بالإيجاب ناظراً إليّ بتعجب فاق تعجبي، ثم همس بصوت بدا آتياً من العالم السفلي: "ما هي القصة كلها بلشت من بعد قصيدة أبوه من وحي الهزيمة". لم أطلب منه على أية حال أن يقصها عليّ، إذ تملكني ذلك الخوف الذي لا ينفك يعقد ألسنتنا كلما تطرق أحدهم أمامنا إلى حديث في السياسة. الخوف الذي يشوبه ارتياب في كثير من الأحيان، فكل حديث سياسي هو فخ محتمل، وكل مبادر بمثل هذا الحديث هو بالضرورة ناصب محتمل لذلك الفخ القاتل.

هذه الأغنية تحبها سلاف.. تنهدت عندما مرت أغنية "حبيتك بالصيف" وأخذت رشفة أخيرة من الفنجان وطلبت الحساب. مشيت إلى أقرب شارعٍ رئيس وركبت أول سيارة أجرة التقطتها، ومضيت إلى منزل عبيل.

بأيام البرد وأيام الشتي

والرصيف بحيرة والشارع غريق

تجي هاك البنت من بيتها العتيق

ويقلا انطريني وتنطر ع الطريق

ويروح وينساها وتدبل بالشتي..

"تفضل أستاز" قال السائق بما يشبه الصراخ، إذ يبدو بأني لم أسمعه أول مرة، بل لم أنتبه حتى إلى أن السيارة قد توقفت. "هاد هو العنوان؟" سألته متفلتاً حولي بينما أُخرج النقود من محفظتي. "هاد مدخل الحارة. بدك تمشي لجوا وتسأل عن الصيدلية يللي بالعنوان.. بخاف إدخل بالسيارة وما أعرف أطالعا. الشوارع هون ديقة كتير وعايفة حالا" ترجلت ومشيت داخل الحي بخطىً مضطربة، وقد تملكني إحساس غريب. شعرت كما لو أنني سائح من طوكيو يمشي في أفقر الأحياء الأفريقية. كانت المنازل متهالكة، والطرقات بالكاد معبدة، غطتها برك الوحل، ومزقتها الشقوق، وحاذتها أرصفة متكسرة، افترشها بائع بسطة هنا، ومصلح أحذية هناك، وزمرة من النساء جلسن لشرب شاي الصباح على رصيف ثالث أمام عتبة منزل من طابقين، تسترق النظر إليهن من الشرفة المقابلة امرأةٌ شابة تنشر ملابس بالية على حبل الغسيل بيدين عصبيتين، بينما يتأرجح برخاوةٍ خدِرة، كتنفُّس النيام، علمُ البعث المتدلي من الشرفة المجاورة. لم أتخيل يوماً أن أجد في سوريا حياً ببؤس ذلك الحي. يا لبؤسك يا عبيل! تنهدت بإشفاق، مفتشاً بين وجوه المارة عن وجهٍ لا تعتليه مسحة من كمد، لأسأل صاحبه عن موقع الصيدلية.

قطعت الحي بأكمله إلى أن بلغتها أخيراً. كان قد كُتب في العنوان "مقابل صيدلية هالة" ولم يكن قبالتها سوى منزلٍ وحيد، عن يساره شارع صغير وعن يمينه قطعة أرض بور. لم أكن بحاجة إذن إلى التحقق من المنزل بالسؤال داخل الصيدلية التي كانت مغلقةً بكل الأحوال. لا أعلم إن كان مشهد عبيل في كبينة القطار، المحفور بذاكرتي على هيئة لوحةٍ حزينة، هو الذي أوحى إليّ بأن منزله أشد بؤساً من كل تلك البيوت التي مررت بها، أم أنه بالفعل أبأسها. بيد أن الذي كان لافتاً حقاً أكثر من بؤس منزله، هو وقوعه على محورٍ واحد مع قلعة حلب، إذ يمكنك مشاهدة ذراها البعيدة وقد انتصبت بحجارتها الجيرية خلف سطح منزله تماماً. ربما لو أوصلني العنوان المكتوب على الظرف إلى بوابة تلك القلعة، لشعرت بأن الحياة أكثر إنصافاً..

عدّلت هندامي، وشددت الحقيبة على كتفي، وتقدمت نحو الباب الحديدي الذي بدا بزرقته الشاحبة مثل سماءٍ ضيقة. لم يفاجئني طبعاً عدم وجود جرس للمنزل. طرقت الباب ثلاث طرقات مهذبة، وانتظرت، فلم يظهر أحد. أعدت الطرق المهذب مستعيناً هذه المرة بليرة معدنية، فلم تتغير

النتيجة، فتخليت عن تهذيبـي ورحت أضرب الباب بباطن كفي ضرباً مبرحاً، أمتعني وقعه الطفولي على قلبـي. لكنه قد كان أيضاً بلا جدوى. تلفّتُّ حولي لعل أحداً يمر فأسأله إن كان هناك من يعيش في هذا المنزل، فرأيت دكاناً صغيراً على الناصية المقابلة، وقف على بابه ولد صغير. كان يرمقني بشيء من الدهشة لم أفهم سببها. ذهبت إليه وحييته فلم يرد التحية، شأنه في هذا شأن الرجل الذي سألته عن مكان الصيدلية، فقلت لنفسي بعد أن تذكرت أن عبيل أيضاً لم يرد تحيتي في القطار، ربما كان رد التحية ضرباً من ضروب الرفاهية التي لم يعتدها أهل هذا الحي. "مو هاد بيت عبيل، حبيبـي؟" سألته متصنعاً الابتسامة البلهاء التي نبرع باستحضارها كلما تحدثنا إلى طفلٍ غريب. غير أنها لم تلبث أن تلاشت فور أن بدأت بتقريع نفسي على مناداته بحبيبـي بينما أتأمل وقفته المتحفزة وقد رماني بنظرة شرسة. "مين عبير؟" سألني محدقاً بحقيبتي. "مو عبير.. عبيل.. باللام" وسارعت بشتم نفسي على الـ (لام) التي استعنت بها للتوضيح، إذ لا بد وأن هذا الصبـي الذي يقف مثل كلبٍ شرس أمام دكانٍ في هذا الصباح البارد، بينما يفترض أن يكون الآن على مقاعد الدراسة الدافئة، لن يسره سماع اسم حرف أبجدي في مثل هذا التوقيت السيئ. "ما في بنات هون بهالاسم" أجاب بنبرةٍ متحدية، وقد بدا أن شرراً على وشك التطاير من عينيه. "لا، مو بنت.. شب" عاجلت برفع الالتباس الواقع، قبل أن يستل مشرطاً من جيبه الخلفي يمزق به وجهي ذوداً عن أعراض حارته. "شب؟" قال بشيء من الارتياح وقد انفكت عقدة حاجبيه أخيراً، وارتخى كتفاه، ثم خطا نحوي بهوادة كلبٍ اطمأن للعابر الغريب. "إي ما في شب بالحارة هيك اسمو" قال محدقاً بحقيبتي من جديد، فوضعت يدي عليها مخافة أن يباغتني بنشلها عن كتفي، وقلت بعد برهة من التفكير: "هو شب طويل كتير، ورفعت يدي إلى آخرها للدلالة على عظم طوله، بينما راحت عيناه الواسعتان تتبعانها بارتياع غريب، ثم انتفض فجأةً وركض إلى الدكان صارخاً: "عمو أبو إبراهيم.. عمو أبو إبراهيم.. في واحد بره عبيسأل عن سيبة" تبعت الصبـي إلى داخل الدكان، لاعناً هذه الاستهلالة غير المبشرة، فوجدت رجلاً خمسينياً يترنح بارتباك خلف منضدة البيع فاركاً عينيه، وقد بدا أن ذلك الجرو الخطير قد أيقظه شر إيقاظ من غفوته. "يعطيك العافية" قلت، منقلاً عينيّ باضطراب بينه وبين الصبـي المجنون الذي وقف متخصراً كمن ينتظر أن يلقنني عمو أبو إبراهيم درساً أستحقه. "الله يعافيك" قال متململاً. "خير؟ ليش عبتسأل عن المرحوم؟".

الفصل السادس عشر

"حمد الله ع السلامة! طمني، كيف كان الـ casting؟" قال خليل باشا بابتسامة قلقة، فور أن نزلت إلى مرسمه. كنت حينها رغم انقضاء يومين على عودتي من المقابلة، لم أزل مأخوذاً بكليّتي إلى هناك. ليس إلى دمشق التي أحببت وتمنيت لو أنني أضيع في زحامها إلى الأبد، ولا إلى قاسيون الذي رأيت في ذراه فردوس عزلتي السماوية، ولا حتى إلى مكتب السيد يوسف، ذلك الإنسان الحقيقي، الذي أنساني كل ما كان من السكرتيرة وعبد الهادي، وما انفك يدعوني بمولانا إلى أن كدت أصدق بأني صاحب المثنوي. لم أكن مأخوذاً إلى ذلك كله، بل كنت مأخوذاً إلى زمن بعيد..

"عماليق؟" سألت السيد يوسف في مكتبه يوم المقابلة، وقد اندفع الاسم في قلبي اندفاع طوفان عظيم، مبتلعاً بعبابه الهائج مدائن عزلتي المشيدة على مر السنين في ليالي البرد والخوف والبكاء. "إي، مو سمعان بالعماليق؟" قال مبتسماً بتعجب. أردت أن أقول "لا"، لكنها علقت في حلقي كتحشرج أولى الآهات بعد عذاب طويل. تطلع في عينيّ ملياً كمن يدقق في عينيّ طفل لقيط عرف منهما من يكون والده. "لحظة" قال فجأةً، وأخذ يقلّب بحماسةٍ بائنة أوراق ملف كبير وُضع على طاولة مكتبه، إلى أن عثر على الورقة المنشودة، فناولني إياها قائلاً: "تفضل، اقراها لبينما يوصل المخرج" أمسكتها بكلتا يديّ، مع اشتداد خفق قلبي، وقرأت:

"كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن قبائل العماليق كانت تتميز بشيء من الطول والجسامة، ويرى بعض المؤرخين الحديثين أن سكان الجزيرة العربية كانوا حتى عام 1600 قبل الهجرة ضخاماً، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولا يعمرون ما يعمر به أسلافهم. والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية ثم رحلوا وسكنوا مع

الأحفاد الآخرين لنوح في منطقة الرافدين ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً وخرجوا من العراق.

عاد العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا في أنحائها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة وبلغوا أطراف بلاد الشام.

كما قال الطبري بأن العماليق قوم عرب، لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربـي، وأن عمليق أول من تكلم العربية.

كما أن أسفار التوراة ذكرتهم عدة مرات وسمتهم باسمهم العماليق حيناً وباسم الجبارين حيناً آخر. وذكرت أسماء بعض زعمائهم ومدنهم العربية، فقد عاصروا دخول وخروج بني إسرائيل من وإلى مصر، واصطدموا معهم في معارك عدة بمنطقة سيناء بعد خروجهم من مصر.

وُصفوا في التوراة بأنهم أقوياء عظماء القامة <كمثل ارتفاع أغصان الأرز> (سفر التثنية)"[20].

أعدت الورقة إلى السيد يوسف، فقال وقد رأى ما رآه في عينيّ بينما كنت أقرأها: "فيك تحتفظ فيها. عندي منها نسخ تانية" فطويتها من فوري ودسستها برفقٍ في حقيبة الزاد، كجواز سفرٍ نفيس..

"طلع المخرج بريطاني" قلت لخليل باشا في شرود بينما أسير إلى لوحتي المعلقة على الحائط المقابل. "طبعاً بدو يكون بريطاني.. إشو كنت متوقعو يكون؟ سوري يعني؟" قال ضاحكاً. "بس أصلو باكستاني" غمغمت، وقد لفتني في اللوحة تفصيل جديد لم أكن قد رأيته من قبل. "هاي مو دبانة يللي بالسقف؟" سألته، فأجاب: "إي دبانة" ومشى إليّ ووقف خلف ظهري. كانت لوحتي هي اللوحة الوحيدة المعلقة في السرداب من بين كل لوحاته، إذ اعتاد الباشا أن يبقيها على حاملاتها الخشبية بعد انتهائه من رسمها، ويكتفي بأن يختار لكل واحدةٍ منها بقعةً ما من أرض سردابه الكهفيّ، يوقفها فيها. قال إنه يصنع غابته الشخصية، التي كلما سار فيها شعر بنفسه يسير في رحاب دماغه محاطاً ببنات أفكاره وأطياف خياله. غير أن لوحتي كانت لها ظروف عرضها الخاصة، والتي حالت دون أن تنضم إلى أشجاره اللونية.

إنك لو نظرت إلى حياتك عبر مجهر، لرأيتها تتألف من لحظات متراصة. وستبدو لك هذه اللحظات متشابهة إلى حد بعيد، لكنك إن قربت العدسة المكبرة أكثر فسيدهشك عِظم الاختلاف فيما بينها. إنه فعل التفاصيل الصغيرة..

أعد الصورة الآن إلى حجمها الطبيعي، سترى نقاطاً برّاقة هنا وهناك، تلمع كالنجوم في رقعة الحياة. تلك هي اللحظات المميزة. أمعن النظر جيداً في هذه النجمات، ستجد واحدةً وحيدة من بينها جميعاً، لها بريق يخطف سحرُه الألباب.. إنها اللحظة التي تحمل ذكرى أكثر اللحظات قداسةً في حياتك.

بالنسبة إلي، فإن نجمتي المقدسة تلك، كانت لحظة عرض هذه اللوحة. كان قد انقضى شهران على انتهائنا من ورشة الباشا، حين زارني المعلم أبو فادي بينما أشاهد التلفاز في عصر يوم بلا عمل. ظننته قد جاء كعادته لإعلامي باستلامه ورشةً جديدة، فتفاجأت به يخبرني بأن خليل باشا قد اتصل به وطلب منه أن يرسلني مساءً إلى ڤيلا الشهباء. "ما عرفت ليش بدو اياني؟" سألته بارتياب، فأجاب: "سألتو، وبهدلني.." ثم فكر قليلاً ناظراً إليّ بتوجُّس، وقال بنبرةٍ متوعدة: "لا تكون نسيان شي حيط بالقبو مالَك داهنو[21] ولك سيبة الهم!" فقلت ضاحكاً: "شي حيط فرد مرة؟! بعدين ما انتبه لهالحيط إلا هلأ؟" أنهى فنجان قهوته، وقال بينما ينهض ليغادر: "ع كل حال ضروري تروح لعندو اليوم، ما تنسى! وخبرني بس تطلع من هنيك إشو القصة".

حاولت أمي أن تثنيني عن الذهاب. "الزناگيل اولاد حرام أكتر من المخابرات" قالت.

استقبلني حارس الڤيلا، وقادني عبر الصالة الخالية من الأثاث إلى باب درج السرداب "خليل باشا مستنيك تحت" قال بينما يفتح الباب. أيعقل أن يكون الأمر متعلقاً حقاً بمشكلة في صبغ السرداب؟ فكرت بينما أنزل الدرج. لكن لو كان الأمر كذلك لما كتمه عن المعلم أبو فادي.. فما الذي يجعله إذن يختار سردابه تحديداً مكاناً للقائي لو لم يكن الأمر متعلقاً بالدهان؟

ما إن خطوت أولى خطواتي داخل السرداب حتى فهمت نصف المسألة. لقد حوّل السرداب إلى مرسم!

لم يكن في غابته حينها سوى بضع أشجار. مشيت بينها متأملاً إياها واحدةً تلو الأخرى. كانت اللوحات كلها شديدة الغرابة.. وشديدة الإتقان..

كانت إضاءة السرداب حينها غريبةً هي الأخرى، إذ عُلقت في سقفه مجموعة من المصابيح المسلطة على الأرض، مشكّلة بقعة مضيئة على شكل دائرة مطوّقة بجدار من العتمة، وتضم داخلها تلك اللوحات المنجزة.

"أهلين جلال" قال خليل باشا بينما ينبثق من جدار العتمة. صافحني من غير أن ينظر إليّ وقد بدا منشغلاً بأمر يُعدّه. وقف قبالتي، وثبتني بيديه ممسكاً بخاصرتي، وأخذ يوجهني يميناً وشمالاً وكأنه يعدّني لالتقاط صورة لي، ثم قال أخيراً: "تمام، خليك واقف هيك، وخليك عبتتطلع لقدامك، لا تلحقني بعيونك أبداً، ولا تتلفت لو إيش ما سمعت." ثم غاص في العتمة من جديد، لتنبعث بعد لحظات من مكان ما، بدا وكأنه خلف السماء، موسيقى حرائق نينوى التي لم أكن قد سمعتها من قبل، فاجتاحتني قشعريرة سرت في عروقي، وغاص قلبي في خدَرٍ سحيق.

بعد دقيقة ربما من انطلاق المعزوفة، ومع انفلات عويل الناي، أُشعِل مصباحٌ مسلط على الجدار المعتم أمامي، فرأيت نفسي في لوحة زيتية. اغرورقت عيناي بالدمع، إلى أن احتجبت صورتي خلف ستار من الغباش. مسحت عينيّ ومشيت نحو اللوحة كالماشي إلى داخله. كانت اللوحة مثبتة على الحائط على ارتفاع موازٍ لمستوى نظري تماماً، كما لو أنه قام بقياس طولي بدقة متناهية. كان قد ألبسني فيها قميصاً بلون التراب مطرزاً بخيوط من ذهب، وأوقفني تحت سقف أبيض، جاعلاً زاوية النظر إلي من منظور منخفض، أظنه يحاكي المنظور الذي رآني منه حين وقف أمامي في نهاية لقائنا السابق. لقد جعلني أبدو من تلك الزاوية كالصرح العظيم، وكأنه أراد أن يقول لي: هكذا يراك عظيماً، كل من يقترب منك.

"حبيت فكرة الدبانة.." قلت مبتسماً بخجل. أخبرته بعد ذلك عما جرى في مكتب الإنتاج، وكيف أن المخرج البريطاني اكتفى بأن يقول: "Perfect" حين رآني. ثم عبّرت له عن ارتياحي بأن المشاهد المطلوبة ستكون جميعها مشاهد صامتة، على أن يرافقها لاحقاً صوت تعليق بالإنكليزية. "وعن إيش طلع الفيلم؟" سألني وقد بدا له يقيناً أني وافقت على التمثيل فيه. كنت قد قررت ألا أخبر أحداً بأمر العماليق، ولا حتى خليل باشا، رغم يقيني بأن شخصاً مثقفاً مثله، لا بد وأن يكون قد سمع بهم، بل وربما كان قد تعمد عدم إخباري بأمرهم من قبل، لسبب لم أستطع التوصل إليه. لكنني وبرغم كل هذا، كنت قد أحسست بينما أقلب الأمر في رأسي مع ذبابة السقف بأن هذا هو سري العظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ أن يطلع عليه، وكأني أنا من اكتشف هؤلاء القوم، ولا

أحد سواي في هذه الدنيا قد علم بوجودهم في يوم من الأيام. "خليّا مفاجأة" أجبته بنبرة واثقة رأيت التعجب في عينيه إزاءها "إي إيش فيّا[22]! خليّا مفاجأة.." قال مبتسماً.

كان بين يوم المقابلة التي أجريتها وموعد بدء التصوير قرابة شهر. أمضيت جل لياليه ساهراً مع ذبابة السقف، أقرأ عليها وثيقتي السرية، لنتفكر معاً في ما جاء فيها من وصفٍ للعماليق وأحوالهم، متخيلين شكل ملابسهم وبيوتهم ومدائنهم. فأتمنى بحسرةٍ لو أني خلقت في زمانهم، بينما تكتفي هي بمواصلة التحديق إلى الزمان بعينيها المتحجرتين.

إلى ملاكي الطينيّ

تعاندنا الأماني، وكأنها تخشى خسارة تعلقنا بها إذا ما تحققت. فتظل متشبثةً باستحالتها، ونظل نحن، من فرط حاجتنا إليها، مُعلقين بها تعلُّق الأعمى بوقع عصاه.

في سنوات طفولتي، لم يكن اقتناء دراجة هوائية أو الذهاب إلى ملاهي العيد واحدة من أمنياتي كما بقية الأطفال. لقد كانت لديّ أمنيةٌ وحيدة: التخلص من وجهي..

كبرت، وكبرت أمنيتي معي لتصير التخلصَ من وجهي وجسدي معاً. إلى أن وجدت أشباهي، فتمنيت الرجوع آلاف السنين إلى الوراء، لكي أكون بينهم.

وها أنا الآن يا ملاكي، لم أزل أحمل وجهاً قبيحاً على جسدٍ بقامة وحش، ولم أبرح زماني. وبرغم هذا، ولأن وقع العصا يؤنس الأعمى الوحيد، ما زلت أكتب إليكِ..

عبيل

سوريا/حلب 11 نيسان 1986

الفصل السابع عشر

جلست بانتظار خلدون في المقهى الذي التقيته فيه ليلة أمس. لم أتوقع أن نلتقي من جديد بهذه السرعة، سوى أن الحديث عن غير المتوقع في هذا المقام يبدو غاية في السخف، وأنا الذي صُعقت منذ ساعة بالنبأ الذي ما كنت لأتوقعه في أغرب كوابيسي وأشدها حلكة.

أخرجت الظرف من معطفي، ورحت أتأمله كما لم أتأمله من قبل. سرعان ما تتبدل نظرتنا إلى الأشياء بعد موت صاحبها، وكأنها اكتست حين موته برداء جليل، كالذي يكسو القطع الأثرية وصروح الأمم البائدة. يصل ليد الآنسة شذا عمران.. لماذا استعاد رسائله منها؟ أتكون قد جرحته؟ هل كانت لتجرحه لو علمت بأن موته وشيك؟ هل تعلم الآن بأمر موته؟ ربما أكون آخر من يعلم بالأمر، فلست أدري متى مات، ولا حتى كيف مات. لقد طردني ذلك العجوز المجنون من دكانه دون أن يفسح لي التفوه بأي كلمة أو سؤال بشأن وفاته، وكأني قاتله.

"مات عبيل" قلت لخلدون دون مقدمات فور وصوله، كما لو كنت بأمسّ الحاجة إلى لفظ تلك العبارة مثلما يُبصق السم في هلع بعد اكتشاف تجرعه. "مين عبيل؟" تساءل متعجباً دون أن يُظهر التأثر المعتاد حين يتعلق الخبر بموت أحدهم. "الشب اللي جاي على حلب كرمالو" قلت وقد تذكرت أني لم أخبره باسمه في الجلسة الماضية. "أوف! كيف مات؟" قال بنفس البرود، وراح يبحث بعينين مرحتين عن النادل. ما الذي كنت أفكر فيه حين لم يخطر ببالي أحد في هذه الدنيا سوى هذا المخلوق؟ وبخت نفسي على اتصالي به وطلبِ لقائه فور مغادرتي حارة عبيل، وقد ذكرتني ردود فعله الآن بفتوره المقيت إزاء اتصالي الأول. ليتني اتصلت بسلمى!.. حدقت إلى عينيه طويلاً إلى أن بدا عليه الارتباك، فتلفت حوله متهرباً من سياط نظرتي، ونادى على النادل الذي ظهر

أخيراً، ثم رماني بنظرة مهزوزة أتبعها بسؤال خاطف: "اطلبلك قهوتك بركي[23] بتروق شوي؟" ثعلب الأمس المعتد بنفسه ها هو الآن يتكشّف عن أرنب رعديد فور أن بدت سوءة فقدان آدميته.

إن المشاعر الإنسانية على اختلاف دلالاتها من حزن وحقد وخوف وطمع ورحمة وشغف بل وحتى ضعف، إنما تمد صاحبها على الدوام بقوة خفية، هي قوة الشعور بآدميته. وهو الشعور الذي يكفل له الاطمئنان إلى أن هذه الدنيا قد خُلقت لأجله، وأنه سيد الكائنات فيها مهما أذاقته من مرها ومرغته في عذاباتها. وفي المقابل، فإن هذا الكائن المتسيد، كلما فقد جزءاً من آدميته وجد نفسه يفقد صكاً من صكوك استحقاقه لهذا السؤدد، حتى وإن أبدى ثقة زائفة في تعامله مع الناس. فهو في قرارة نفسه يدرك جيداً حجمه الطبيعي، كما يدرك أن صكوكه تلك لم تعد بين يديه، وأن خسارته السرية لها، ستغدو علنية في أية لحظة يهتز فيها القناع، إذ يكفي اهتزاز قناع أحدهم لكشف ارتدائه له، حتى وإن ظل وجهه الحقيقي مستتراً وراءه.

"ليكني عم بشرب قهوة" أجبته مومئاً إلى الفنجان أمامي، وقد شعرت فجأة أني أحدث شخصاً غاية في الضآلة تصعب رؤيته من وراء الفنجان. تنحنح معدلاً جلسته، فتخيلته يعدّل القناع المائل على وجهه. أطرق قليلاً كما لو أنه ينتظر اكتمال فراء الثعلب الذي أبهرني بقوته ومكره ليلة أمس، ثم رفع وجهه متطلعاً في عيني بنظرة ود لم أستطع تصديقها، وإن بدت شبيهة بنظراته الصادقة تلك، التي كانت تشف عن سريرة نقية محببة أيام الخدمة العسكرية. "ما قلتلي، كيف مات صاحبك؟" سألني بوقار أب قرر الاستماع أخيراً إلى أوجاع ابنه المراهق. نهضت بوقار أشد، وقلت دون أن أنظر إليه: "معليش اسمحلي، حاسس حالي تعبان ومو قادر احكي بالموضوع هلأ" ولأتجنب قيامه بأية محاولة لثنيي عن الانسحاب، أضفت: "رح حاكيك بأقرب وقت، بس لروق شوي" وتركته ومضيت.

شعرت ببعض الارتياح فور أن ابتعدت عن المقهى، وتكفل المطر الذي بدأ ينثال فوق رأسي ببقية المهمة.

ركبت سيارة أجرة بعد دقائق من المشي تحت دفق الماء، وعدت إلى البنسيون.

اتصلت بشقيقتي سلمى فور دخولي البنسيون. سألتني من فورها عن سر ارتعاش صوتي، فتذرعت بالبلل، ثم أخبرتها على عجالة بأني في حلب وأني اكتشفت اليوم أن الشخص الذي جئت

لإجراء حوارات معه بهدف كتابة رواية عنه قد مات قبل أن يتسنى لي لقاؤه. لم أحتج إلى قول أكثر من هذا لأسمع شهقتها، ثم صمتنا معاً. لطالما كان للصمت في أحاديثنا، أنا وسلمى، دورٌ في الإفصاح لا يقل أهمية عن دور الكلام. قالت أخيراً بصوت قوي: "جرب اجتمع بأهلو. ممكن تاخد منهم مادة أهم من يللي كنت متأمل تاخدها منو شخصياً" ثم صمتت من جديد فبقيت صامتاً، إذ أعلم أنها لم تقل بعد كل شيء. "ارتاح اليوم، وعطي لقلبك فسحة ليحزن عليه إذا كان بيعنيلك شي على المستوى الشخصي، وبعدها فكر بهدوء واتخذ قرارك، يا اما بتستمر بهالمشروع، أو بتنطلق لمشروع جديد" ثم قالت بعد أن تنهدت: "هشام.. مبسوطة كتير إنك قررت أخيراً تتوجه للكتابة" هنا علمت أنها انتهت، فودعتها، وصعدت إلى الغرفة.

كثيراً ما حسدت نفسي على وجود سلمى، وكثيراً ما فزعت كلما تخيلت كم ستكون حياتي بائسة من دونها. إنها بئري التي كلما ظمئتُ سرت إليها، وكلما أضعت ملامحي، نظرت إلى انعكاس صورتي على صفحة مائها النقي.

أشعلت حطب المدفأة، وتخلصت من ثيابي المبللة، ودسست نفسي تحت اللحاف، مستسلماً لموجات الارتجاف المتقطعة التي أخذت تتناوب على جسدي، وكأنها تريد أن تبقيني مستيقظاً، لغاية في دماغي لم أستطع إدراكها. بدأت صور عبيل تجتاح مخيلتي مع كل نوبة ارتجاف. صورته وهو يراقب الدنيا، التي سيرحل عنها عما قليل، من خلف نافذة القطار. صورته وهو يومئ لي، إلى حيث وقفت تلك المرأة الوضيعة مع ابنها على باب الكبينة، ويقول بلا اكتراث: بإمكانك أن تكتب عن هذا. صورته وهو يستعيد حزمة الرسائل بانكسار في المحطة، ثم يمضي مهرولاً بين الحشود مثل غوريلا أثخنتها بنادق المستكشفين. ثم صورته أخيراً جثةً لها وجهٌ حزينٌ شاحب، سُجيت على نعش بطول سفينةٍ يحمله عشرة رجال، أراهم من عين السماء عشرة حطابين قساة، ينشدون أغنيةً قديمة، حملوا على أكتافهم شجرة دلبة عملاقة اقتلعت من جذورها الأزلية.

أغمضت عينيّ مع اختلاج أول دمعة، واستسلمت لبكاءٍ مرير، إلى أن غفوت.

استيقظت بعد قرابة ساعتين، بذهنٍ كامل الصفاء، وجسدٍ لفه الدفءُ وزال عنه الارتعاش.

كنت قد رأيت أحلاماً مشوشة، حاولت تذكرها بينما أتطلع إلى النافذة التي شفّت عن سماء رمادية تشبه جداراً خرسانياً وقف بكآبة خلف المباني بعد توقف المطر. لم أستطع تذكر شيء من

تلك الأحلام سوى بضع مشاهد هلامية تضم عبيل وشقيقتي سلمى وربما خلدون. غير أني وجدت ذاكرتي لم تزل محتفظة بكل ثبات بتلك الصور التي رأيتها لعبيل قُبيل نومي، فأخذت أقلّبها من جديد، محاولاً العثور فيها على شيء لم أكن أعلم ماهيته، إلى أن تذكرت فجأةً ما قاله فرويد في كتابه تفسير الأحلام حول اختيار الذكريات. إذ رأى أن أسلوب اختيار الذكريات في الأحلام يختلف عنه في اليقظة؛ فالعقل الباطن لا يذكرنا في الحلم بالأحداث الكبرى، وإنما يتذكر التوافه وحسب. إذن، فربما كان عقلي الباطن، حين كان يحاول إبقائي مستيقظاً بتلك الصدمات الارتعاشية، إنما كان يحاول جاهداً أن أستذكر هذه الصور خلال يقظتي، لأن فيها تفصيلاً مهماً، ما كان سيقدر على أن يريني إياه في نومي المخصص - بحسب فرويد - لاستعراض التفاصيل غير الضرورية. لكن ماذا عساه أن يكون ذلك التفصيل المهم؟

ارتديت ثيابـي سريعاً، ومضيت إلى مقهى في الجوار قادتني إليه طُرقة ضيقة قديمة، أظنها تعود إلى عهد سيف الدولة الحمداني، رُصفت بحجارة البازلت التي بدت كالرقع الجلدية اللامعة شديدة السواد وقد تشبعت بماء المطر.

أخيراً، موشحات حلبية في حلب! حدثت نفسي حين جلست وقد حبا إلى مسمعي صوت صبري مدلل منشداً موشح يا فاتن الغزلان. رجوت أن يكون الشريط بأكمله للشيخ صبري، فلطالما غشيني صوته بدثار من السكينة الحميمة التي ما كنت لأرجو غيرها في تلك الخلوة التأملية. وُضع فنجان القهوة أمامي، فأشعلت سيجارة، وبدأت باستعادة صور الارتجاف من جديد، صورةً إثر صورة، مفتشاً في كل واحدة منها عن أي تفصيل مهم، إلى أن فرغت منها جميعاً دون أن أفلح في العثور على أي شيء. تلفت حولي وقد بدأ الضيق يتسلل إلى قلبـي، إذ أخذت تساورني الشكوك حول عقلانية الفكرة برمتها. أعني فكرة البحث بين تلك الصور الهذيانية عن شيءٍ ما، أراد عقلي الباطن أو قوة خفية أن أراه. كان المقهى شبه خاو في تلك الساعة من بعد منتصف الظهيرة، إذ لم يكن فيه سواي، بالإضافة إلى شيخين طاعنين ألقيا وجهيهما فوق طاولة الزهر بوجوم لاعب الشطرنج. وعلى غير المألوف في هذه اللعبة التي يكثر عادةً صخب لاعبيها وصراخهم المحتدم، لم يكن يُسمع من ذينك المحاربيْن الهرميْن سوى قرقعة النرد على المضمار الخشبـي، وانزلاق الأقراص الملساء ورصها بعضها فوق بعض بين حين وآخر. إن بعض الناس إذا هرموا فرّت منهم عقولهم، وحدهم الحكماء من يبادرون إلى التخفف من كل شيء من شأنه إن يُذهب العقل قبل فوات الأوان. ويبدو أن

هذين الحكيمين قد تخففا بشكل نهائي، من هوس الانتصار بالمعارك الزائفة، بعد أن أدركا أن المعارك الحقيقية هي تلك التي يخوضها المرء مع نفسه وحسب.

انتقل الكاسيت إلى ابتهال "زدني بفرط الحب"، فقلت في نفسي يبدو أن الذي جمع أعمال الشيخ صبري في هذا الشريط قد ظن قصيدة ابن الفارض هذه قصيدة غزلية، فوضعها جنباً إلى جنب مع الموشحات والقدود الحلبية. غير أن ما أثار تعجبي حقاً هو هذه الصدفة الغريبة، إذ جاءت تلك القصيدة الصوفية لحظة قنوطي من جدوى تقليب صور عبيل في ذاكرتي، وهو الذي كان قد ألقى فؤادي ليلة أمس في صبابة حضرةٍ صوفية.

زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّراً

وارحمْ حشًى بلظى هواكَ تسعَّرا

وإذا سألتكَ أنْ أراكَ حقيقةً

فاسمَحْ، ولا تجعلْ جوابي: لن تَرَى

يا قلبُ! أنتَ وعدتَني في حُبّهمْ

صبراً فحاذرْ أنْ تضيقَ وتضجرا

إنّ الغَرامَ هوَ الحَياة فَمُتْ بِهِ

صَبّاً فحقّكَ أن تَموتَ وتُعذَرَا

ولقدْ خلوتُ معَ الحبيبِ وبيننا

سِرٌّ أرَقّ مِنَ النّسيمِ إذا سرَى

وأباحَ طرفي نظرةً أمَّلتها

فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكَّراً

فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكَّرا! أيعقل أن يكون هذا هو ما كنت أبحث عنه؟

الفصل الثامن عشر

أتى موعد الالتحاق ببعثة الفيلم. كان عليّ الحضور في شركة الإنتاج في الشام قبل الخامسة مساءً، على أن أبيت ليلةً على حسابهم في فندق هناك، ومن ثم يأخذوننا إلى صحراء تدمر، حيث ستُصور المشاهد التي سأشارك فيها. هذا ما شرحه السيد يوسف يوم المقابلة.. لقد قال بأنهم (سيأخذوننا) إلى هناك، ولم أفهم تماماً من هم الذين سيُأخذون معي. هل عثروا على عمالقة غيري؟ تساءلت يومها في طريق عودتي إلى حلب بينما أستعيد في ذاكرتي حديثه ذاك، فتخيلت نفسي جالساً في مقطورة شاحنة كبيرة رفقة مجموعة من العمالقة، يتأمل أحدنا الآخر بكثير من الذهول، كما لو أن كل واحد منا كان يظن نفسه الوحيد في هذه الدنيا من بني جنسه. لم أستطع الإمساك بشعوري الحقيقي إزاء هذا الموقف لو وقع فعلاً.. هل سيمنحني وجودي بين أشباهي شعوراً بالأمان والقوة، أم أنهم سيكونون لي مجرد مرايا خانقة، لا تنفك تذكرني بهيئتي كلما وقعت عيناي على إحداها؟ لو أنني خُلقت في زمن العماليق لاختلف الأمر بكل تأكيد، فحينها ما كنت لأشعر بشذوذ هيئتي وأنا لا أرى حولي سوى أشباهي. إن مأساتي الحقيقية لا تكمن في هيئتي بحد ذاتها، بل في وجودي بين كل أولئك الأسوياء الذين أضفى وجودهم على هيئتي صفة الشذوذ.

وقفت أمي ورائي كعادتها بينما أهيئ نفسي أمام المرآة. لم تُلقِ هذه المرة أية ملاحظة حول قصر بنطالي أو لونه أو أي من التفاصيل التي تشاغل بها نفسها عن فكرة ابتعادي عنها. بل إنني لمحت في عينيها تلك السعادة البراقة التي اعتادت أن تخبئها تحت جفنيها الذابلين، كآنية فضية مسروقة من موائد الأثرياء. "ناوي تدخّل صاحبك الزنگيل ع البيت؟" سألتني بينما نحن جالسان في انتظار خليل باشا، الذي تكفل بتوصيلي بسيارته إلى مكتب الإنتاج. أربكني سؤالها، إذ تلقيته على هيئة اختبار لا أعلم أي الإجابتين ستمنحني العلامة الكاملة في سلم التصحيح الذي وضعه عقلها

العصي على الاختراق. "ما بتفرق معي. إذا بتحبـي تتعرفي عليه بعزمو ع فنجان قهوة يشربو قبل ما نتيسّر" قلت، مسترقاً النظر كل قليل إلى عينيها كمن يغش في الامتحان. "إي خليه يدخل" قالت، ثم أردفت وهي تسحب خيطاً تنسّل من مفرش الطاولة: "مبيّن عليه ابن حلال، وبيحبك" هززت رأسي موافقاً على حقيقة حبه لي، أما كونه ابن حلال، فهذا ما لا أستطيع نفيه أو تأكيده، إذ لا أعرف المعيار الذي بموجبه يتم منح هذه الصفة أو حجبها. بل إن الذي يحيرني أكثر في هذه المسألة هو ما إذا كان يتوجب على من يمنح غيره هذه الصفة أن يكون هو نفسه ابن حلال. فإن كان الأمر كذلك، فكيف لهذا الشخص أن يعلم بتصنيفه؟ هل عليه أن ينتظر شهادة غيره؟ وهل على غيره هذا أن ينتظر بدوره ابتداءً شهادةً من غيره؟ لو أن الأمر يسير بهذا الشكل التراتبـي فسنجد أنفسنا في نهاية اقتفائنا العكسي لشجرة مانحي الصكوك أمام شخص واحد، كان هو أول من منح غيره صك (ابن الحلال) من غير أن يحصل هو نفسه على صك من أحد.. أي أننا سنكون أمام الشخص الوحيد الذي كسر القاعدة.. التي ابتدعها بنفسه!

في الزمن الذي تزوجت فيه أمي، كان الريف معرض العرائس الذي يقصده (أبناء الحلال) من فقراء المدينة، لانتقاء عروس زهيدة المهر، من دون حاجة العريس لامتلاك أبسط المؤهلات أو تقديم أي من الضمانات التي كانت ستُطلب منه في المدينة. "سألوا عنو، قالوا ابن حلال.." قالت أمي باكيةً بغير دموع حين تلقت ورقة الطلاق من أبـي بعد طول سنين من الهجر. ربما كانت الحياة في المدينة هي حلم كل فتاةٍ في الريف. غير أن أقبح الكوابيس وأشدها رعباً، هي تلك التي تبدأ على هيئة حلم جميل.

كان والدي الذي تأخر في الزواج أصغر أخوته، فلم أدرك جدي في حياته، بينما توفيت جدتي وأنا في الرابعة من عمري، لذا لا أعلم إن كنت قد رأيتها هي الأخرى. أما الأعمام والعمات فلم أرهم سوى في مناسباتٍ نادرة، قبل أن يبتلعهم العدم بسفر أخيهم. أما أهل أمي، فكان جدي وجدتي يأتيان من القرية لزيارة بكرهما كلما سمحت الظروف. فكنت كلما دخلا علينا ألوذ إلى شجرة الزيتون العجوز خلف المنزل، والتي لم تكن ترميني بنظرة الإشفاق التي كانا يرمياننني بها بعيونهما الذاوية. بينما واظب الخالان على زيارة أختهما في الأعياد، مصطحبين زوجيهما والصغار الذين كانت رؤيتي تفسد ابتهاج بعضهم بالعيد، وتسر بعضهم أكثر من المراجيح.

وصل (ابن الحلال) خليل باشا، فألححت عليه بالدخول لتناول القهوة والتعرف إلى أمي قبل أن ننطلق. كان لقاؤهما غريباً، يشبه المواجهة الأولى بين إله الفقر وإله الثراء.

"قلّي جلال إنك بتبيع قماش" قالت له أمي بأنفة من يتحقق من مهنة بائعٍ جوال. "بتاجر بالأقمشة.." أجابها مصححاً بفم متشنج. "إي يعني بتبيع قماش!" ردت بنبرة حاسمة، فغمغم محدقاً إلى عينيها الذابلتين: "إي متل ما بدك! ببيع قماش!" واجترح ابتسامة ساخرة من بين أسنانه المصطكة. ثم صمتا معاً، وكأن كل واحد منهما يشحذ سلاحه للجولة الثانية من النزال. "كيف رضاكِ عن جلال؟" سألها بعد أن مزَّ رشفة من فنجانه، فترددت قبل أن تجيب، وكأنها تقلّب السؤال بيدين حذرتين للتحقق من خلوه من لغمٍ خبيث. "الله يرضى عليه.. جلال ما في منو" أجابت متطلعةً إليّ بيقظة الحارس الشخصي. "إي صح.. ما في منو جلال.." قال، فانقضّت عليه بعينيها مفتشةً في وجهه عن أية إشارة سخرية، إذ يبدو بأنها اشتمت رائحة تلميح إلى غرابة هيئتي، لكنها سرعان ما ارتاحت حين رأت ما أراه دائماً كلما التقت عيناي بعينيه البحيرتين. "الله يطعمك أحسن منو" قالت بإشفاق بعد أن تنهدت، وقد رأت في عينيه صدق محبته لي. هز رأسه شاكراً، وقال مبتسماً بإباء: "لو بدّو يطعمني كان طعمني من زمان..".

على عكس ما فعل الأستاذ عبد الهادي، حرص الباشا على السير بجانبي في طريقنا إلى سيارته. لقد كان السير برفقته بالنسبة إليّ وسط أهل الحي أدعى للتباهي من أن يروا سيارته الحديثة التي سأركبها بعد قليل. كانت العيون تتابعنا بدهشة لا تخلو من الإعجاب برفيقي الذي بدا بينهم كصورة لامعة ملونة في ألبوم صور بالية طُبعت بالأبيض والأسود. كم سررت بنظراتهم تلك! غير أن الذي أنشاني حقاً هو ما لمسته حينها في الباشا نفسه.. لقد كان مزهواً بمرافقتي أمام الناس، وكأنه برفقة ملك!

انطلقنا إلى الشام إذن؛ أذناي مع الباشا خلال الطريق، وقلبي مع العماليق وعالمهم الذي سيشيده لي خيال مستر جاويد في صحراء تدمر.

كنت قد سألت الباشا خلال شهر الانتظار أن يعيرني كتاباً يتحدث عن صناعة الأفلام الوثائقية، فأعطاني كتاباً يتحدث عن فن المسرح. "هاد هو الكتاب الوحيد من بين كل كتبي يللي بيحكي عن هالنوع من الفنون" قال بينما يسحبه عن الرف، ثم أردف بينما يتصفحه: "يمكن صناعة الأفلام أعقد شوي من صناعة المسرحيات، بس اتنيناتون قائمين على الجمع بين مختلف الفنون، سواء المكانية البصرية أو الزمنية السمعية" ثم أغلق الكتاب ومده إلي قائلاً: "جرِّب اقراه. الدكتور

عمر الدسوقي من أهم يللي كتبوا عن هالفن، وأكيد رح يساعدك بأخد فكرة عن يللي رح يكون مطلوب منك وقت التصوير" لقد ظن الباشا بأنني إنما أردت تهيئة نفسي لما ينتظرني من مهام، بينما كنت في حقيقة الأمر أودُّ أخذ فكرة، ولو تقريبية، عن عدد الأشخاص الذين ستتحتم عليّ مواجهتهم خلال أيام التصوير.

ألمَّ بـي فجأةً مغصٌ شديد، ربما لفرط اضطرابـي ما بين حماسةٍ وخوف، فسألت الباشا التوقف فور أن بلغنا استراحة حمص، كي أدخل الحمام.

لقد وقع كل شيءٍ في غمضة عين، لكن بدت إغماضةً أبديةً شديدة العتمة، كما الموت..

كانت حجرات المراحيض صغيرةً شديدة القذارة. تفقدتها واحدةً تلو الأخرى باحثاً عن مرحاض افرنجي، لكنها كانت جميعاً مراحيض عربية. وهي مراحيض لا يمكنني التعامل معها، إذ لا أستطيع جلوس القرفصاء. بل إنني أجد صعوبة كبيرة حتى في استخدام المراحيض الافرنجية بسبب انخفاض مقاعدها قياساً بطولي. لذا ستجد في حوش منزلنا حجرة مرحاض خاصة بـي، تحتوي على مقعد مرحاض افرنجي مرتفع صُنع لأجلي. وجدت نفسي إذن أمام ورطة كبيرة، إذ لم يعد بوسعي الصمود كثيراً دون دخول الحمام، وفي الوقت نفسه لن أستطيع بأي شكل من الأشكال قضاء حاجتي على المرحاض العربـي. أذعنت أخيراً ودخلت، أنزلت بنطالي وسروالي الداخلي حتى أسفل ساقيّ، وجلست القرفصاء بعد كثير من العناء، مستنداً بيديّ على الحائطين عن يميني وشمالي لموازنة جسدي. كان الإسهال شديداً. ربما لو تأخرت بضع ثوان لتغوطت في سروالي. فكرت بهلع. وبينما أرسم في دماغي خطة تحرير إحدى يديّ لاستخدامها في الإمساك بخرطوم الماء للتشطف، حطت ذبابة على جفني. هززت رأسي لطردها فلم تستجب. هززته بعنفٍ أشد، فتحركت قليلاً دون أن تبدي أية نية بالتخلي عن هضبتها المحتلة. ثم بدأت بالزحف متجاوزة رموشي حتى شعرت بأنها ستقتحم عيني لا محالة. فأطلقت يدي اليمنى بلا وعي وهششتها بعنف من يصفع حياته القذرة بعد صبر عمر بأكمله، فاختل توازني.. وهويت إلى الوراء.

ظهري مُسجّىً على حفرة المرحاض الغارقة بالأقذار. ذراعاي مرتميتان على جنبيّ باستسلام قتيل. ساقاي معلّقتان في الهواء كعود مشنقة تهادى وسط ريح عاتية، تحملهما مؤخرتي العارية الملطخة بخرائي. أما الذبابة التي كانت رفيقة عزلتي طوال تلك السنين، ها هي الآن، بعد ما

فعلته بـي، جاثمةٌ على أنفي مثل شيطانٍ جسيم. أشعر باهتزازها المضطرد وكأنها تحاول كتم ضحكةٍ مجلجلة.

استسلمت أخيراً لغدرها وضعفي وعجزي عن النهوض، وأغمضت عينيّ بانكسار مهيض، وغرقت في بكاءٍ مرير، كما تبكي امرأةٌ مغتصبة..

إلى ملاكي الطينيّ

حين ترغمني المرايا على تذكُّر هيئتي، فهي تشعرني بعجزي. وكل ضوءٍ يلوح لي في الليل، أيضاً، يشعرني بعجزي، إذ لا أراه سوى يدٍ مُدَّت إليّ عنوةً لتجرّني إلى النهار من جديد. وكذلك الظل الذي يُلقيه ضوء الليل غصباً بجانبي وقد تحملت التصاقه بي طول النهار. إن عودته إليّ دونما استئذان كلما سمحت ظروف الضوء، أيضاً، تذكرني بعجزي.

لا شيء مثل العجز يخنقني. لذا فإني، يا ملاكي، لا أطيق ظلي، ولا أطمئن سوى لعتمةٍ كاملة، وكلما دخلتُ مرآةً سارعتُ إلى مغادرتها..

عبيل

سوريا/حلب 27 حزيران 1986

الفصل التاسع عشر

يقول إيمانويل كانط: "ما الموت إلا القناع الذي يخفي نشاطاً أكثر عمقاً وأقوى مغزىً.. إن ما يسمى بالموت لا يمكن أن يقطع عملي، لأن عملي ينبغي أن يُنجز. ولأنه يتعين عليّ أن أقوم بمهمتي، فليس هناك حد لحياتي.. إنني خالد!".

بحسب فهمي، فإن كانط إنما أراد القول هنا بأن الإنسان هو عمله، والأعمال لا يمكن للموت أن يطالها؛ فقد تُنسى، وقد لا تتم فتبقى أعمالاً ناقصة إلى الأبد، لكنها لا تموت أبداً بموت صاحبها. وأظن بأن كانط أيضاً إذ جزم هنا بأن عمله ينبغي له أن ينجز، فإنه لم يقصد الأعمال بعموميتها، بل عنى أعماله هو؛ الأعمال الفكرية على وجه الخصوص، ليقينه بأن أياً من هذه الأعمال غير المنجزة، سيأتي مِن بعده مَن ينجزها.

لكن ماذا عن عبيل؟ فكرت. هل ترك وراءه عملاً غير منجز؟ أيكون في سماعي لقصيدة ابن الفارض في هذا التوقيت رسالة إليّ من عمله غير المنجز الذي لم يمت بموت صاحبه؟ إن أول خاطرة تبادرت إلى ذهني فور أن سمعت "فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكَّرا" هو أن عبيل ربما أراد أن يصير معروفاً لدى الناس بعد أن أمضى حياته على ما يبدو مجرد نكرة لا يعرفه سوى من كانوا حوله، بالإضافة إلى شذا عمران. لكن ما جعلني متردداً إزاء هذا الافتراض إلى حد بعيد، هو عدم اكتراثه بل ورفضه الصريح لإجراء الحوار الذي كنت قد عرضته عليه في القطار قبل بضعة شهور. فلو كان مهتماً بالشهرة حقاً لما تردد في قبول ذلك العرض، بل لو كان يهمه فعلاً أن يغدو معروفاً لدى الناس لغدا كذلك منذ زمن بعيد، إذ يستحيل أن أكون أنا أول صحفي يصادفه، أو يحاول إجراء حوار معه. لكن أظنكم ستوافقونني الرأي إن قلت لكم بأنه يتوجب عليّ هنا ألا أغفل واقعةً مهمة، تُبقي على بعض الحظوظ في فرضية رغبته بالاشتهار، وهي أنه بعد رفضه لإجراء الحوار

أو حتى التحدث إلي، لم يلبث أن رجع عن تعنته، بل وبادر بإعطائي تلك الرسائل. صحيح أنه لم يلبث أن تراجع أيضاً عن هذا القرار وقام باستعادتها في المحطة على ذلك النحو الغريب، لكن هذا التردد لا ينفي اعتمال رغبةٍ ما في صدره. فإن لم تكن رغبةً في اشتهاره الشخصي لربما كانت رغبة بإشهار قصته مع شذا عمران على وجه الخصوص، أو لنقل: إيصال تلك القصة إلى الناس، والتي يبدو بأنها قصة حب من التي يطيب للعشاق سماعها، وإن كنت قد لمست فيها غموضاً لا يقل عن غموض شخصيته.

يقول أندريه موروا: "ندين للعصور الوسطى بأسوأ اختراعين في تاريخ البشرية: الحب الرومانسي والبارود" ويبدو لي إن صدق تخميني في وجود قصة حب، فإنها ستكون قد اجتمعت على الحب الرومانسي والبارود معاً، فأي بارود عساه أن يكون أشد انفجاراً من بارود الأسى الذي لمحته في فوهتي عينيه، بينما كان عائداً على ما يبدو من لقائها؟

هبّت في أذنيّ تقاسيم قانون انتشلتني من أفكاري وحملتني على ظهر مركبٍ قديم، قِدَم البحر. فأغمضت عينيّ مستسلماً لتهاديه الركين..

رأيت عبيل رابضاً بجسده الهائل بين الشيخين لاعبي النرد، حانياً ظهره الأحدب كالقبة العالية فوق رأسيهما الأشيبين، تتراقص أصابعه الماردة على أوتار القانون التي نبتت لطاولة الزهر، وكلما اهتز وتر، تطايرت عنه العصافير الصغيرة تطايرها عن أسلاك الكهرباء، إلى أن تشكلت فوق رأس عبيل غيمة سوداء جليلة من مئات العصافير، تتهادى تحتها سحابتان بيضاوان تهادي القناديل المعلقة، وقد أتى من البعيد هزيز ريح محملة بالتلاييل:

يا ليلي يا ليلي يا ليلي يا ليل..

فتحت عينيّ، وتطلعت إلى الكهلين، كان رأساهما الأبيضان يتهاديان فوق طاولة الزهر مع تلييلات الشيخ صبري، إلى أن أنشأ يشدو:

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيب

فكانا هلالَينِ عند النَّظر

فلم أدرِ من حيرتي فيهما

هلالَ الدجى مِن هلال البشر

ولولا التورُّدُ في الوجنتين

وما راعني من سواد الشَّعَر

لكُنتُ أظن الهلالَ الحبيبَ

وكنتُ أظن الحبيب القمر

أتراها تشبه القمر هي الأخرى، أم أنها تشبهه؟ تساءلت، محاولاً تخيل وجه شذا، حبيبة عبيل، لتعود بـي الأفكار من جديد إلى عمله غير المنجز. ماذا عساه أن يكون هذا العمل المرتبط بقصة الحب والبارود المتوقعة، والذي بوسعي أن أنجزه نيابةً عنه؟ أيكون قد كتب تلك القصة ولم يمهله الموت لنشرها؟ أم أنه يريد مني أن أكتبها بنفسي بعد أن أتمكن من قراءة بقية الرسائل؟

غادرت المقهى وسرت إلى البنسيون تحت هزيم الرعد، وقد حثثت الخطو قبل أن يدركني المطر. ما إن عبرت الباب إلى البهو حتى رنّت في أذنيّ ضحكة أنثوية مغرية لها وقع الحفيف في غابة زجاجية. إنها صوفيا لورين من جديد! كانت جالسةً على الكنبة المتهمة بالاتساخ، وقد أمالت رأسها نحو الرجل الذي جلس على الكنبة المجاورة، مسترسلاً في همسه، في سعيٍ محموم إلى قطف المزيد من ثمار ضحكاتها المُسكرة. لقد كان ذلك الرجل هو خلدون!

سحب رأسه من تحت فيئها، والتفت بحدّةٍ نحو الصعلوك الدخيل الذي أجفل بطلة فيلم الكاوبوي باقتحامه باب الحانة ذي الدرفتين المتأرجحتين. "هشام!" قال دهِشاً بينما ينهض، وكأني آخر شخص توقع رؤيته، رغم أن جلوسه هناك إنما كان أصلاً بغرض انتظاري. أطرقت غير مدركٍ ما الذي عليّ قوله، أأسأله بفظاظة عن سبب مجيئه الذي أزعجني حقاً، أم أتظاهر بسعادتي

بهذه المفاجأة السارة لأجنبه الحرج أمام صوفيا؟ إذ يبدو بأنه قد بذل قسطاً من الجهد فوق وسامته لبلوغ هذه الحظوة لديها.

"صديقي هشام الأسعد، صحفي من الشام" قال بارتباك ليعرفنا ببعضنا، وقبل أن يستأنف التعريف بنطق اسمها قاطعته: "طرطوس" كنت لم أزل مطرقاً، لكنني استطعت أن أرى بوضوح امتقاع وجهه دون حاجتي إلى رؤيته. ظل صامتاً لبرهة وكأنه يبحث عن مخرج يليق ببطل الفيلم، ثم ضحك قائلاً: "إي هو طبعاً من طرطوس، بس يعني قصدي إنو عايش بالشام" هنا تدخلت صوفيا لتجنبه المزيد من الحرج الذي يبدو بأنها استشعرت أنني أوشك على إمطاره به، فقالت بصوتٍ فيه بحة محببة، لا تشبه ضحكتها الزجاجية المصقولة: "إي هن الصحفيين بيحبو الدقة" نظرت إليها، فتجاهلتني وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتها، ثم قالت بعد أن نفثت الدخان فوق كتفها، راسمةً بشفتيها المكتنزتين ابتسامةً ساخرة: "بدك تنتبه منيح بلا ما يلقط عليك كم خطأ مطبعي كمان" وأرسلت ضحكةً مصطنعة، لم يجرؤ خلدون على مجاراتها، فظل ساكناً كحال موظف الاستقبال الذي يبدو أنه اعتاد مراقبة النزلاء عند جلوسهم في البهو، بإنصات من جلس أمام شاشة السينما. أطرقت لبرهة، ثم رفعت وجهي بأناة ونظرت في عينيها. كم سيسر أمي أن ترسم هذا الوجه، بل أن تنحته بكل عظامه وغوايته! حدثت نفسي وقد أنستني فتنة وجهها ما كنت بصدد قوله لتلقينها درساً إزاء سخريتها. ظلت محدقةً إلى عينيّ بشراسة مقاتلة بدائية، وكأنها تقول لي: إياك والتفوه بأية حماقة أخرى، سواء بحقي أو بحق صديقك الظريف. لا أعلم إن كنت قد رضخت تحت وطأة التهديد أم أمام فتنتها، غير أني رضخت بكل تأكيد، وقلت لها باستسلام نهائي مجترحاً نصف ابتسامة: "لا أبداً، مو قصة دقة وتنقيح.." واكتفيت بهذا القدر من التوضيح غير المكتمل، إذ استشعرت فجأةً أن كبريائي في خطر. "معليش اعذريني، ذهني مشتت شوي" غمغمت، ومددت لها كفي بعد برهة من الصمت "يللا بالإذن.. وفرصة سعيدة" ثم التفتُّ إلى خلدون دون أن أنظر إلى وجهه، وأخبرته بأني سأكون بانتظاره في الغرفة 12 متى رغب في لحاقي، وطلبت مفتاحي من الموظف، وصعدت حاملاً في رأسي أصداء ضحكتها: لو أن عبيل لم يزل على قيد الحياة، لربما كان برفقتي حين دخلت عليهما بينما تطلق ضحكتها الزجاجية تلك. ولتكسّرت إلى ألف شظيةٍ صمّاء حال رؤيته بلا شك.

كنت قد حضرت ندوةً قبل عامين في معهد گوته[24]. كانت الندوة عن الفلسفة الوجودية عند مارتن هايدگر، فأتى المحاضر على ذكر مثالٍ كان قد ضربه هايدگر في كتابه الكينونة والزمان. يتحدث المثال عن عاملٍ بيده مطرقة، وكيف أنه كلما كان العامل أكثر حرفيةً قلّ وعيه بالمطرقة،

وكأنها امتدادٌ ليده. وفي اللحظة التي يبدأ فيها العامل بالتفكير في المطرقة باعتبارها شيئاً، يقع خلل في نفسه فيمنعه من العمل بطريقة صحيحة، وتضيع كينونة المطرقة.

وفقاً لهذا الفهم، يبدو بأن خلدون قد أخرج وسامته من دائرة وعيه منذ زمن بعيد، حتى غدا بمهارة ذلك العامل المحترف. بينما مطرقة مسخ عبيل لم تكتفِ بالتشبث بكينونتها وحسب. بل كانت، بلا شك، متشبثةً أيضاً بعلّة وجودها الغائيّة: الطرق بلا هوادة..

لم تمضِ سوى عشر دقائق على دخولي الغرفة إلا وكان خلدون لدى الباب. رفض الدخول، واكتفى بمد عنقه من فوق كتفي لتفحص أثاث الغرفة وتبيُّن مستواها، ثم أصر على اصطحابي إلى مكان (أحسن من هالمكان) سيكون من شأنه أن يزيل الهم عن صدري. لم يكن صدري آنذاك مهموماً بقدر ما كان ذهني مشتت الأفكار، لكنني لم أشأ أن أخبره بهذا لكي لا أجد نفسي مضطراً بعدها إلى مشاركته بتلك الأفكار، إذا ما تظاهر بالاهتمام بسماعها. "يللا ضبضب أغراضك، رح استناك تحت" قال بنبرةٍ آمرة، لم أنكرها عليه، بل تقبلتها كما يتقبل الولد المطيع أوامر والده.

إن لمن عجائب النفس البشرية، أن تكون أكثر الأفعال تجاهنا تقبلاً بالنسبة إلينا هي تلك الأفعال الفجة غير المتوقعة. فإنك إن تفاجأت، مثلاً، بقيام أحدهم بصفع وجهك دونما مقدمات، ستجد نفسك قد تنازلت بشكل غريب عن أي رد فعل كان سيصدر عنك بلا ريب لو أن هذه الصفعة كانت متوقعة. إنني لا أتحدث هنا عن عنصر المفاجأة في شقه الزمنيّ، فالصفعة تفاجئنا على الدوام بتوقيتها، حتى وإن كانت متوقعة الحدوث، ومع هذا ستجد نفسك تقوم برد فعل إزاء الصفعة المتوقعة، بينما تقف بلا حول إزاء غير المتوقعة، كما لو أنها أمر حتمي عليك تقبله. أظن هذا الأمر عائد إلى دقة التصنيف في الدماغ البشري، فلو أن أدمغتنا لا تصنف الأشياء بهذه الدقة المتناهية لوضعت كل الصفعات في خانة واحدة، ووضعت بالمقابل رد فعل واحد إزاءها جميعاً، تماماً كما يعمل دماغ السلحفاة، فقد قام هذا الدماغ الصغير بتصنيف كل فعل اقتراب منها اعتداءً، ووضع مقابل هذا الفعل رداً وحيداً واحداً وهو الاختباء داخل القوقعة. غير أن الدماغ البشري في الجهة المقابلة لا يعمل بهذا الشكل البدائي بكل تأكيد، فهو لم يقم بوضع الصفعات التي من الممكن التعرض إليها في خانة واحدة، بل قام بتصنيفها بحسب الصافع، والمناسبة، وشدة الصفعة، وتوقيتها، وإذا ما كان هناك شهود عليها، والكثير الكثير من الاحتمالات والظروف التي سيأخذها الدماغ بعين الاعتبار خلال تصنيفه. وبالعودة إلى فكرة أن هذا التصنيف الدقيق هو المسبب لما يبدو تقبلاً للأفعال

الفجة غير المتوقعة، فإن تفسيري لهذا الأمر يتلخص في أن كل فعل فج غير متوقع هو بالنهاية فعل خارج دائرة التصنيف، وبالتالي فإن الدماغ لم يجهز لنا ما يناسبه من رد فعل، فنجد أنفسنا إزاءه من فرط حيرتنا قد استسلمنا له تماماً، استسلام المتقبل لهذا الفعل.

حزمت حقيبتي، ونزلت إلى البهو باستسلام تام لأوامر خلدون. سوّيت حساب الغرفة، ثم ركبنا سيارته، وانطلقنا.

الفصل العشرون

وقفت على باب الاستراحة كالمُلقى من الجحيم وقد شاه وجهه وذوى جسده؛ فلا عاد يحتمل المزيد من العذاب، ولا عاد للنعيم مكان في قلبه. بدت سيارة الباشا عصيةً على البلوغ رغم قربها. جررت جثتي الثقيلة نحوها إلى أن بلغتها أخيراً، وانكمشت داخلها انكماش المدفون حياً في قبرٍ ضنيك. "وين شنتايتك؟ نسيتا فوق؟" قال الباشا الذي كان جالساً وراء المقود بانتظاري، وترجّل لاستعادة حقيبتي التي كان قد أحضرها إليّ من السيارة لآخذ منها ملابس نظيفة بعد أن تدبّر لي أمر الاغتسال في حمام عمال الاستراحة في الطابق العلوي.

كنت قد تمكنت من النهوض عن أرضية المرحاض بشقاة مخاضٍ بعد يأسٍ مَهين. كان علي التخلص أولاً من حذائي كي أستطيع تحرير ساقيّ من البنطال الذي كان يكبلهما كسلاسل الأغلال. وهو أمر لم يكن ممكناً لتعذّر وصول يديّ إلى قدميّ المرفوعتين إلى أعلى إزاء الباب. كان بوسعي بلوغ البنطال وحسب، فمزقت قماشته العنيدة بعد جهدٍ مرهقٍ كاتماً صرختي. وتمكنت بعدها من النهوض.

رمى الباشا حقيبتي في المقعد الخلفي وجلس وراء المقود من جديد، مغلقاً بابه بهدوء كمن يخشى إفزاع طفلٍ غفا بجانبه. "خلص ما عاد بدي روح ع الشام.. رجعني ع البيت" هذرت مغالباً طرق الصداع الذي ألمّ في رأسي لكثرة ما بكيت. أدار مفتاح المحرك دون أن ينبس بكلمة واحدة أو يلتفت إليّ. تحركت بنا السيارة بهوادةٍ وكأنها تمهلني فرصةً لمراجعة قراري، أو تنتظر تدخّل صاحبها على الأقل لإقناعي بالعدول عنه، إلى أن توقفت عجلاتها عند المفترق. فأخذ الباشا نفساً عميقاً، وكأنه قرر أخيراً أن يغطس في لجة الدمع الذي أغشى عينيّ حدَّ العماء.

"ع اليسار بتروح لدنيا جديدة.. ع اليمين بترجع لكل شي تركتو وراك بحلب" قال بذات النبرة المنذرة التي حذرني بها طبيبي ذات يوم من الخطر المميت الذي سيحيق بي إذا ما استمررت بتعريض رئتيّ الضعيفتين إلى المواد الطيارة في الدهان بشكل يوميّ. كان هذا قبل سنين طوال، عندما أخبرته بمهنتي الجديدة. أذكر أني أصبت حينها بكثير من الذعر، لكنه لم يكن ذعراً من الموت، إذ كيف يخشى الموتَ من كانت حياته ببؤس حياتي؟! إنما الذي أرعبني حقاً هو أن يكون قاتلي شيئاً حقيراً لا يُرى لضآلته، أخف من الهواء. غير أن الجريمة لم تقع كما ترى، بل إن الطبيب نفسه قد تراجع عن رأيه الطبي لاحقاً، بعد أن بينت له الفحوصات عدم تأثر صدري بالدهان. "غريب!" قال حينها متعجباً. أما أنا فلم أجد في الأمر ما يدعو إلى التعجب، إذ لا شك بأن ذلك القاتل الضئيل ما إن ولج صدري واطلع على دواخله حتى خلص من فوره إلى أن هذا الوحش العملاق ما هو في الحقيقة إلا مخلوق حقير أشد ضآلةً منه، بل وأحقر من أن يلوث يديه بدمائه.

التفت الباشا إليّ بعد برهة من الصمت، وقال بنبرةٍ حاسمة: "إيش قررت؟" لم ألتفت إليه، إذ كنت أدرك جيداً بأن التقاء عيوننا سيكون كفيلاً بانفجار دمعي من جديد، كما أن أي حرف سأنطقه سيتبعه نواحٌ عصيب.

كانت جمجمتي ترتج مع كل طرقةٍ من يده على باب المرحاض، بينما يرتج جسدي بأكمله مع تهدج بكائي المكتوم. كنت قد ألقيت رأسي على الباب وقد اضطررت إلى الوقوف طوال ذلك الوقت حانياً ظهري تحت السقف المنخفض. لم أستطع إجابة نداءاته المتلهفة، إذ لم أكن لأحتمل أن يراني على تلك الحال، تفوح مني رائحةٌ منتنة، ولا يستر جسدي سوى سروال داخلي وقميص ملطخ بالأقذار.. بعد أن كنت في عينيه ذلك الملك العظيم. ازداد هيجان صياحه وضربه على الباب، ففتحته أخيراً، وخرجت إليه مطلقاً في وجهه صرخة نواحٍ عظيمة، أجفلته.

راح ينقر برؤوس أصابعه عظمة المقود، وقد وتّره انتظار قراري. أشرت بيدي أخيراً إلى جهة اليمين، باصقاً في قلبي على الدنيا الجديدة التي يغريني بها، وعلى القديمة التي قررت الرجوع إليها رغم تحذيره. فما الذي سيخيفني من العودة إلى حياتي السابقة؟ بل ما الذي سيخيفني حتى من الموت صباح الغد على يد ذلك القاتل الضئيل المتطاير من الدهان، وقد مت ألف مرة قبُيل قليل، على يد ذبابة حقيرة تعيش في مرحاض عمومي قذر؟ أما الحياة الجديدة، فلست أرى فيها غير المزيد من الخراء. فما الذي سيجلبه لي تصوير هذا الفيلم غير المزيد من جمهور السيرك، وقرعاً

يومياً على الباب من قِبل الصحفيين ومعدّي البرامج التلفزيونية، كي يتيحوا للسادة المشاهدين والقراء الأعزاء فرصة التعرف على حياة الوحش السوري، الذي اصطاده لأجل متعتهم مخرج إنكليزي هاجر به أبواه عندما كان طفلاً، لاصطياد حياةٍ سعيدةٍ لأجله. لم أكن غافلاً عن كل هذا حينما كنت أقلّب الأمر في رأسي قبل يوم المقابلة. كنت أدرك جيداً بأن ظهوري في الفيلم إنما هو اعتلاءٌ لخشبة السيرك بطوع إرادتي، بعد أن أمضيت حياتي بأسرها لا همّ لديّ أكبر من همّ الاختباء في جحري، والتواري ما استطعت عن أعين الناس ومحاذرة فخاخ الصيادين. لكنني ألقيت كل هذا خلف ظهري يوم المقابلة، فور أن علمت بأمر العماليق، وبأن ثمة حياة جميلة كان بوسعي أن أعيشها لو أني خُلقت فقط قبل يوم مولدي ببضعة آلاف السنين، وأن هذي ربما هي فرصتي الوحيدة كي أذوق طعمها الذي حُرمت منه، وإن كانت نكهة اصطناعية. أما الآن، وقد أيقظتني صفعة الذبابة من أحلامي الساذجة، فها هي تلك الهواجس تطل برأسها من جديد، بين وجهي ووجه خليل باشا، الذي يبدو بأن صبره قد نفد أخيراً، إذ أطفأ محرك السيارة بعد أن زفر في ضيقٍ وسخط لم يستطع إخفاءه، واستدار نحوي كمن يريد الانقضاض عليّ، وأخذ يصرخ في وجهي بأن الأمر لا يستحق مني كل هذا الغم والضيق، وأن كلاً منا معرّض للوقوع في مثل هذه المواقف المحرجة.

هنا تكسّر زجاج عينيّ دفعةً واحدة وأجهشت في بكاءٍ مرير. أنه يقول (كلاً منا)! إنه لا يدرك إلى الآن أني لم أكن منكم في يوم من الأيام! لم يدرك بعد أن الذي أوجعني حقاً لم يكن سقوطي المخزي في الحمام فوق أقذاري، ولا حتى غدر الذبابة الحقيرة التي لم أجرؤ على إخباره بأنها هي التي أوقعت هذا الجسد العظيم بلمح البصر. إنه لم يفهم إلى الآن - رغم عشرتنا الطويلة - أن السبب الحقيقي وراء كل هذا الألم هو أن كل شيء في هذه الدنيا لا ينفك يذكرني على الدوام بأني لم ولن أكون في يوم من الأيام واحداً منكم! فها هو دخولي لمرحاض عمومي في طريقي إلى دنياه الجديدة المزعومة أبى أن ينقضي ببساطةٍ كدخول أي منكم إلى ذلك الحمام، فخرجت منه عارياً وذليلاً، غارقاً بالدمع والأقذار.

ظل الباشا مطرقاً في صمتٍ مبهم إلى أن هدأت تماماً، فأدار مفتاح المحرك من جديد، وأدار المقود إلى جهة اليسار. لقد قرر أن يسوقني إلى الدنيا الجديدة رغماً عني.. أو ربما رغماً عن كل شيء على الضفة اليمنى.

لم تبرح رائحة البراز أنفي طوال الطريق. كنت أظنها ستزول مع انقضاء بعض الوقت، غير أنها لم تفعل أبداً.. ها أنا الآن أشمها وكأنني لم أبرح المرحاض بعد. ربما لا تكون هذه الرائحة الكريهة رائحةَ براز، بل رائحة حياتي بأسرها.. التي لم يكن قد تسنى لي أن أشمها من قبل.

وصلنا إلى شركة الإنتاج في الموعد المحدد. كان السيد يوسف بانتظاري في مكتبه. ربما يتوجب عليّ هنا وصف الحفاوة التي استقبلني بها السيد يوسف، وأن أنقل لك ما دار من حديث حميم بينه وبين خليل باشا في لقاء تعارفهما، ثم أخبرك بما انتابني من مشاعر مضطربة لحظة دخولي فندقاً لأول مرة في حياتي، وكيف أني هرعت إلى الحمام فور أن أغلقت على نفسي باب الغرفة، كي أستحم مرة ثانية وثالثة في محاولة يائسة للتخلص من الرائحة الكريهة دون جدوى. وكيف أمضيت الليلة بطولها مستلقياً على السرير محدقاً إلى السقف بانتباه صياد الذئاب، ممنياً نفسي بالظفر بأية ذبابة يلقيها حظها المشؤوم إليّ من النافذة التي تركتها مشرعةً لأجل هذا الغرض. ثم ربما سيطيب لك أن أسهب في سرد تفاصيل رحلة التصوير، ابتداءً من ركوب الحافلة في الصباح الباكر من أمام باب الفندق رفقة السيد يوسف ومستر جاويد والأستاذ عبد الهادي ومدير التصوير والإضاءة وخبيرة المكياج الويلزية وبقية طاقم العمل، مروراً بالمشاهد النهارية والليلية التي صورتها في مواقع مختلفة من صحراء تدمر وجبل غنطوس على مدار الأيام الثلاثة. ثم انتهاءً باستلام أجرتي المجزية من السيد يوسف، وأول قبلة أتلقاها في حياتي من امرأة غير أمي، والتي طبعتها على خدي، بينما أودعها، الخبيرة الويلزية الصهباء المرقطة ذات الشفتين الورديتين، قبل أن أغادر الموقع رفقة السائق العجوز. ربما توقعت مني أن أخصص صفحات طويلة في سرد هذا كله وشرحه، بيد أنك بكل تأكيد ما كنت لتصدق أياً منه رغم وقوعه، لا لأنه لا يقبل التصديق، بل لأني لم أشعر تجاهه بأي شيء! أجل، لم أشعر بأي شيء تجاه هذا كله، إذ كنت فيه جثة وحسب. جثة تسير في موقع التصوير منصتةً إلى كل ما يُطلب منها وتنفذه بكفاءة آلةٍ جيدة الصنع، قبل أن تعود إلى قبرها مع انقضاء اليوم، بانتظار البعث في اليوم الجديد.

لقد كنت جثة وحسب.. أما روحي فكانت لم تزل هناك، ملقاةً كجيفةٍ مُنتنة على البلاط الملطخ بالأقذار في مرحاض الاستراحة، ينهشها الذباب..

إلى ملاكي الطينيّ

لا تشبه الأحلام في موتها موتَ البشر. فهي لا تموت بحادث مروري أو بسكتةٍ قلبية أو بعد احتضارٍ على فراش مرض. إنما تموت قتلاً وحسب.

ربما، ما من أحدٍ في هذه الدنيا إلا وقد رأى أحد أحلامه يُغتال أمام عينيه في يومٍ من الأيام. ومع هذا، فلا أحد سواك سيكون قادراً على معاينة أضرار قلبك إثر اغتيال حلمك أنت.

إن جنائز الأحلام أيضاً، يا ملاكي، ليست كجنائز البشر. فلا مشيعون يمشون فيها، ولا مقطوعة جنائزية تُعزف، ولا إكليل ورد رخيص يُلقى لحظةَ الوداع الأخير على شاهدة القبر.

لن يسير في جنازة حلمك غيرُ ريحٍ باردة، ولن يُسمع فيها إلا أنينُ حطامك، ولن يُلقى على شاهدة قبره لحظة الوداع الأخير شيءٌ سواك..

عبيل

سوريا/حلب 19 آذار 1986

الفصل الحادي والعشرون

كان المطر على أشده، وبالكاد استطاعت مسّاحتا الزجاج الأمامي مجاراة انهماره. "هيك جو بدّو وردة الجزائرية" قال خلدون مبتسماً بنشوة الجالس على حافة السكر، بينما يضع الشريط في مشغل الكاسيت.

وبحبك والله بحبك والله والله والله بحبك

قد العيون السود أحبك

وانت عارف منته عارف قد إيه كتيره وجميله

العيون السود في بلدنا يا حبيبي

إن لهذا الثعلب الوغد ذائقة رومانسية رفيعة! اعترفت بداخلي مأخوذاً بفتنة امتزاج صوت وردة بانسكاب المطر.

كان المطر قد داهمنا أنا وسلاف ذات مساء شتوي، بينما كنا سائرين في شارع العابد بعد جلسة عشق دمشقية في مقهى الروضة. فوجدتها فرصة مواتية لاستضافتها داخل معطفي الرحب الطويل، إذ كانت قد اكتفت ذلك اليوم بكنزة صوف كحلية، بدت فيها كجوريةٍ زرقاء مبللة. لكنها تجاهلت دعوتي المتقدة، فتركتني مشرعاً درفتيّ معطفي لانهمار الماء، بينما راحت تدور حولي بخطىً متراقصة، مقلدةً جيني كيلي في فيلمه الشهير "غناء تحت المطر"، وأنشأت تغني بصوتها المُسكر:

I'm singing in the rain, just singin' in the rain

What a glorious feeling, I’m happy again!

منذ ذلك المشهد السحري، وكلما هطل المطر وأنا بمزاجٍ رائق، سمعت غناء سلاف ممتزجاً بوقع حبات المطر.

"تخيل إنو مرتي بتكره المطر!" قال خلدون بصوت منخفض وكأنه يخشى أن يجرح إحساس القطرات. كنت أنوي التظاهر بعدم سماعه، لكني لمحت في وجهه أسىً حقيقياً كالذي يُرى في وجه من أشرف على بكاءٍ مرير. "إي عادي.. كتير ناس ما بيحبوه. وين المشكلة؟" قلت محاولاً أن أخفف عنه. وأردت أن أخبره أيضاً بأن شقيقتي سلمى تكره البحر بشكلٍ غريب. "عمرك تخيّلت حدا من طرطوس بيكره البحر؟" ربما كنت سأضيف، لإضفاء بعض المرح. لكنه لم يمهلني، إذ التفت إليّ بنظرة احتقار خالطه الغضب، ثم قال بعد أن عاد للتحديق إلى الطريق أمامه: "إي والله معك حق، وين المشكلة؟ كتير ناس بيكرهوا الورد، وين المشكلة؟ وكتير ناس بيكرهوا الأغاني، وين المشكلة؟ وكتير ناس بيكرهوا الفن، وين المشكلة؟ وكتير ناس بيكرهوا الجمال، وين المشكلة؟ لك وكتير ناس حتى بيكرهوا الحياة! وين المشكلة؟" صمت فجأةً، فقالت وردة:

وشوف قد إيه.. شوف قد إيه بحبك

بدأ المطر يخبو شيئاً فشيئاً إلى أن توقف، بينما ظل خلدون غارقاً في صمته الظليم، محدقاً إلى الطريق أمامه، من خلال تلويح المسّاحتين اللتين لم يوقفهما رغم توقف المطر منذ برهة طويلة.

ما الذي يشعره عاشق المطر هذا لحظة توقفه عن الهطول؟ تساءلت وقد أغمّني انتهاؤه بشكلٍ غريب. ربما لو أوقِفت المسّاحتان لخفّت عليّ وطأة انقضائه، إذ بدتا بغير ماءٍ تمسحانه كتلويحة وداعٍ أبدية، أحالتني كآبة امتدادها إلى وفاة عبيل..

كيف يستقبل الموتى المطر وقد غدوا تحت التراب؟ هل يستشعرون عذوبته كجذور أشجارٍ عطاش؟ لقد كان عبيل في سموّ هامته أول من يستقبل الشتاء من الأحياء. أما وقد التحف الأديم كسائر الأموات، فلم يعد لديه ذلك السبق الأثيل. لكنه، وكأي ميتٍ مسجى، سيسبق الأحياء، كعشب الأرض، إلى فصل الربيع.

"أكيد ما في مشكلة إزا كرهت شي أنا بحبو يا أستاز هشام.. أو حتى يا سيدي إزا كرهت شي كل خلق الله بيحبوه. المشكلة لما بتستسخف حبـي لهالشي يللي حضرتك بتكرهو، وتبلش مع الوقت تستسخفني كلي كإنسان، بس لإنك عم تكتشف إنو كتير شغلات انت بتكرها وما لها قيمة عندك، أنا بحبا!". قال عاشق المطر كل هذا دون أن ينظر إليّ، ثم فطن إلى المسّاحتين فأوقفهما، وأطفأ مشغل الكاسيت كما لو كان من غير الجائز سماع وردة بلا مطر. "ما قلتلي.. لوين رايحين هلأ؟" سألته كي نخرج من كهفه المظلم الذي أدخلني إليه عنوةً في أسوأ توقيت بالنسبة إليّ. "رايحين ع الجنة!" أجاب مطلقاً ضحكةً بلهاء. ثم ربّت على كتفي، فيما يشبه الاعتذار.

توقفت السيارة أخيراً أمام مبنىً قبيح مقارنةً بغيره من المباني الجميلة التي مررنا بها في حي الفرقان، والتي لو قال لي بأن جنته المزعومة مختبئة في إحداها لربما صدقته. أما هذا المبنى، فلن أصدق حتى بأن ريح الجنة قد مرت بإحدى نوافذه في يوم من الأيام. لم أعلّق على الأمر، إذ لم أشأ أن أشعره بالحرج، أو ربما لم أشأ الاعتراف بأني كنت قد أمضيت ما تبقى من زمن الطريق متلهفاً لدخول جنته الموعودة. ترجّلنا من السيارة إذن، ودخلنا العمارة البائسة، وصعدنا درجها الكئيب كآبة وطئهِ للدرجات أمامي، إذ كان يصعدها بهوادة الماشي في جنازة. "ما خلصت هالطوابق؟" سألته مع تجاوزنا الطابق الرابع، وقد ألمّ بـي الضجر أكثر مما أصابني التعب. "مبلا هلأ خلصوا، بس نحنا طالعين ع السطوح" قال عبارته الأخيرة بنبرةٍ لمست فيها خشوعاً أقلقني. هل هذا ما عناه حين قال بأننا ذاهبان إلى الجنة؟ هل يعتزم دعوتي إلى مشاركته الانتحار بالقفز عن سطح هذا المبنى الشنيع؟ أما وجد على الأقل مبنىً يليق بأن تتصدر صورته الصفحة الأخيرة من طليقتي الورقية؟ "الزميل هشام الأسعد.. يستقيل من الحياة بعد أسبوعين على استقالته من الجريدة" سيكون عنواناً جاذباً تستطيبه رئاسة التحرير بلا شك، وفرصةً سانحة بالنسبة إليّ للتعريف باسمي لكل من كانوا يقفزون عن الصفحة الثقافية قفز المتأنق عن بركة الوحل في طريقه. لكن من أخبر هذا المسكين بأن المنتحر يدخل الجنة؟ بل من أوهمه أصلاً بأني أرغب بالانتحار؟ أيكون الأحمق قد ظن حزني لموت عبيل قد سما إلى مرتبة عدم المقدرة على مواصلة الحياة؟ "شو في ع السطوح؟" سألته بينما أدفع قدميّ دفعاً لمواصلة الصعود. لكن الدرجات المتبقية كانت أقل من أن تُمديه ليجيب. قرفص إزاء الباب الحديدي، وانتشل مفتاحاً كان مخبأً في مكان لم أتبينه، إذ كان ذهني لا يزال منشغلاً بالبحث عن فرضية أكثر منطقية من دعوة الانتحار.

كان السطح خالياً سوى من حجرة صغيرة عُمّرت في الزاوية المجاورة لبيت الدرج، تُركت جدرانها بلا كساء خارجي. جُعِل لها حوش صغير مُسوَّر بسياجٍ طابوقي خفيض، رُصفت فوقه أصص الزهور والنباتات المتدلية. بينما اعتلت هذا الحوش عريشة عنب فكانت له بمثابة السقف. لم تكن أرضية ذلك الحوش أحسن حالاً من بقية السطح، فقد أغرقتها هي الأخرى مياه الأمطار، والتي يبدو بأن المزاريب البائسة لم تستطع مجاراتها.

وقف خلدون إزاء باب الحجرة الحديدي، وقال لي بابتسامة من حضّر مفاجأةً سارة: "تفضل افتاح الباب" نظرت إلى عينيه محاولاً العثور فيهما عن معنى كل هذا، ثم تقدمت إلى الباب الذي لم يكن موصداً بمفتاح، وفتحته.

كانت الغرفة مظلمةً تماماً، لكن ضوء النهار الرمادي الذي اخترقها مع انفتاح الباب، سمح لي برؤية هيكله العملاق وقد جلس في سكون تام على حافة السرير..

الفصل الثاني والعشرون

إن الحياة الجديدة، التي لم يساور الباشا أي شك إزاء حتمية قدومها، لم تأتِ أبداً. "بكرة بتلاقي خبر تصوير الفيلم معبـي الجرايد. وأكيد اسمك رح يكون متصدر العناوين" قال الباشا عندما زرته في اليوم الذي تلى عودتي من التصوير. "ع القليلة الجرايد السورية" قال مستدركاً، وقد أوليته ظهري، ووقفت أمام لوحتي محدقاً إلى الذبابة. "مو المفروض هالشي يكون بعد عرض الفيلم؟" سألته في شرود، فأجاب: "الأفلام بالعادة بينحكى عنّا قبل العرض أكتر. لأن بعد العرض بيصير الحكي بدو حدا بفهم باللي عم يحكيه" ضغطت بإصبعي على ذبابة اللوحة، محاولاً هرسها ربما. "ليش عبتعمل هيك؟" سألني وقد صار الآن بجانبـي. سارعت بسحب يدي، وقلت بارتباك: "كنت بس عبجرِّب حس بملمس الألوان.." فقال متنهداً: "لا. قصدي ليش هيك عبتعمل بحالك" فالتفتُّ إليه وسألته: "إيش عملت؟" شبك يديه كعادته خلف ظهره وراح يذرع المكان مطرقاً، كمن يفكر بصيغة مناسبة لكلام لم يكن ينوي قوله "ليش ما عم تاخد الحياة ببساطة؟" قال أخيراً بشيء من التلعثم، وكأن تلك العبارة لم تكن تماماً ما يحاول قوله. وددت لو أجيبه بأن عليه توجيه سؤاله هذا إلى حياتي، لا إليّ. لكنني أبيت الاشتكاء أمام ذبابته. "أنا بس جيت أسلم عليك.. وقلك إنو يمكن غيب شوي" قلت أخيراً. فهز رأسه متفهماً، وربّت على ساعدي.

مرت أشهرٌ ستة على ذلك اللقاء لم أزره خلالها أبداً. كنت قد قضيتها بين البيت والورش والكثير من الجلسات الصباحية في حوش المنزل مع صديقي أبو عبدو الزبال، في الأيام الكثيرة الخالية من العمل. كنا نقتعد المصطبة تحت عريشة الياسمين وقد وضعت أمي بيننا صينية الشاي، فنجلس ساعةً من الزمان، أسمع منه أخبار الناس وحكاياهم التي لم تكن تعنيني في شيء بأي حال من الأحوال، لكنها كانت كل ما لديه من كلام، فأجدني مضطراً إلى إلقاء تعليقاتٍ بلهاء في كل حين

للدلالة على اهتمامي بما أسمعه. أما أنا فلم يكن لديّ ما أحدّثه به، رغم ازدحام صدري بالكلام، لكنه كان كلاماً من النوع الذي لا يمكن إخراجه إلا بهيئة صرخةٍ أو أنينٍ في أحسن الأحوال.

لا أعلم يقيناً سبب انجذابـي إلى مجالسة أبو عبدو وتفضيله على الباشا في تلك الفترة الأشد غموضاً وحلكةً من سني حياتي. ربما كانت حاجتي إلى التوكّؤ على ملعونٍ مثلي، أو لعلها حاجتي إلى اشتمام رائحة القمامة التي كانت تهبّ إلى أنفي من ثيابه وعربته المركونة وراء باب البيت بينما نشرب الشاي. الرائحة التي لم يقوَ غيرها على تنحية رائحة المرحاض العصية على الزوال.

في الأيام الأولى التي أعقبت رجوعي من التصوير، واظبت أمي على ملاحقتي بعينيها الذابلتين، محاولة فهم ما وقع لي خلال رحلة التصوير، بعد أن استنفدت جميع محاولاتها اليائسة في استنطاقي حين تفاجأت بعودتي من هناك مهموماً على عكس ما توقعت. "حدا دايقك هنيك؟.. تقاتلت شي مع حدا بالشام؟.. ما طلع الفيلم متل ما بدك؟.." لم أستطع إخبارها بأنها لم تكن سوى ذبابة.

في صباح يومٍ شتوي من شهر كانون الأول، وصل ساعي البريد حاملاً إليّ طرداً صغيراً ظننته للوهلة الأولى مرسلاً من والدي. لكن الكآبة التي أحدثها ذلك الظن سرعان ما انقشعت فور أن قرأت اسم المرسل. إنه السيد يوسف!

كان في الطرد شريط ڤيديو أُرفقت به رسالة قصيرة يشكرني فيها على مشاركتي في الفيلم، متمنياً أن يحظى العمل بإعجابـي. ولم ينسَ أيضاً أن يبلغني تحيات مستر جاويد، الذي أسعده كثيراً ما أضفاه ظهوري في الفيلم على جودته ومصداقيته، على حد قول السيد يوسف.

لم يكن في منزلي، بطبيعة الحال، جهاز عرض ڤيديو. فخرجت من فوري إلى دكان أبو إبراهيم، واتصلت بخليل باشا.

مساء اليوم نفسه كنت جالساً معه في المرسم أمام شاشة التلفاز وقد رتب كل شيء كعادته على خير ما ينبغي، لنشاهد الفيلم.

تفاجأنا أنا وهو بضخامة الإنتاج التي بدت جليةً منذ المشاهد الأولى، والتي صُوِّرت في كل من العراق وصحراء الحجاز. والتي ضمت مجاميع بشرية من مئات الأشخاص، في حلهم وترحالهم، وقد بدوا جساماً إلى حد ما، لكنهم لم يكونوا بضخامتي أبداً. الأمر الذي أوقع في نفسي

بعض الضيق، إذ لم أكن لأتخيل أن شذوذي ما كان ليفارقني حتى لو خُلقت في زمن العماليق. لكنني عزيت نفسي باستحالة أن يتمكن المخرج من العثور على هذه الأعداد الغفيرة من الناس ممن لهم الضخامة المطلوبة التي تحاكي ضخامة العماليق الحقيقية، وإلا لما كان أكد للسيد يوسف على أن وجودي في فيلمه قد أضفى عليه مصداقية كان في أمس الحاجة إليها.

جاء ظهوري الأول أخيراً بعد مرور نصف وقت الفيلم. كنت سائراً نحو جبل مولياً ظهري للكاميرا التي كانت تسير خلفي بهوادة، بينما يقول المعلق بالإنكليزية كلاماً لم أستطع فهم شيء منه، إلى أن نطق اسم الشخصية الافتراضية التي أمثلها. "أبيل؟" سألني خليل باشا، فالتفتّ إليه لأرى سروراً في وجهه لم أره قبلاً عليه. فابتسمت له وقلت موضحاً: "إي.. اسمي بالفيلم عبيل" كان مجموع مشاهدي اثني عشر مشهداً، وكنت في جميعها وحيداً تماماً. أصعد جبلاً في أحدها، وأشعل ناراً في مشهد آخر، ثم أجرُّ طريدةً في مشهدٍ جديد، إلى أن استلقيت في العراء ليلاً في آخر مشاهدي، متأملاً النجوم التي رصعت سماء تدمر، بوجهٍ كئيب كآبة الليل الطويل. وهو مشهد حرك الدمع في عينيّ فور أن شاهدته.. وكأني أرى فيه حياتي.

من مشهدي ذاك، انتقل الفيلم إلى فتاة استلقت هي الأخرى في العراء، لكن بوادي رم في البادية الأردنية. وكأن المخرج أراد أن يقول بأنها كانت تتأمل من مكانها ذاك، النجوم التي كنت أتأملها في نفس اللحظة. اتسع المشهد من عينيها الكحلاوين إلى وجهٍ ناحل ساحر القسمات، له لون الطين النديّ. ثم بدأ جسدها بالظهور بهوادة الموسيقى المرافقة إلى أن تبدّت كلها. لقد كانت بنفس طولي.. إنها عملاقةٌ حقيقية!

إلى ملاكي الطينيّ

أتخيل شكل حياتكِ في كل يوم، ولا رجاء لديّ سوى ألا تكون مثل حياتي. صدقيني يا ملاكي، سأصالح الدنيا وأعفو عن كل ما صنعته بـي، لو علمت بأنها قد أنصفتكِ فأرفدتكِ حياةً هانئةً تليق برقتك وهدوء بسمتك.

أما أنا، فإن حسبـي وغاية ما طمحت إليه من حظ العدالة حزته في تشابه هيئتينا. فأيُّ إنصافٍ من الدنيا بوسعي أن أروم بعد أن ألقت شبيهتي الأحلى بدرب شذوذي الأزليّ؟ أيّ إنصافٍ سأرجو بعد هذا؟ وهو أقصى ما ابتغيته يوماً، ومنتهى حلمي، وآخر مشتهاي..

عبيل

سوريا/حلب 26 شباط 1986

الفصل الثالث والعشرون

"أنا نازل جيب غدا" قال خلدون، وغادر من فوره، مثلما تفعل الأخت الكبيرة عادةً بعد أن تجمع أخاها بعروسه المحتملة. كنت لا أزال واقفاً على الباب في ذهول تحت وطأة الصدمة، محدقاً إلى عبيل غير مصدق بأني أراه حقاً أمامي. غير أن نشوة الوقوع في موقف غرائبـي لم تدم طويلاً، إذ لم يطب لابن الكلبة دماغي أن يراني متهنياً بالأمر، فسارع، كعادته كلما واجهت حادثة غرائبية تستطيبها نفسي، إلى تحليل المسألة تحليلاً منطقياً. فالقط الذي اختفى فجأةً ذات نهار وكأن الأرض قد ابتلعته، إنما انسل مبتعداً في اللحظة الحاسمة التي انشغل فيها دماغي عن تحليل مرسلات العين. وصوت الخطو ورائي في إحدى الليالي المعتمة ليس إلا ارتداداً لوقع خطاي بين جدران الزقاق، وهكذا.. أما عبيل، فلم ينبئني أحد بموته سوى صاحب الدكان، فالتفسير المنطقي الوحيد إذن، هو أن ذلك العجوز الوغد، ببساطة، قد كذب عليّ! إنه أمر ألوم نفسي عليه أيما لوم.. فالصحفي منا لا يتسرع هكذا في تصديق ما يسمعه. حتى الصحفي المبتدئ لا يمكن له الوقوع في مثل هذا الخطأ القاتل، فمن أولى أبجديات العمل الصحفي اعتبار الخبر ذي المصدر الوحيد خبراً كاذباً ما لم تتضافر الأدلة وتتواتر الشهادات على صحته. فما الذي وقع لعقلي لحظتها؟ هل كنت أرغب فعلياً بأن يكون عبيل قد مات؟ هل طمع الأديب في داخلي بمثل هذه الانعطافة الصادمة في مسار قصته؟ أم أن الصحفي التوّاق إلى كل مثير، ولو على حساب فجائع الناس وعذاباتهم، لم يزل متشبثاً بزمام قلمي، رغم ركلاتي الدؤوبة على مؤخرته منذ اعتزالي الصحافة؟

أشعلت مصباح الغرفة، ودخلت إليه بهوادة الداخل على ناسك في صومعته. أجلت عينيّ في الغرفة الصغيرة. كانت تحتوي على سرير حديدي مفرد جلس عليه عبيل، وخزانة ملابس ضيقة، ومدفأة كهربائية مطفأة وُضعت على الأرض، وثلاجة شديدة الصغر خمنت أنها مخصصة

للمشروبات الكحولية. بالإضافة إلى طاولة كتابة خشبية بكرسي من الخيزران، وُضع على سطحها مزهرية، وعلبة سجائر أجنبية من النوع الذي تفضله النساء الصغيرات، ومنفضة زجاجية.

وضعت حقيبتي جانباً، وأغلقت باب الغرفة. كانت شديدة البرودة، فاحتفظت بالمعطف على جسدي وشغّلت المدفأة.

"حمد الله ع السلامة" قلت هذه العبارة البلهاء وكأنه قد مات حقاً، فتوجب عليَّ من باب اللياقة في عالم الأحياء أن أهنئه بعد أن تمكن من الرجوع إلى الحياة. لم يحر جواباً لحسن الحظ، وإلا لكان أشد حمقاً مني. وهو أمر ما كان ليروقني اكتشافه، بكل تأكيد، في من وضعته موضعاً رفيع المقام في وجداني. "صاحب الدكان يللي جنب بيتك.." قلت، فقاطعني دون أن يرفع عينيه عن الأرض: "إي أبو إبراهيم. أنا طلبت منو يقول هيك" إنها نبرة صوته نفسها، التي تشبه الهمس الجماعي. إنها لتبعث المهابة في نفسك، وكأن هذا الجسد العملاق ما هو إلا سجنٌ ظليم، احتبس بين جدرانه العالية فرقةً من المساجين، جلسوا محدقين في العتمة العمياء، وقد أصاخوا السمع في قنوط لأي نداء قد يأتيهم من وراء الجدران. "ما فهمت" قلت. فرفع وجهه وتطلع في عينيّ بخنوع، ثم قال بانكسار من يعترف بعد جلسة تعذيب: "أنا طلبت منو يقول لأي حدا غريب بيسأل عني إني متت". كانت عيناه غارقتين في لجة من حزن وغم. ما الذي حمله على القدوم إلى هنا للقائي وهو في مثل هذه الحال؟ "وكيف قدر خلدون يوصل لك؟" سألته متمنياً ألا يكون ذلك الوغد هو الذي تسبب له بكل هذا الأسى. أجاب مغمغماً وقد عاد إلى إطراقته: "إي إنتو جماعة الأمن السياسي ما بيصعب عليكون شي" غثيت نفسي وانقبضت معدتي، وأرعدت البرودة أطرافي. "مين يللي بالأمن السياسي؟" لم أكن أسأله، بل أتقيأ الجواب الذي أدركته..

سحبت الكرسي من تحت الطاولة واسّاقطت عليه، وأطرقت منضماً إلى رأس عبيل. كان لهدير أنفاسه وقع تدافع البخار من تحت غطاء قِدر على النار. كان صدري هو ذلك القِدر. "لستَ مثلهم..". ألف لعنة عليك يا خلدون الكلب! ها قد صرتَ أنت واحداً منهم..

"حقك عليّ.. بس أنا ما طلبت منو يجيبك" قلت محدقاً إلى يديه الراجفتين بين فخذيه. "أصلاً كنت مفكرك متت عن جد" أضفت مدللاً على صدق ادعائي. "إي أنا متت فعلاً. ميت من لما انخلقت.. بس متت أكتر لما ماتت.." حاول إتمام عبارته مغالباً غصةً في حلقه، فلم يستطع.

رفعت وجهي فوقعت عيناي على عينيه. كانت عيناه الجاحظتان من فرط احمرارهما قد غدتا كنوّاستين مشتعلتين. إنه احمرار بكاء شديد، على الرغم من أن دمعةً واحدة لم تسل منهما. إن دموعه تنهمر إلى داخله! "مين يللي ماتت؟ شذا؟" سألته وقد أنساني أساه أني بذلك إنما أعترف له بسرقة رسالته. هز رأسه نافياً باستسلام من تتناوب الصفعات على خدّيه. "إمي" قالها بصوتٍ متهدج فكان لها وقعُ ارتطام الموج بهيكل سفينةٍ تكسّرت على الشاطئ. نهضت دون وعي لما أفعله، وحضنت رأسه. ضممت وجهه بقوة إلى صدري، وكأني أحاول كسر زجاج عينيه كي تتفجر منهما سيول الدمع المحتبسة في صدره. ارتعش رأسه، ثم تعاظم ارتجاجه إلى أن أطلق جئيراً مفزعاً أجفل قلبـي، وأخذ ينوح على صدري بحرقة طفلٍ مكسور. دفعني أخيراً عن رأسه بيدين ضعيفتين، وراح يكبح بكاءه بشهقاتٍ متقطعة، ماسحاً عينيه بظهر كفه. التفت فجأةً إلى الباب كما لو أن نداءً خفياً قد أتاه من خلفه. نهض مندفعاً إليه، وفتحه بضراوة، وانسلّ منه.

سيلقي بنفسه من سطح البناية! فكرت بهلع، وخرجت مسرعاً وراءه. كان سائراً نحو السور باندفاعٍ مُطّرد، فركضت وانقضضت على ذيل معطفه الطويل وتعلقت به بكلتا يديّ، محاولاً كبحه بغير جدوى. فانجررت مسحولاً خلفه كالمتعلق بذيل ثور، إلى أن بلغ السور. هنا صرخت متوسلاً إليه ألا يفعل، فالتفت إليّ بغضب: "ما رح ارمي حالي!" كنت لم أزل متشبثاً بمعطفه وقد جثوت على ركبتيّ خلفه في بركة ماءٍ عكر. شعرت بارتخاء بدنه، فنهضت عن الأرض ووقفت بجانبه خجِلاً من حماستي السينمائية. كان عليه منذ البداية أن ينفي نيته بالانتحار! فكرت مطرقاً، بينما أجدّف مُقلقاً سكونَ الماء بحذائي. ظل سارحاً في الأفق البعيد وقد حنى ظهره وأرخى كفيه على السور. "تعا نرجع عالغرفة" قلت وقد بدأ البرد يُرقصني. "أو خلص ارجاع ع بيتك إزا بدك.. ما عاد بدنا منك شي" أضفت مصرحاً وقد تقمصت على ما يبدو دور المحقق في الفروع الأمنية. عاد إلى الغرفة أخيراً فتبعته معايناً ما أصاب ملابسي من بلل. "هيك بهدلتني! الله يسامحك.." قلت بينما أنفّض بنطالي من الماء الموحل على الباب، وقد عاد للجلوس على السرير. تأمل وجهي ملياً. "آسف.. حقك عليّ" قال في شرود وقد حوّل نظره إلى بنطالي الممرغ، وكأن اعتذاره إنما كان موجهاً إليه شخصياً.

خلعت حذائي وأخرجت بنطالاً آخر من الحقيبة، وارتديته، وعدت إلى كرسيي. "حابب ترجع عالبيت؟" سألته بعد صمتٍ طويل، وقد بدأت أشعر بضيقٍ غريب، كما لو كنا سجينين ينتظر كل منا أن يبادره رفيقه بدعوةٍ للهروب.

هنا دخل علينا خلدون حاملاً بين يديه كدس أكياس ورقية تفوح منها رائحة كباب ولحم مشوي لم تقو على إسالة لعابـي رغم فرط جوعي. ألقى علينا التحية بمرح، وسارع إلى فتح الأكياس على الطاولة، بعد أن سحبها إلى أمام عبيل، وأخرج من الثلاجة ثلاث زجاجات بيرة وزجاجة ماء كبيرة.

"يللا قرِّب كرسيك، إيش مستني؟" قال لي بلهفة البدوي إذ يقري ضيفه. كدت أن أصفعه، لولا وجهه الوديع الذي تبدّى لي فجأةً من خلف وجهه القبيح الذي كان يستحق الصفع. "صحتين. كلو إنتو. مالي نفس بالأكل هلأ" قلت، وغادرت الغرفة. وقفت تحت العريشة الجرداء وأشعلت سيجارة. كان هدوء المكان غريباً، كما لو أن سطح هذا المبنى مشرف على مقبرة، وكأن رؤوس المباني المترامية في الأفق الضبابـي المضرج بحمرة الغسق ما هي إلا شواهد القبور. أرسلت عينيّ في الأفق الكئيب، ورحت ألهو بصنع سحائب كثيفة من دخان السيجارة المجبول بالبخار بفعل البرد، في محاولة للتسرية عن نفسي، لدفع الاكتئاب الذي بدأ يتسلل إليها من هدأة المقبرة.

انضم إليّ خلدون بعد برهة قصيرة، فوقف بجانبـي، وطلب مني سيجارة. "ما أكل عبيل؟" سألته متجاهلاً طلبه. "لا، ما أكل.. كيف بدك اياه ياكول بعد ما حضرتك تركتو معي لحالو وطلعت؟.. هتلك سيجارة يا زلمة!" قال وانتشل العلبة من يدي. "كيف وصلت لعبيل؟" سألته بينما أناوله الولاعة. "وليش معصب هالقد وكأنك زعلان إنو طلع عايش؟" أجابني ببرود بعد أن أشعل سيجارته. "لا يا سيدي، لا زعلان ولا معصب.. بس بدي أعرف كيف وصلتلو" أجبته وقد بدأت أفقد أعصابـي، فابتسم وهو يعيد لي الولاعة وقد استعاد الآن وجه الثعلب: "حضرتك نسيت ظرف ع الطاولة لما قمت اليوم فجأة متل المجنون وتركتني لحالي بالقهوة. انتبهت إنو عليه اسم نفس الشخص يللي خبرتني إنو مات، ففتحتو وقريت الرسالة" مددت يدي إلى جيب معطفي فلم أعثر على الظرف. تجاهل حركتي التي تدل على عدم تصديقه، وأكمل يقول بعد أن مجّ سحبة طويلة من سيجارته: "شدني الحكي المكتوب بالرسالة.. أو بتقدر تقول إنو أثر فيني" صمت برهةً، فرأيت في وجهه خجل الموشك على الاعتراف بسر محرج، وقال أخيراً: "حسيت يللي كاتب هالحكي حدا بيشبهني كتير..".

قلّبت في رأسي صفات الرجلين محاولاً العثور على أية خصلة مشتركة بالفعل فيما بينهما، فلم أستطع الوصول إلى شيء. ربما يشبه وجهاً لم أره بعد من وجوهه اللانهائية. فكرت.

"حملت حالي ورحت ع مكتبـي ودقيت لرفيقي بفرع الأمن السياسي، عطيتو العنوان والاسم وطلبت منو يجيبلي معلومات عن هالشخص. الزلمة ما كزّب خبر؛ بأقل من ساعتين كان جايب المعلم جلال بشحمو ولحمو لعندي، و..". "مين جلال؟" قاطعته. فضحك قائلاً: "الشب يللي جوا. اسمو جلال يا أستاز هشام.. مو عبيل". كم أنا صحفي فاشل! فكرت خجِلاً من نفسي، وسألته بعد أن سرحت قليلاً: "يعني إنت مو بالسياسية[25]؟" فأطلق ضحكةً مجلجلة أيقظت الموتى في قبوري الإسمنتية، وقال مبتسماً بمودة وقد أرخى كفه على كتفي: "لا يا سيدي مو بالسياسية، ولا حتى بأمن الدولة.." ثم تخلص من ابتسامته فجأةً وكأن وقتها قد انقضى، وقال بلهجة خطيرة، محدقاً إلى عينيّ بنظرةٍ حاسمة: "أنا الدولة".

خرج إلينا عبيل وقال بأنه يريد العودة إلى مسكنه. هنا شعرت بأن حكايتي معه قد انتهت، وبأن هذه اللحظة الوداعية ما هي إلا مشهد الختام الحزين. نظرت إليه ملياً دون أن أجرؤ على مجرد التلميح إلى الجلسات التي كنت أحلم بعقدها معه. "إلك عندي شوية أوراق. إذا بتحب فيك تمرق بُكرة لعندي تقراهون بالمرسم" يا إله السعادة! هتفت في قلبـي. "إي أكيد بحب" أجبته مبتسماً. "بس أي مرسم؟" استدركت وقد أخذتني الحماسة لفكرة أن يكون هذا الوحش فناناً. "أنا حالياً ساكن بمرسم صديقي بالشهباء" أجاب بانضباط ملتفتاً إلى خلدون، وكأنه يُدلي ببيان عنوان سكنه لضابط الأمن السياسي. "انتقلت لهنيك بعد وفاة الوالدة" أردف موضحاً بينما ينظر هذه المرة إلى السماء. ربما كان الآن يطمئن والدته.

اتفقنا إذن على أن يوصله خلدون إلى مسكنه الجديد ذاك للتعرف إلى العنوان، كي يوصلني إليه صباح الغد للاطلاع على أوراقه. ثم غادرا ليتركاني وحيداً في الوكر الغرامي، الذي لم تعكر وحشتُه، برغم حلكة وطأتها، صفوَ سعادتي بعودة عبيل إلى الحياة. أو ربما بعودة الحياة إلى مشروعي الأدبـي..

الفصل الرابع والعشرون

لم أكن قد اختبرت شعور الحب من قبل. بيد أني كنت على يقين بأن الذي اعتراني حين رأيت تلك الفتاة هو الحب بلا ريب..

عدت من مرسم الباشا حاملاً معي مُشغِّل الڤيديو الذي استعرته منه بحجة رغبتي بأن تشاهد أمي الفيلم. وقد شاهدته حقاً في الليلة نفسها. أو لنقل شاهدت بدايته وما تيسر لها من مشاهدي قبل أن تنهض فجأةً متذرعةً بالنعاس، وتطبع قبلة على جبيني، وتقول بصوتٍ مرتعش مغالبةً دمعها: "مبروك يا عمري.. خزيت العين، طالع متل الفارس" لا أعلم من ذلك الفارس البائس الذي دفعه حظه العاثر إلى بال أمي لحظة إطلاقها ذلك التشبيه. إذ لم أكن لأرقى حتى إلى بعضٍ من فروسية دون كيخوته دلامنتشا في أشد صوره الهزلية تطرفاً، بل لو أنه هو نفسه قد رآني بزيِّ الفيلم تحديداً، لصاح مذعوراً: أواه! ها هو أحد المردة العتاة الذين ظنهم الجاهل المتخاذل سنشو - ستون ألف شيطان يأخذونه - طواحينَ هواء!

كانوا قد ألبسوني في الفيلم رداءً وحشياً من جلدٍ داكن خشن، يكشف عن جزء من صدري بالإضافة إلى ساعديّ وساقيّ. غير أن كل هذا لم يزعزع يقيني بأني لا أشبه الفرسان في شيء؛ تماماً كيقيني بأن تلك الدموع المترقرقة في عينيها لم تكن أبداً دموع فرح. مسحت على شعري بيدٍ مستسلمة، وانسلّت إلى غرفتها.

لست أدري إن كان هذا غريباً حقاً، أم أن للحب دائماً هذه السطوة التي تمكنه من التلاعب بعواطفنا دونما مشقة، والتحكم بتصرفاتنا تحكم لاعب الحبال بدميته. إذ بقيت مسمّراً إلى الكنبة بعد أن دخلت أمي غرفتها، رغم يقيني بأنها تنتظر مني أن أهبّ وراءها لاسترضائها وطمأنة قلبها

المذعور من خسراني، الذي بدا لها الآن أشد اقتراباً من أي وقتٍ مضى، وقد أصبح الفيلم حقيقةً واقعةً أمام عينيها. لكن يبدو أن علمنا بما ينتظره أحبتنا منا، لا يكون كافياً على الدوام لدفعنا إلى فعله.

تجاهلت إذن نداءات قلب أمي، وقد سنحت لي أخيراً فرصة الاختلاء بفاتنتي. فأخفضت صوت التلفاز إلى آخره، وجثوت أمام الشاشة بانصباب المنقب عن كنز دفين، وطفقت أعيد مشاهدها مراراً وتكراراً بأصابع مرتبكة وعينين نهمتين وقلبٍ يتعاظم اختلاجه كلما تبدى لي وجهها الأخاذ ولاح قوامها الهائل من خلف ردائها المشغول من جلد حيوان بري تكشَّف عن بعض مفاتنها التي راحت تثير في نفسي اشتهاءً متقداً كلما تفرستها من جديد. الأمر الذي أوقع في قلبي فجأةً ضيقاً وخزياً تمنيت معه انشقاق الأرض بي. وكأن صاعقةً تنزّلت عليّ فاستقر وميضها في وجداني كالحقيقة المطلقة. مفادها بأن مثلها لم تُخلق أبداً لكي تُشتهى..

خلدت إلى فراشي أخيراً، بعد أن تمكن النعاس مني مع بزوغ الفجر، لأستيقظ لاحقاً عند الظهيرة على صوت أمي توقظني، وقد ضممت شريط الڤيديو إلى صدري.

حملت الجهاز إلى الباشا بعد بضعة أيام، وقد عقدت العزم على شراء واحد لي بعد أن أتمكن من تجميع ثمنه، إذ بات جلياً لديّ مدى تعلقي بها، وكم سيكون يوماً عصيباً ذاك الذي يمر دون رؤيتها.

رفض الباشا أن يسترد جهازه. "اعتبرو هدية صغيرة مني إلك بمناسبة الفيلم" قال، ثم أضاف متفرساً وجهي: "شكلك ما عبتنام منيح؟" كان محقاً في ملاحظته. "لا أبداً. عبنام متل العادة" كذبت، لأتجنب سؤاله لي عن سبب كل هذا السهد. هزّ رأسه بابتسامة خبيثة، وتناول فرشاة تلوين رفيعة، غطسها باللون الأحمر، وأمسك بيدي بينما يقف قبالتي، ورسم على ظهر كفي قلباً صغيراً، ثم تطلع في عينيّ بنظرة حانية وقد تحولت ابتسامته الخبيثة إلى تلك المحببة، وقال بما يشبه الهمس: "إيش رايك ارسملك إياها بدل ما تضل مبحلق بالشاشة طول الليل؟".

لم يقل أي مشاهدها سيختار، إلا أني كنت على يقين بأنه سيرسم ذلك المشهد في ظهورها الأول، حيث كانت مستلقية في الخلاء تتأمل النجوم بعينين لامعتين، وقد مدت جسدها اللانهائي على الرمال القانية، كشجرةٍ عفيّة استراحت على صفحة بحيرة حمراء، بعد أن نامت آخر العصافير.

لم يمضِ سوى أسبوع حتى وجدته واقفاً على باب منزلي، يحمل بين يديه لوحةً كبيرة مغلفة بورقٍ أصفر، وقد أسند فوقها مشغل الفيديو الذي لم أعد فعلياً بحاجة إليه.

"إشو، ما بدك تفتحا؟" قال بابتسامة متحفظة، منقلاً عينيه بين اللوحة في يديّ ووجه أمي التي وقفت إزائي متكأةً على ذراع الكنبة. "تشرب قهوة؟" سألته بنبرة متوعدة فور أن التقت عيونهما، وكأنها تقول له إياك أن توافق. فشكرها مطأطئاً رأسه، وأخذ يتململ في كنبته وكأنه ينقُب حفرةً للاختباء بداخلها. لم أجد سبيلاً لإنقاذه من اضطرابه الغريب ذاك سوى بفتح اللوحة. فأزلت عنها الغلاف الورقي بأصابع لا تقل اضطراباً، ووجهتها نحوه دونما إبطاءٍ حال أن تكشّفت بكليتها، وقد أسندتها على فخذيّ. اصطنع ضحكة جريئة لا تتماشى مع عينيه المرتبكتين ووجهه المضرج، ورغا معلقاً: "إي أنا بعرفا منيح! بدي تشوفها إنت والوالدة" قال كلمته الأخيرة بصوتٍ بالكاد استطعت سماعه. هنا اعتدلت أمي في وقفتها واستدارت لتقابل اللوحة المنصوبة بين يديّ. نظرتُ في عينيها بعد أن خيّم على المكان صمتٌ ثقيل. كانتا تبكيان..

لم يدر بخلدي حين طردت ذبابة السقف من غرفتي، أن أحداً ما سيحل محلها في يوم من الأيام. "كيف بغدر ثبّت اللوحة بالسقف؟" سألت الباشا بعد أن تركتها قرابة الأسبوع معلقة في المكان الذي اختارته لها أمي على أحد جدران الغرفة. "كُهنِه المسمار جاهز، سبحان الله! إلو سنين مدقوق بهالمكان متل يللي عبيستناها" قالت وقد حرصت على أن تكون معي لحظة تعليق اللوحة في غرفتي ليلة وصولها، وكأنها تزف لي عروسي إلى الفراش.

"بالسقف؟!" غمغم الباشا، ثم وعدني بأن يحل لي المسألة مساءً، وأغلق السماعة كعادته فجأةً معلناً بذلك انتهاء المحادثة. "إشو هاي اللوحة يللي بدك تعلّقا بالسقف؟" تساءل أبو ابراهيم.

"فرجيني لشوف" قال الباشا وقد استلقى على سريري بعد أن نجحت حيلته في تثبيت اللوحة إلى السقف. "يا عيني عليك!" صاح مبتهجاً، وظل محتفظاً لبرهةٍ بابتسامة مرحة بينما يتأمل فتاتي المستلقية على السقف فوقه، والتي بدت بدورها وكأنها تبادله التأمل بعينيها اللامعتين. "تفضل قوم أشربك قهوة" قلت، وقد بدأت أرى في ابتسامته تغيراً مقلقاً. "إي ما تخاف! كنت بس عبتطمن إني ما اشتركت بارتكاب جريمة سخيفة بحق لوحتي" قال بعد أن أطلق ضحكةً كالعواء، وقد بدا عليه ضيق المصروف عن حلمه.. الحلم الذي لم أدرك مدى خطورته إلا بعد أن استلقيت بنفسي على السرير تحتها فور أن غادر.

أين كنتِ عني كل تلك السنين؟ سألتها في جوىً سحيق في أولى لياليناء بعد أن سرحنا طويلاً في عيون بعضنا. وأطبقت جفنيّ على دموع لها دفء الخشوع.

لا أذكر أني قد استيقظت مبتسماً في يوم من الأيام، غير أن ابتسامةً عذبة المذاق تسللت إلى شفتيّ ذلك الصباح حين فتحت عينيّ فوجدتها قد استيقظت قبلي، وظلت مستلقيةً فوقي تتأمل وجهي النائم بعينين مشرقتين إشراقة صباحٍ أزلي.

"صباح الخير" همست لها بعد طول تأمل، وقد ضممت اللحاف الدافئ إلى وجنتيّ الباردتين. وما نهضت عن السرير إلا مكرهاً بعد أن سمعت نداء أمي توقظني من خارج الغرفة على غير عادتها من دون أن تدخلها، وكأنها خجلت من الدخول على العروسين في صباحيتهما.

كففت يدي بعد أن مددتها لأفتح الباب، وعدت إلى عروسي. وقفت على السرير وطبعت قبلةً خجولاً على شفتيها، وغادرت الغرفة.

إلى ملاكي الطينيّ

مَثَلُ حياة المرء قبل الحب، كمثل من ألفى نفسه حبيس لوحةٍ عُلِّقت بين ملايين اللوحات على جدار هائل اسمه الدنيا. فيظن ألا شيء في دنياه قادر على أن يبدل لوحته بأخرى سوى الممات. ويظل معتنقاً لهذا الظن اعتناقَ القلب لليقين، إلى أن يذوق طعم الحب.. فإذا بتلك اللوحة الأبدية قد تبدلت بلوحةٍ أخرى بطرفة عين، وإذا به هو نفسه قد غدا غير الذي كانه..

عبيل

سوريا/حلب 26 أيار 1986

الفصل الخامس والعشرون

لو أن هذه الوسادة هي كل ما كان ينتظرني في جنته المزعومة، لكان هذا كافياً لجعلي كثير الامتنان لذلك الوغد. فكرت بابتهاج، فور أن ألقيت رأسي على وسادة خلدون التي بدت بطراوة سحابة، مقارنةً بكيس الملاكمة ذاك في غرفة البنسيون. لكن، ولكي أكون أكثر صدقاً معكم، فعليَّ أن أشير هنا إلى أن الذي أبهجني في تلك الوسادة أكثر من رهافتها هو العطر النسائي الذي كان يضوع منها كلما أملت رأسي على كسائها الناعم، كما لو أنها صدر امرأةٍ عطِر. لكن (وأرجو أن تعذروني على كثرة استدراكي) إياكم أن تظنوا بأن عقلي الباطن قد تخلى هذه المرة عن ممارسة هوايته المفضلة: هدم لذاتي. إذ لم أكد أضع أولى قدميّ في جنة تخيلاتي حتى راح يحذفني بحجارةٍ التقطها من أكمة الفلسفة الأخلاقية في أرض إدراكي، بادئاً بحجر صغير على هيئة تساؤل عن مدى مشروعية انتشاء أحدهم بعطر امرأةٍ وضعته لغيره، ليتبعه بعدها بحجر أكبر، حول ما إذا كانت الخيانة مقتصرةً على الفعل وحده، أم أنها تشتمل على الخيال أيضاً. وهكذا، إلى أن رماني بصخرةٍ ألقتني بكليّتي خارج جنتي الغرائزية دفعةً واحدة: هل يستمرئ الإنسان نزعَ آدميته في وحدته؟

تقلّبت في الفراش أملاً بالوقوع في حفرة النوم، دون جدوى..

ثمة منفضة سجائر على الطاولة! تذكرت. فلن يعترض خلدون إذن على التدخين في غرفته مع استحالة الوقوف خارجها في مثل هذه الليلة الباردة. أضأت النواسة الحمراء وأشعلت سيجارة وجلست إلى الطاولة. فكرت بعبيل وبأوراقه التي تنتظر قراءتي صباح الغد. لم أواسه بوفاة والدته كما ينبغي، فكرت معاتباً نفسي. إن لنبأ رحيل الأمهات وطأةً أشد إيلاماً على الدوام. إذ تجد نفسك قد تحسست قلبك باغتمامٍ ظليم، كلما تلقيت نبأ وفاة أم أحدهم. ليس إشفاقاً عليه، بقدر ما هو جزعك من أن تكون الأم المقبلة هي أمك أنت.

تخيلت عبيل ماشياً في جنازة أمه وحيداً، حاملاً نعشها بين يديه كما كانت تحمله حين كان طفلاً رضيعاً، يغني في أذنها بصوتٍ خافتٍ كضوء الشموع: يالله تنام ريما، يالله يجيها النوم. يالله تحب الصلاة، يالله تحب الصوم. يالله تجيها العوافي، كل يوم بيوم.[26]

انتبهت إلى خيالٍ يشبه ظل حيوان بري فوق خزانة الثياب، بينما أتتبع بعينيّ سحابة الدخان التي نفثتها باتجاه السقف. نهضت عن الكرسي وسحبته إلى جنب الخزانة وصعدت فوقه. كان تمثالاً خشبياً صغيراً لغزالةٍ وقفت ملتفتةً إلى الوراء. أخذت الغزالة بيدي واستلقيت على السرير. كانت بديعة الصنع حتى لتشعر بأنها ستتفلت من قبضتك واثبةً عما قليل وتستأنف العدو. تذكرت بينما أتأمل التفاتتها بيت عنترة:

ورنت فقلتُ غزالةٌ مذعورةٌ قد راعهَا وسطَ الفلاةِ بلاءُ

ما الذي راعكِ أيتها الصغيرة من خلدون حتى وثبتِ إلى فوق الخزانة؟ سألتها. ثم ساءلت نفسي وقد خلعتُ بُردة عنترة: ما الذي حدا بهذا المجنون إلى تخبئة منحوتةٍ وديعةٍ كهذه فوق الخزانة؟ لكنني سرعان ما انتبهت إلى أن السؤال عن سبب قيام المجنون بفعلٍ ما، هو الجنون بعينه. فتراجعت عن سؤالي الأخير، مكتفياً بسؤالي الشعري إلى الغزالة.

لقد قال خلدون بأن عبيل يشبهه كثيراً. لم يكن من السهل التخلص بعد ذلك من تساؤلي الدؤوب عن وجه الشبه فيما بينهما كلما تذكرت خلدون. إلى أن زارني في دمشق في صيف عام 1991، أي بعد أربعة أعوام على عودتي من تلك الرحلة، كنت قد قضيت ثلاثة منها في الكويت، عدت خلالها إلى العمل الصحفي صاغراً، قبل أن أغادرها إبان الغزو العراقي سنة 1990. لم أتردد حينها، بعد كل تلك السنين، بإلقاء السؤال في وجهه، بينما كنا جالسين في مقهى النوفرة، بانتظار وصول أبو شادي الحكواتي. "بشو بتشبه عبيل؟" سألته دون مقدمات، بعد أن كان قد بذل الكثير من الجهد في محاولة التظاهر بالاهتمام بإجابتي عن سؤاله لي عن تجربتي في الكويت. بدا الارتباك على وجهه، كما لو أنه لم يعتد تلقي أسئلة غير التي استدرج مُحدثه إلى طرحها. لم يكن قد تغير كثيراً. وأعني هنا ظاهره، أما دواخله فلا أظنها قد توقفت عن التغير في يوم من الأيام. "ليش بدك

تعرف؟ ناوي تحكي هالشي بالكتاب؟" لم أجبه، إذ لم أعلم أي الإجابتين ستدفعه إلى الكلام، فاكتفيت بهز رأسي بلا معنىً، تاركاً الأمر لرغبته وحسب. "رح أحكيلك، بس بتمنى ما تنشر هالحكي بالكتاب" قال بصوتٍ خافت، منقلاً عينيه بين الجلوس حولنا. "أي كتاب يا رجل؟!" قلت منفعلاً بصوتٍ مسموع جذب بعض الأنظار إلينا، ثم انحنيت على الطاولة قائلاً بما يشبه الهمس: "ما عاد في كتاب أصلاً. تراجعت عن نشرو من زمان. بس ولا يهمك، ما رح أكتب شي من يللي رح تحكيه هلأ". تكدر وجهه، وقال بما يشبه العتاب: "ليش بطلت تنشر الكتاب؟". أربكني انزعاجه غير المفهوم أكثر من سؤاله المباغت الذي لم أكن قد حضرت نفسي باختلاق إجابة تنطلي على ثعلبٍ مثله. وينك يا سلمى! لو كانت حاضرةً الآن معنا لتكفلت من فورها بحبك كذبةٍ مواتية! "الكلام يللي حاكيه عبيل لحالو بيرميني ورا الشمس. وما بدي أحذف منو حرف" قلت مبرراً، وقد اجتاحتني رجفة ببرودة الأقبية لدى نطقي بذلك الاعتراف الناقص. نظر في عينيّ الخائفتين بارتياب "وإشو مشان الحكي يللي حاكيه إنت؟" سألني بنبرةٍ خطيرة، فشعرت كما لو أن دورية أمن سياسي على وشك اقتحام المقهى. ازدردت ريقي وقلت كاذباً: "لسا ما كتبت شي أنا" انفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ ماكرة، وقال متهكماً: "أيوا، ما كتبت شي قلتلي! أي لسا بكير.. ما عدّت غير أربع سنين" وقبل أن أرد قال في وجوم: "طيب يا سيدي مَي مشكلة.. قرّب، اسماع قصتي..".

لن أقص عليكم حكايته بكل تأكيد، فقد قطعت له وعداً بألا أفعل، على الرغم من إدراكي التام بأني إنما أحدث الآن أشباحاً ليس إلا، وقد عقدت العزم حقاً على عدم نشر هذا الكتاب. على أية حال، لن أبخل عليكم أيها الأشباح الأعزاء بالبوح بما اعتمل في صدري لدى انتهائه من سرد حكايته. وبهذا أكون قد التزمت بوعدي لخلدون، وجنبتكم في الوقت نفسه عناء التساؤل عن فحوى قصته. وفوق هذا وذاك أكون قد أتحت لنفسي فرصة البوح الذي لولاه ليغدو أشد القلوب نقاءً بئرَ سُمٍّ مردومة.

أنهى خلدون حكايته إذن مع تصفيق حار من الحضور لأبو شادي الحكواتي، الذي اعتلى كرسيه أخيراً لاستئناف حكاية الزير سالم من حيث توقف في الليلة الماضية. لم أتفاجأ حين رأيت خلدون يشارك الحضور التصفيق وقد أدار كرسيه شطر الحكواتي بسرور طفلٍ هانئ البال، كما لو أن الحكاية الأليمة التي انتهى لتوه من قصها لم تكن حكايته الشخصية. أما أنا، فقد أطرقت في كربٍ بهيم، متفكراً في كل ما مر به هذا الشقي، منذ انتهائه من خدمة العلم كأي شابٍ فتيٍّ نقيّ، يراقص الحياة أنى مدت إليه يديها، إلى أن غدا ذلك المسخ الذي هو عليه الآن. ربما يقول أحدكم مستنتجاً:

ألهذا إذن شبّه نفسه بعبيل على اعتباره مسخاً مثله؟ حسناً، ربما كان التشوه أحد أوجه الشبه فيما بينهما، وإن كان تشوه أحدهما ظاهرياً بينما شاه الآخر من داخله. غير أن الشبه الحقيقي، والذي أظن بأن خلدون قد عناه، إنما يكمن في كون كليهما ضحية؛ فالأول ضحية مجتمعٍ عليل لم يتقبّل شذوذ هيئته، والآخر ضحية دولة فسادٍ لم تتقبّل سواء سريرته.

"أترضون المذلة يا أهل قومي؟! الذل لا يرضاه سوى كل معيب" جلجل أبو شادي مُنشداً بلكنة شامية بائنة على لسان جسّاس، وسط هياج الجمهور. فابتلعتُ غصةً في الحلق جارحةً كالشوك..

الفصل السادس والعشرون

"بتغدر تجيبلي عنوانا؟" سألت الباشا بعد طول تردد دون أن أنظر إليه، وقد جلست على الأرض قبالته بينما كان منهمكاً بشد قماشة على لوح رسم عريض. "عنوان مين؟" سألني بعد إبطاء، فاسترقت نظرةً إليه. كان يحاول إخفاء ابتسامته خلف شفتيه المزمومتين تماهياً مع مهمته الدقيقة. "شذا" قلت أخيراً. كانت تلك أول مرةٍ أنطق فيها اسمها بصوتٍ مسموع، فسرت في عروقي برودةٌ محببة اقشعر لها جلدي، وأوقعت قلبـي. "مين شذا؟" قال في شرود، ثم صاح بنبرةٍ عصبية: "يا زلمة قوم امسكلي هاللوح بدل ما قاعد هيك عبتتفرج!" فنهضت من فوري واندفعت إلى اللوح بكلتا يدي باضطرابٍ كبير لا أظنه بسبب غضبه الذي كنت قد اعتدت أن أراه منه بين الحين والآخر في مثل تلك المهام، بل أظن بأن اضطرابـي إنما كان سببه سماع اسمها من فم غيري. أوقعت الباشا واللوح والمنضدة التي كان قد أوقف اللوح عليها، وكدت أن أسقط فوق كل هذا الركام لولا أن استعدت توازني بعد أن هويت على ركبتيّ.

"شذا السقف" قلت ببلاهة بينما أرفع المنضدة من فوقه، فزال الهلع عن عينيه وانطفأ غضبه وأطلق ضحكةً بدت كالبكاء المحموم. "قال شذا السقف، قال!.." راح يردد كعادته بينما يكبح ضحكته إلى أن هدأ تماماً. ثم نهض مستعيناً بيدي التي مددتها إليه، وأخذ ينفض الغبار عن ملابسه مغمغماً: "شذا السقف قلتلي!" ضحكت أخيراً كما لو أنني لم أستوعب سبب كل ضحكه ذاك سوى الآن، فقلت مصححاً: "قصدي شذا يللي بلوحة السقف" فقال مبتسماً بينما يعيد اللوح إلى المنضدة دون أن يلتفت إليّ: "لأ، خليها شذا السقف أحلى!" أطرقت مفكراً بمدى ضرورة تذكيره بطلبـي بعد كل هذه الفوضى التي أحدثتها حماقتي. "شلون عرفت اسما؟" سألني بينما يبتعد عن المنضدة وكأنه قد تخلى تماماً عن مهمة شد قماشته العنيدة. "أساميا مكتوبة بآخر الفيلم" أجبته. "بالإنگليزي؟" سألني. "إي" أجبت.

فنظر إليّ بارتباك وكأنه أراد أن يبدي تخوفه من عدم قراءتي للاسم بشكلٍ صحيح، لكنه آثر الصمت حفاظاً على مشاعري. فقلت كي أزيل الريب عن صدره: "اسمها شذا عمران" هز رأسه باطمئنان وقال بعد برهة من التفكير: "إي سهلة.. بنغدر نجيب العنوان من صاحب شركة الإنتاج بالشام.. إيش كان اسمو؟" فقلت دون تردد: "يوسف سليمان" وأردفت باضطراب: "بس ما بدي يعرف إنو أنا يللي بدي العنوان" فقال مبتسماً: "إي كمان هاي بسيطة. خلص اتروك الموضوع عليّ".

مساء اليوم التالي كان عنوانها كاملاً في الأردن بين يديّ. شكرت الباشا عند الباب بعد تمنّعه عن الدخول، وهرعت إلى غرفتي متجاوزاً أمي التي كانت تسترق السمع محاولةً فهم سبب مجيئه، إذ لم يكن قد مضى سوى أسبوع على زيارته الأخيرة التي ساعدني فيها بتثبيت اللوحة إلى السقف. أوصدت الباب واستلقيت على السرير، وقلت لها متعلثماً بعد تردد، دون أن أجرؤ على النظر في عينيها: "عنوانك صار عندي.. بكرة رح اكتبلك رسالة!".

كانت المرة الأخيرة التي أمسكت فيها بقلم هي عندما كتبت آخر كشف حسابٍ أملته عليّ أمي لإرساله إلى والدي، قبل أن أعترف لها بأن الرسائل تلك لم تُرسل قط مذ تركت المدرسة. كان الإمساك بالقلم بالنسبة إليّ على الدوام عملاً مربكاً لا يخلو من مشقة، نظراً لضآلة الأقلام قياساً بعرامة أصابعي، فكنت أجد صعوبةً بالغة في التحكم بها. غير أن المشقة تلك قد تبددت لحظة جلوسي لكتابة أول رسالةٍ إليها، فشعرت كما لو أن القلم بين إصبعيّ ليس إلا إصبعاً جديداً ناعماً نبت كالوردة الخفيفة، ليداعب وجه الورقة التي ستصير عما قليل بين يديها.

"عبتكتب الوظيفة27؟" قالت فطوم ابنة الجيران التي دخلت عليّ غرفتي في غفلة من أمها المنشغلة بالنميمة الصباحية مع أمي. كانت طفلةً شديدة القصر، حتى لتحسبها قطةً صغيرة دفعت الباب برأسها وانسلت إلى غرفتك. وضعت القلم من يدي وقلت في شرود محدقاً إلى عينيها الجميلتين الثابتتين ثبات العيون في الصور: "لا. عبّكتب رسالة" لا أعلم لمَ أخبرتها بأنها رسالة. ربما وجدتها فرصة مواتية لمشاركة سعادتي بذلك الفعل الجميل الذي ما كنت لأتخيل نفسي مقدماً على القيام به في يوم من الأيام: كتابة رسالة إلى الحبيبة!

"لمين؟" سألتني بنفس النبرة الواثقة، وتقدمت نحوي بأريحية دون أن تبدو على وجهها أي دلالات تشي بأدنى خوف أو حتى حذر. ثم جلست على طرف السرير بعد أن تسلقته بمشقة. أربكني

اقترابها مني إلى هذا الحد، فأنا لم أجالس الأطفال سوى في طفولتي.. قبل أن أغدو وحشاً مخيفاً يخشى الأطفال الاقتراب منه.

كنت قد سألت الباشا ذات يوم عن سبب خوف الأطفال مني، وحين رأيت التعجب في عينيه، شرحت موضحاً بأني عنيت ما الذي يجعل الطفل يراني مخيفاً من الأساس؟ لماذا لا ينظر إليّ على أني مخلوق دميم غريب القوام وحسب؟ أليس من المفترض لمن هو ببراءته وانعدام خبرته ألا يحكم على كائن ما بأنه مخيف إلا إذا أتى أمامه بفعل عدائي يحمله على الخوف؟ أطرق الباشا برهةً طويلة وكأنه قد وجد الآن ما ظنه للوهلة الأولى بديهي الإجابة عصياً على التفسير. "يمكن من القصص يللي بتنحكى قبل النوم" قال أخيراً دون أن يرفع وجهه، وكأنه لم يزل يبحث في طفولته أسفل ركبتيه عما حداه شخصياً إلى مثل هذا الاعتقاد. قلّبت بدوري الحكايات التي كانت تقصها أمي عليّ في طفولتي، فلم أعثر فيها على أي عملاق أو مسخ. كان الكائن الوحيد المخيف في كل حكاياها ذئب ليلى. لماذا تجنبت أمي أن تقص عليّ قصص العمالقة والمسوخ تلك ما دامت قصصاً معروفة لدى الأمهات؟ أتراها أحست بأن هذا الطفل الدميم المستلقي على فراشها سيستحيل عملاقاً مخيفاً عما قريب؟ "متل إيش هالقصص؟" سألته. فرفع وجهه، وقال متجنباً النظر في عينيّ: "جاك وشجرة الفاصوليا السحرية، مثلاً" فسألته أن يقصها عليّ، ففعل بعد تردد. "بس الشرير بهالقصة هو جاك، مو الوحش العملاق!" قلت معترضاً اعتراض طفل لم تعجبه حكاية جدته الخرفة. فابتسم وقال مصدقاً: "إي معك حق. هالقصة أساساً بتحرض على الجشع وبتشرعن النهب والقتل.. طالما يللي عبننهبو وبنقتلو حدا ما بيشبهنا" لذت بصمتٍ بهيم، وقد راعني ألا أكون في أعين الأطفال مسخاً مخيفاً وحسب، بل وحشاً يستحق القتل..

أغلقت الدفتر قبل أن تتمكن فطوم من استراق النظر إلى ما فيه، وأجبتها بانفعال بائن: "مو لحدا" فاتسعت حدقتا عينيها المنتبهتين وانفرجت شفتاها الرقيقتان عن ابتسامةٍ محببة، وقالت محدقةً إلى عينيّ القلقتين: "إي أنا كمان بلعب دايماً بالبيت مع ولا حدا" هنا جاء صوت أمها من غرفة الضيوف: "ولك فطوم.. وينك يا مقصوفة الرقبة؟" فقفزت عن السرير من فورها برشاقة القطط وخرجت دون أن تودعني، لكنها التفتت إليّ قبل خروجها كما لو أنها أرادت قول شيء ما، ثم تراجعت عنه.

وضعت الدفتر جانباً وقد تملكتني مشاعر ملتبسة، ووقفت أمام النافذة المطلة على شجرة ليمون أظنها بعمر زائرتي، وإن كانت بنفس طولي.

كيف بوسعهم أن يزرعوا الخوف والكراهية في قلوب هذه الكائنات الصغيرة الوديعة؟ تساءلت متتبعاً بعينيّ ذبابةً تحبو على منخل الشباك.

لو أنني وُفقت إلى الزواج بشذا، ورُزقنا بطفلٍ كأي كائنين مؤهلين للتكاثر، فربما ستكون حظوظ مجيئه بنفس علتنا أكثر وفرةً من غيرها من الاحتمالات. لكن ماذا لو أنه جاء طفلاً عادياً؟ كيف يمكنه تقبّل اختلافه عن هيئتينا؟ بل لنقل كيف يمكنه تقبل اختلاف هيئتي والديه عن سائر البشر؟ هل سيكون عدم خوفه منا كافياً لضمان تقبله لنا، أو حتى محبته كما يحب أي طفل والديه؟ أيُّ وداعةٍ تلك التي سأرجوها في طفل وجد نفسه مرغماً على النشوء في كنف وحشين منبوذين؟ وأي روحٍ معذبة تلك التي ستسكنه وهو ابن طُرفتين تُضحكان عليه أترابه؟ فكيف إذا جاء بنفس علة والديه كطرفةٍ إضافية؟

هششت على الذبابة فطارت واختفت في شجرة الليمون.

لا. إن زواجاً مثل هذا إن وقع، فسيتوجب علينا التخلي عن فكرة الإنجاب بلا ريب. فهو إنجاب برتبة جريمة اغتيال. قررت أخيراً، بينما أتأمل أوراق الليمون الخضراء.. خضرة الحب في قلبـي..

تحية، وبعد

ترددت كثيراً قبل الكتابة إليكِ. ولست أدري حقاً ما إذا كنت سأرسل هذه الرسالة، أم سأمزقها فور انتهائي من كتابتها كما مزقت سابقاً كل قرار اتخذته قبل الشروع بتنفيذه.

أظنكِ قد تلقيتِ مثلي نسخةً من الفيلم. أنا عبيل، عملاق صحراء تدمر. لا أعلم سبب تركك في الفيلم بغير اسم. لكن ربما لو كنت أنا مخرج العمل لاتخذت نفس قراره، حتى وإن كنت قد حضّرت لكِ مسبقاً أحد الأسماء المناسبة. فأنت كتلك المشاعر المبهمة التي تعترينا مرةً في العمر، فنقف عاجزين أمام وصفها، ولا نعرف لها اسماً.

لقد أحببت اسمكِ الحقيقي بالمناسبة، ووجدت فيه إنصافاً كبيراً. لكنه إنصافٌ للعطر، لا لكِ أنت.

لحضورك قداسةُ نور ملاك، ولوجهك هدأة طينٍ نديّ..

هل تحبين الأطفال؟

دخل عليّ قُبيل قليل مخلوقٌ صغير، بوداعة قطط البيوت. إنها فطوم ابنة الجيران. ما أحلاها! تبدو طفلةً شديدة الذكاء. سألتني لمن أكتب هذه الرسالة، فلم أخبرها. ربما لو سألتني في المرة المقبلة، فسأقول: إلى ملاكي الطينيّ..

عبيل

سوريا/حلب 6 كانون الثاني 1986

الفصل السابع والعشرون

يبدو بأن الحياة قد أنصفت عبيل أخيراً، بعد أن حرمته من سكنى القلعة بسبب خلل جغرافي وتاريخي بائن. فكرت برضاً، بينما أتأمل ڤيلا الباشا وقد فُتنت بجمال عمارتها وبديع كسائها الحجري الأبيض المطعّم بالنحوت الفنية المتقنة، وحديقتها الغنّاء بأسوارها العالية وأشجارها الفارعة الموشاة بزقزقة العصافير.

كان الطقس بديعاً صباح ذلك اليوم، بسماء صافية وشمس ظريفة الدفء، فقرر خلدون أن يسترخي قليلاً في الحديقة تحت شجرة لوز مزهرة، لتناول فنجان قهوة دعاه إليه حارس الڤيلا، على أن يمضي بعد ذلك إلى مكتبه ثم يعود إليّ مساءً ليعيدني إلى وكره الغرامي. أما أنا فقد كانت أوراق عبيل التي بانتظاري أشد إغراءً بالنسبة إليّ من تلك الحديقة بأزهارها وأشجارها وقهوة الحارس التي كنت بأمسّ الحاجة إليها بعد أن تفاجأت بأن وكر خلدون لا يتوفر على ذرة بن واحدة.

كان عبيل قد خرج لاستقبالنا، فتبعته عبر صالةٍ رحبة خالية من الأثاث إلى أن بلغنا باباً ضيقاً أسفل السلم. "ساكن بالقبو؟!" سألته غير مصدق لاحتمال أن يكون صديقه الوغد قد ترك كل هذا المكان الرحب خاوياً على عروشه ليُلقي بهذا المسكين في سردابه. التفت إليّ وغمغم بكلمات لم أفهمها، لكنني فهمت من ابتسامته الخجول بأن الأمر ليس كما يبدو عليه من السوء. فتبعته مستسلماً لصفاء سريرته، ورحت أراقب كيف يحدر الدرجات أمامي بخفة خنفساء وقد حنى ظهره عن آخره فبدا كحشرةٍ عملاقة تعود إلى وكرها.

سرت القشعريرة في جسدي فور أن وطأت قدماي أرض المرسم. فجدرانه الرمادية وإضاءته الخافتة، ولوحاته الغريبة المحمولة على حاملات الرسم الخشبية المنتصبة في أرجائه

كشواهد الأجداث، كل هذا جعلني أشعر كما لو أنني دخلت إلى حلم مخيف، يراه الآن في منامه شخصٌ غريب في مكان ما.

ثمة قوة خفية رفعت عينيّ إلى أعلى الجدار المقابل فور أن اجتزنا الشواهد الملونة، فوقع قلبـي لمهابة ما رأيت. إنه عبيل كما لم أره من قبل! تخيلت راسم البورتريه واقفاً إزاءه من هذه المسافة القريبة حد الالتصاق، ممسكاً بلوح الرسم والفرشاة في خشوعٍ جليل، تحت قبة المشهد المهيب، بينما تعصف في أذنيه أنفاس الوحش المختلجة. لقد رُسمت هذه اللوحة لتكون غلاف روايتي التي يبدو بأني قد بت قريباً من الشروع بكتابتها! فكرت وقد مُسست بمشاعر مبهمة حيال هذه الفكرة.

منحني عبيل كامل وقتي لتأمل اللوحة، ثم طلب مني أن أتبعه، فأدخلني حجرة كبيرة في الركن القصي من السرداب، كانت تحتوي على خزانة ملابس بدرفتين، وسرير حديدي مديد فُصِّل ليناسب طول قامته، وكنبة غريبة عالية بدت هي الأخرى مصممة خصيصاً له، بالإضافة إلى طاولة شاي عادية، وُضعت بين كنبة عبيل وكنبة أخرى بمقاس طبيعي.

جلس عبيل على كنبته وجلست أنا على الكنبة المقابلة، وقد وُضع على الطاولة بيننا صندوق من الورق المقوّى. "عندي بالبيت شي بيشبهون، بس طبعاً هدول أرتب. خليل باشا فصّلّي إياهون عند أشطر حداد بحلب" قال وقد رأى الدهشة في عينيّ إزاء كنبته والسرير. هززت رأسي مبتسماً لحماسته الطفولية في التحدث عن أثاثه المميز، ثم سرحت في الفكرة التي لم تكن قد خطرت ببالي رغم بداهتها، وهي أن رجلاً بمثل حجمه الاستثنائي لا بد وأن يكون له أثاث استثنائي، ولا شك أيضاً بأن الأمر ينطبق على مقعد المرحاض الذي يستخدمه، وربما المغسلة أيضاً، ناهيك عن ملابسه وأحذيته. إن المرء منا ليجدُ كل ما في هذه الدنيا قد صُنع مسبقاً ليناسب مقاس جسده من غير أن يكلف نفسه عناء طلب ذلك، ثم لتجده بعد هذا كثيرَ التبرم والتذمر، شكاءً بكّاءً غير راضٍ عن حظه من الدنيا، فإذا سألته وصفَ حياته لأجاب في سخط وغمّ: أعيش حياةً بائسة! أما عبيل وكل من خُلِقوا بعلةٍ جسدية، فيجدون أنفسهم في عناء دائم مع أبسط ضروريات حياتهم اليومية، وكأنهم مخلوقات فضائية تعطلت مركبتهم فسقطت بهم على كوكب لا يتناسب مع أجسادهم. ربما لو كانوا حقاً كذلك لسارعنا إلى إنشاء عالم صغير على كوكبنا، يناسب ضيوفنا الأعزاء من المجرة البعيدة، ذوي الأجساد المميزة.

لكنهم، ويا لسوء حظهم، ليسوا سوى بشر مثلنا، بأجسادٍ مشوّهة، فلن يكون لهم منا إذن سوى ما اعتدنا إبداءه إزاء أي مسخ من تندر وتقزز ونفور، أو تجاهل في أحسن الأحوال.

إن غربة الاختلاف لهي أقسى وأشد وطأةً على القلب ألف مرة من غربة المكان.

"هاي الكرتونة فِيا كل شي كتبتو" قال بصوتٍ خفيض، وصمت برهة دون أن يرفع عينيه عن الصندوق، وكأنه يفكر بالتراجع مرةً أخرى. ثم تمتم أخيراً بصوتٍ خجول: "ورسائلي لشذا". قربت الصندوق إليّ وألقيت نظرة على محتواه. كان فيه كدسٌ من الصحائف المكتوبة بحبر أزرق، وُضعت فوقها رزمة الرسائل التي سكنت حقيبتي ذات يوم بعيد لدقائق معدودات. كنت سأسأله عن الدور الذي يتوقع مني القيام به، لكن خشيت أن يدفعه السؤال إلى التراجع حقاً عن قراره، فاخترت التروي ريثما أنتهي من قراءة كل ما بداخل الصندوق. "فيني بلش قراءة من هلأ؟" سألته كي أحسم المسألة، فقال بعد تردد: "إي أكيد" وتلفَّت حوله بارتباك كما لو أن المكان قد صار فجأةً يخصني أنا، وأنه لم يعد سوى متطفل على خلوتي. "أنا رح اتركك هلأ، وبرجع بعد كم ساعة" قال متلعثماً بينما ينهض، ثم غمغم مستدركاً: "طبعاً بتغدر تقعد بالجنينة[28] إزا بدك.. قصدي إزا كنت حابب تدخن وانت عبتقرا..". أسعدني اقتراحه هذا، إذ لم أكن أحبذ المكوث في ذلك الكهف المخيف، بينما تقع جنة مشمسة على ارتفاع بضع درجات.

حملت الصندوق بعد أن غادر متهادياً كشراع سفينة هائلة تمخر عباب البحر، وتوجهت إلى لوحته لأتأملها من جديد. لقد رأى راسم هذه اللوحة في عبيل ما لم أره في أشد تخيلاتي الصوفية تطرفاً مذ قرأت رسالته إلى شذا.

صعدت إلى الحديقة، وجلست تحت شجرة اللوز. كان فنجان خلدون لم يزل على الطاولة. بحثت بعينيّ عن الحارس، فأقبل إليّ مسرعاً فور أن رآني، وعرض عليّ القهوة من تلقاء نفسه.

ما أعجب الإنسان! تفكرت حين وضع الفنجان أمامي بوجهٍ بشوشٍ مبتسم، فيه من القناعة والرضا ما يجعلك تظن بأنه صاحب المكان لا أحد سواه. ربما لو مرَّ نفس الحارس بهذه القيلا مرورَ عابر، لتحرك الحسد في صدره تحرُّكَ الثعبان في جُحرٍ سخين. لكنها الآن مَعين رزقه، لذا فإن مشاعره تجاه أهلها قد استحالت من غلٍّ إلى امتنان، بل وعرفان وشكر للذي أعطاهم من نعمه، ما أفضى إلى اتصال بعض بعضها اليسير إليه.

لا أعلم من الذي قال إن القناعة كنزٌ لا يفنى. أما أنا فأقول إن قناعة الفقراء كنز الأثرياء الحقيقي الذي تفنى ثرواتهم بفنائه.

مع آخر رشفة من ثالث فنجان، كنت قد انتهيت من قراءة جميع أوراقه. هرست السيجارة في المنفضة وقد اختلج في صدري ضيق شديد. نهضت بتثاقل من حمل على كتفيه بؤس الدنيا بأسرها، ولم أعِ بنفسي إلا جالساً على كنبته الغريبة في السرداب. لا أعلم ما الذي دفعني إلى الجلوس عليها.. ربما قصدت الانسكاب في ملكوت أحزانه من خلال الجلوس على عرشه بعد أن قرأت حكايته وعملت في قلبي ما عملته. لقد كان للجلوس على كنبته وقعٌ مهيب، أثار في نفسي التقزز من ضآلة جسدي.. أو ربما ضآلتي..

الفصل الثامن والعشرون

وقفت على الناصية المقابلة لمركز البريد وقفةً مواربة وراء عمود كهرباء، بينما ينهمر الماء بلا هوادة كالسيل على رأسي.

"لوين طالع بهالطقس؟" كانت أمي قد سألتني متفحصةً بعينيها المخبرتين هندامي بينما أهم بالخروج. فتحت الباب للتحقق من الطقس الذي تعنيه، كانت السماء ملبدةً بغيمٍ ثقيل. "إيشبو الطقس؟" سألتها متظاهراً بعدم تفطني إلى أن السماء موشكة على دلق بحر بأكمله فوق رأس المدينة عما قليل. "إذا رايح على شي مديرية ما رح ينبسطو بدخلتك عليهون وانت عبتشرشر ميّات بمكاتبون متل عصاية المسّاحة المقلوبة" قالت بفم متبرم، بينما تتفرس جيوب معطفي وكأنها تفكر بالقيام بقفزةٍ فجائية لانتشال الرسالة التي لا بد وأن تكون مخبأة في إحداها، والتي يبدو بأن الواشية فطوم قد أخبرتها قُبيل ساعة بأني كنت أكتبها. "إي ما رح ينزل مطر قبل ساعتين" قلت مكابراً. "مشواري كلو نص ساعة" أضفت بنظرة متحدية وقد لمحت في عينيها نية منعي من الخروج.

الماء لا يكف عن انهماره. يدي تتحسس صدري كل قليل بأصابع ملتبسة لمعاينة البلل خوفاً على الرسالة المخبأة في الجيب الداخلي من التلف. أحاول تخيل تصميم المبنى من الداخل ليتسنى لي تقدير عدد الموظفين الذين سيتوجب عليّ المرور بهم قبل بلوغ الموظف الذي سيستلم الظرف مني ويمهره بالطابع البريدي. أتلفّت في الطرقات الخاوية من حولي فيفزعني كم المراجعين الذين لا بد وأن يكونوا الآن محاصرين داخل المبنى بانتظار توقف المطر، والذين كم سيسرهم بلا ريب دخولي عليهم كعرض سيرك مجاني غير متوقع، مهدىً إليهم من السماء كتعويض على احتجازهم، لتزجية وقتهم ريثما يتوقف مطرها.

التصقت بالعمود الخشبـي وتشبثت به تشبث الطفل بساق أبيه. لطالما كانت لهذه الأعمدة في نفسي قُربةٌ روحية مبهمة، فإذا مررت بأحدها أو وقفت بجانبه، شعرت بشيء من الخدر المشوب برهبةٍ دفيئة يفضي إليها إحساسٌ لا أعرف له وصفاً، وليس بوسع أحد منكم أن يدركه إلا إذا كان محروماً مثلي من الوقوف إزاء من هم أطول منه.

توقفت بجانبـي سيارة أمنيّة بيضاء كالأشباح. أنزل مرافق السائق نافذته السوداء دونما تردد، متنازلاً عن حمايتها، متحملاً صفعات الريح المتشبعة بالماء على وجهه، في سبيل إلقاء تعليق ساخر في وجهي. لم أستطع تبيّن كلماته جيداً، غير أن الضحكة الداعرة التي أطلقها رفيقه من وراء المقود أفهمتني بأنه كان تعليقاً بذيئاً موغلاً في الإهانة. ظل محدقاً إلى عينيّ برهةً بعينين وقحتين، ممنياً نفسه ربما بأن أرد عليه إهانته، لكنني كسرتُ عينيّ في مذلةٍ كما ينبغي. "هويتك ولا بغل" قال في سخط، فكانت البطاقة بين يديه في ثوانٍ رغم تخبط يديّ بين جيوبـي بهلع مَن انفجر بين قدميه عش دبابير. ألقى عليها نظرةً سريعة، وترنّم ضاحكاً بينما يعيدها إليّ: "مريم مريمتي.. وعيني مرياما"[29] لامزاً أمي التي قرأ اسمها في البطاقة. ثم جعجع زاجراً: "خود إمك يللا - يقصد عمود الكهرباء - وانقلع عالبيت ولك حيوان! حاجتك واقف لهالناس متل راس الغول المدحوش بخازوق مصدّي" أغلق النافذة دون أن ينتظر تنفيذي لأوامره، إذ يدرك جيداً بأني سأفعل دونما إبطاء. تتبعت السيارة بعينين ذليلتين بينما تبتعد موليةً لي ظهرها الموشوم بشعار حزب البعث.

تحسست قلبـي من خلف الرسالة، لاعناً نفسي وهيئتي والحياة بأسرها والناس والعيون والأفواه والسماء والمطر والبعث وفروعه الأمنية.. ولاعناً شذا القصيّة..

استدرت أخيراً باستسلام نهائي، ومشيت نحو البيت بانكسار مهيض، بخطىً ثقيلة لم أقوَ على حثها رغم اشتداد المطر، ورغم ما اعتراني من رغبةٍ جامحة في الركض، ركض لا نهائي، ركض لا ينتهي بالوصول.. بل بالموت وحده.

دلفت إلى غرفة الغسيل في الحوش بعد أن حرصت على فتح باب السور دون إحداث جلبة كي لا تفطن أمي لوصولي. كان ثوبها المنشور على حبل الغسيل يتهادى وحيداً تحت السقف الخرساني مثل غرابٍ مشنوق. مسحت بثوبها وجهي وجلست إزاءه بتذلل المتمسِّح بمقام وليٍّ وقد أنهكته الحياة وأثقلت كاهليه الذنوب.

لا تتركي كفي بلا شمسٍ

لأن الشجر يعرفني

تعرفني كل أغاني المطر

لا تتركيني شاحباً كالقمر

آه.. كالقمر..

لا أدري ما الذي بعث هذه الأغنية[30] من غياهب ذاكرتي، دون غيرها من الأغنيات، في تلك اللحظة المعتمة. لكن يبدو بأن هذي هي حال الأغاني التي تحرك شيئاً ما بداخلنا لدى سماعنا لها أول مرة، دون أن نعرف حينها كُنهَ ذلك الشيء. إلى أن تنبعث فجأةً في لحظةٍ ما، فندرك أن ذاك الذي كانت قد حركته، إنما كان كرسياً اتخذته لنفسها في حجرة الروح، ثم أطرقت في سكونٍ ترتقب أن ينادي عليها جرحٌ ما سيأتي. فإذا أتى، نهضت وعانقته.

عارٍ من الاسمِ من الانتماء

في تربةٍ ربيتُها باليدين

أيوبُ صاح اليومَ ملءَ السماء:

لا تجعلوني عبرةً مرتين..

يا سادتي.. يا سادتي الأنبياء!

تفقدت الرسالة بعد أن هدأت نفسي. لم يكن قد أصابها أي بلل، فأعدتها إلى الجيب السري، ونهضت بعد أن قبّلت رداء مريم، ودخلت المنزل وانسللت إلى غرفتي. كانت واقفةً بثوب صلاتها الأبيض أمام النافذة مثل ملاك، تعاين بللي في شجرة الليمون.

كان عليَّ العثور إذن على شخصٍ ما، ينوب عني في مهمة إيصال الرسائل إلى مركز البريد، كما كانت تفعل الدكتورة هالة مع رسائل أمي إلى والدي. لم يكن الباشا خياراً وارداً بكل تأكيد، إذ لا يمكنني أن أجرؤ على مجرد التفكير بتكليفه بمثل هذه المهمة التي لا تتناسب مع مكانته

الرفيعة، حتى وإن كان يُبدي الكثير من التواضع في علاقتنا. لم يكن لديّ إذن سوى أبو عبدو الزبال، فهذان هما صديقاي الوحيدان، ولا بأس في إطلاع هذا الصديق أيضاً على سري ما دمت قد أطلعت الآخر عليه. رحب أبو عبدو بمهمة ساعي الغرام بسرور لم أتوقعه، وكأن القيام بمثل هذا الدور كان أحد أمانيه القديمة التي كان يظنها مستحيلة التحقيق، أو ربما ما أثار كل هذا السرور في نفسه حقاً هو التحول، ولو للحظات قصيرة على مدار العمر، من ساعي قمامة إلى ساعي بريد العشاق.

"صاير عبتشرد كتير ولك سيبة! لا تكون عشقان!" قال المعلم أبو فادي ضاحكاً بسخرية في استراحة أول يوم في الورشة الجديدة. "لا، معك. مالي شارد" أجبته بينما أصب له الشاي وقد اقتعدت الأرض قبالته. "والله؟ طيب عن إيش كنت عبحكي؟" قال مختبراً، ومزَّ من كأسه مزةً طويلة "عن عرس ابنك فادي، الله يحميه" أجبت واثقاً من صحة الإجابة، إذ لم أكن بالفعل شارداً عن كلامه، بل كنت في الحقيقة شارداً فيه. تخيلت نفسي جالساً بين أمي وعروسي شذا بفستانها الأبيض كشجرة ياسمين، وقد ارتديت بدوري بدلة عرس أنيقة كإحدى التي يرتديها خليل باشا بين كل حين. "أوعك ما تجي ع العرس ها!" قال متوعداً، ثم أردف بنبرة آمرة: "وبتجيب الوالدة معك" فكر برهةً وقال ضاحكاً: "بلكي بتلاقيلك بين هالصبايا شي عروس ع مقاسك" وضعت كأس الشاي من يدي، ونهضت لمتابعة حف الجدار بيدٍ متشنجة.

"ياما تحايلت عليك تترك هالمصلحة وتجي تشتغل معي، بس حضرتك ميبّس راسك" قال الباشا فور أن أخبرته بعدم رغبتي في الاستمرار بالعمل مع أبو فادي. كنت قد وجدته جالساً في حديقة الڤيلا يراقب الغروب من ركنه المعتاد في مثل هذا الوقت من اليوم. "ما بدي اترك المصلحة. بس ما عاد بدي اشتغل مع أبو فادي" أجبت، بينما أتمنى في قرارة نفسي أن يكون هذه المرة أكثر إصراراً على اشتغالي معه. "ليش إيش عمل أبو فادي؟" سأل بغضب والدٍ يحمي ولده. "ما عمل شي" أجبت، ثم أضفت بصوتٍ خافت بعد تردد: "بدو يعمل عرس". أطلق الباشا كما توقعت ضحكته المدوية، وأخذ يردد كعادته ما قلته لتوي إلى أن هدأ تماماً. "بدك تترك الشغل معو مشان بدو يعمل عرس؟ ليش عرس مين؟" تساءل مبتسماً ابتسامة رجل يجاري طفلاً يحاوره. "عرس إبنو، وما بدي أروح" قلت. فقال بانفعال: "إي لا تروح! وين المشكلة؟ هَي أنا، ياما انعزمت على أعراس وما رحت.. مين قلك إنو حضور الأعراس إلزامي؟!". نظرت طويلاً في عينيه محاولاً أن أستمد منهما ولو بعضاً يسيراً من ثقته تلك. كان لانعكاس حمرة الغروب في زرقة عينيه ألقٌ بديع، كاللهب في ذيل طاووس. "بس

حضرتك خليل باشا! وانا يا دوبك شقفة شغيل عند صاحب العرس" قلت مستشعراً مرارة مُغثية في حلقي. "إي خلَص معناتا، اعتبر حالك من اليوم مالَك شغيل عندو. أنا فعلاً محتاجك تشتغل معي.. ويا سيدي هالمرة بمخزن القماش مو بالمحلات.. يعني ما حدا رح يشوفك غيري أنا والعمال يللي بيسلموك البضاعة.. يعني هلأ ما عاد عندك حجة". أومأت برأسي موافقاً وقد غمرتني سعادة كبيرة وشعرت بارتياح من رُفعت جبالٌ عن كاهله. "إيش أخبار شذا؟ لسا ما ردت عليك؟" سألني وقد أحس بأني موشك على شكره. "لا، ما بعتَت شي لهلأ" أجبت. "إشقد صرلك باعت الرسالة؟" سألني. "شي إسبوعين" زفرت بحسرةٍ وضيق. "إي مَي مشكلة.. أنا لو محلك برجع ببعت مرة ومرتين وتلاتة بدون ما استنى رد منّا". نظرت إليه مستغرباً نصيحته، فقال إن رسائل الحب لا نكتبها لكي نتلقى جواباً عليها، بل نكتبها كاستجابةٍ منا لخفق القلب. أثارت فكرته تلك إعجابي ووجدت فيها من الوجاهة ما يكفي لتبنيها. كما أنها وفرت لي مخرجاً مريحاً وآمناً من قلاع الانتظار الخانقة التي كانت أسوارها تتعاظم ارتفاعاً يوماً إثر يوم مذ وضعت الرسالة في يد أبو عبدو. خرجت من المرسم واتجهت من فوري إلى منزل المعلم أبو فادي. أخبرته بعدم رغبتي بمواصلة العمل في الدهان متذرعاً بأني كنت في زيارة للطبيب ونهاني بشكل قاطع ونهائي عن الاستمرار في العمل في هذه المهنة التي باتت تشكل خطراً حقيقياً على حياتي. "لا، بعيد الشر عنك، كلو إلا صحتك.." قال متظاهراً بتصديق ادعائي بينما يجر سحّاب بيجامته النيلون على صدره صعوداً ونزولاً، ثم دخل منزله للحظات ليعود إليّ حاملاً مبلغاً من المال يفوق أجرتي المستحقة. "سيبة!" صاح من خلفي بعد أن ابتعدت قليلاً، فالتفتّ إليه. "أوعك تنسى تجي الخميس ع العرس ها". قال. فأومأت برأسي مغمغماً بكلام بلا معنى، ومضيت.

في تلك الليلة كتبت رسالتي الثانية إلى شذا وسلمتها لأبو عبدو صباح اليوم التالي بينما نشرب القهوة معاً في حوش المنزل.

"مو تأخرت ع الورشة؟" سألتني أمي وقد خرجت إليّ في الحوش بعد أن غادر أبو عبدو حاملاً قمامتنا في عربته، وقلبي في جيبه. "كنت بدي قلك امبارحة بس لقيتك نايمة" قلت ممسكاً بيديها الصغيرتين، بينما كنت لا أزال جالساً على المصطبة، وقد أظلتنا عريشة الياسمين. "امبارحة عرض عليّ الباشا شغل جديد بالمخزن يللي عندو بسيف الدولة. وافقت رأساً وقلتلو للمعلم أبو فادي إني خلَص رح أترك" قلت بينما أتأمل التجاعيد التي يبدو بأنها غزت يديها مبكراً على غفلة مني، وربما منها. لم تعلّق على النبأ، فرفعت عينيّ ونظرت في وجهها. كانت عيناها الذابلتان تتأملانني في شرودٍ وديع، وداعةَ الأضواء المتدلية من ثقوب بساط الياسمين المختال فوق رأسها.

إلى ملاكي الطينيّ

لا شيء جديد. السيرك لا يزال فاتحاً أبوابه لعرضه المجاني الطويل. الجمهور في ازدياد، والمسخ لم يزل قادراً على إضحاكهم برغم فقراته المبتذلة. جماهير المقاعد الأمامية متحمسون دائماً أكثر من غيرهم. رجلٌ في الصف الأول جلس مُباعداً بين ساقيه يلقي على المسخ شتيمةً بذيئة من فرط هياجه، فيضج بقية الحضور بالضحك. امرأة في المقاعد الخلفية تطلق ضحكةً داعرة عند تعثر الوحش ووقوعه بشكل مأساوي، فتنفرج أسارير من أوشكوا على التعاطف معه، ويشاركونها نشوة الابتهاج. طفلٌ يعاين المسخ بعينين ذاهلتين، وأخته الكبيرة بجانبه تشد على يده هامسةً: "لا تخف. لقد أحكموا تقييده". بينما رجلٌ عجوز ينفخ متأففاً وقد أصابه الضجر من كثرة الإشفاق الذي وجد نفسه مُرغماً على إبدائه حتى الآن.

لا شيء جديد يا ملاكي. السيركُ دائر، والجمهورُ في ازديادٍ مضطرد. والمسخ ملتزمٌ بدوره: يُضحك الحضور، ويبتلع الإهانة..

عبيل

سوريا/حلب 30 تموز 1986

الفصل التاسع والعشرون

لم تكن النهاية الموجعة لحكايته مع شذا، برغم قسوتها، هي أكثر ما آلمني في كل قصته. إن الذي آلمني حقاً وأضرم كل هذا الحزن في صدري هو اطلاعي على ما وراء تلك الحكاية؛ لا الحكاية نفسها. إن الأمر يشبه أن يخبرك أحدهم بموت شخصٍ ما في حادثة احتراق منزله، فتجد قلبك قد انقبض، وإن كنت لا تعرفه بشكل شخصي. إذ يكفيك أن تتخيل لحظاته الأخيرة وهو يدور متخبطاً بين الجدران كالممسوس مطلقاً من فمه الفاغر كثقبٍ أسود في كرةٍ من اللهب صرخات مرعبة، بينما تنهش النيران وجهه بلا هوادة، بعد أن ابتلعت بقية جسده. غير أن انقباض قلبك إثر تخيل مشهدٍ مرعب كهذا، وأنت تدرك تمام الإدراك بأنه قد وقع حقاً، سرعان ما سيستحيل من مجرد انقباضٍ آنيّ إلى وجعٍ مقيم متعاظم، تتصاعد منه ألسنة رغبة ملحّة في الانتقام لذلك البائس، فور أن تعلم بأن احتراق منزله لم يكن مجرد حادثة قدرية، بل جريمة نكراء اقترفتها أيادٍ قذرة، قذارةَ حياة عبيل، الشقية المظلمة.

سمعت وقع أقدام تقترب، كان وقعاً رهيفاً يشي بخطىً رشيقة لا تشبه دبيب عبيل. نزلت عن عرش أحزانه ومشيت مسرعاً إلى الباب، فإذا بصاحب الحذاء الدقيق قد صار أمامي. كان رجلاً ضئيل الجسد بدا في عقده السادس. لوجهه لون الآنية النحاسية العتيقة فبدت التغضنات اللطيفة على جبينه وكأنها النقوش، وبدت عيناه الزرقاوان كحجرين كريمين رُصعت بهما الآنية في شقين دقيقين تحت حاجبين محبوكين بشُقرةٍ كامنة. لم يكن شعره أشيب تماماً، بينما اصطبغ صدغاه بشيب كثيف له لون الفضة اللامعة، وكذلك كان لون شاربيه. كان يرتدي معطفاً طويلاً من الجوخ الكحلي، فوق قميص أبيض، بينما لف عنقه بوشاح رمادي من الساتان المطرز بنقوش شرقية دقيقة. وكانت تضوع منه كلما تحرك رائحة عطر زكية، لها حدّة القودكا.

"خليل باشا" قال بأنفةٍ بائنة بينما يمد يده الرقيقة لمصافحتي. "هشام الأسعد" قلت بارتباك، إذ لم يسبق لي أن استقبلت ضيفاً في منزله. "حضرتك صاحب هالمرسم.." قلت لأؤكد له اعترافي بأني أنا الضيف هنا لا هو. وافق مبتسماً بإيماءة جليلة من رأسه وأشار لي بيده بحركة مهذبة كي أتبعه. أدخلني غرفةً في آخر السرداب أوصلنا إليها ممر طويل ضيق، كتلك التي تفضي إلى الحجرات السرية في القلاع الرومانية. كانت حجرةً مقنطرة السقف بُنيت بأكملها من الحجارة السوداء، فبدت كصوامع الرهبان في الأديرة القديمة. كانت تحتوي على طاولة مكتب كبيرة بكرسيٍّ منضود بكساء من المخمل الخمري، بالإضافة إلى كنبتين صغيرتين متقابلتين مكسوتين بجلدٍ عسلي داكن، وضعت بينهما طاولة شاي من الزان الموشى بنقوش ذهبية، رُصع سطحها بطعوم من الأرابيسك الصدفي. أما الجدار المشرف على الكنبتين، فقد رُصفت على مد طوله رفوف خشبية، رُصت فيها عشرات الكتب بمختلف الأحجام والعناوين. غير أن اللافت حقاً في تلك الصومعة رغم بداعة هذا كله، هو احتواؤها على نافذة عريضة خلف طاولة المكتب، تطل عليك من ورائها زهور وأغصان خضر، إذ جُعلت لهذه الغرفة على وجه التحديد حديقة سفلية يمكنك الخروج إليها من بابٍ بجانب الشباك، حتى لتنسى بأنك لم تزل أسفل الأرض.

"وين عبيل؟" سألته وقد التحقت به أخيراً وجلست على الكنبة الثانية، بعد أن أخذت وقتي في إشباع عينيّ بتأمل مكانه الساحر الذي تمنيت لو أتخذه صومعة للكتابة. "ليش، ما قلك؟" قال وقد بدت على وجهه دهشةٌ صادقة. "عن شو؟" سألته بارتياب. فارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ كمِدة بعد برهةٍ من التفكير، وكأنه قد استوعب الآن ما فعله عبيل. "يخرب بيتك يا جلال على هالعملة!" قال مُطرِقاً. "عملة شو؟" قلت بجِدّة. فأشار بيده بحركةٍ زاجرة ونهض من مكانه. توجّه نحو حائط المكتبة بينما أتتبعه بعينين قلِقتين. أخذ يمشي إزاء الرفوف بخطىً زاحفة، ممرراً سبابته على حواف الكتب. "بتصدق إنو جلال قرا تقريباً كل هالكتب؟" قال في شرود دون أن يلتفت إليّ. لمستُ في صوته أسى المتحدث عن ولده البعيد. "إي، هو ذكر بقصتو إنو قرأ كتب كنت تعيرو اياها، بس بصراحة ما توقعت إنها تكون بهالكم الكبير!" أجبته مُحاولاً إبداء اندهاشي. "إي معك حق تستغرب" علّق باعتداد معلمٍ بتلميذه، وقد عادت الحياة إلى وجهه. ثم قال مستدركاً بينما يسحب كتاباً ويتصفحه: "ع فكرة، أنا ما قريت غير رسايلو لشذا، أما اللي كتبلك اياه فطلب مني ما اقراه الا بعد ما يروح". "لوين بدو يروح؟" قلت متخلياً عن تعليقي الذي وددت أن أقول فيه بأني حظيت بعكس ما حظي به، إذ قرأت ما كُتب لي وأجلت قراءة ما كتبه إلى شذا ريثما أتخلص من عبء ما أعملته

حكايته في قلبـي. اجترح ابتسامةً تشبه العضّ على اللسان، بينما يغلق الكتاب ويعيده إلى مكانه، ثم عاد للجلوس قبالتي. "بالزبط.. هَي هي المشكلة" قال بنبرةٍ خطيرة. "أي مشكلة؟" سألته بقلق. فأسند ذراعيه على فخذيه دافعاً وجهه نحوي حتى شعرت وكأنه مشرف على تقبيلي، وقال بصوت خفيضٍ حذر كمن يفشي سراً بعد طول كتمان: "المشكلة إنو ما قلي لوين بدو يروح. بس وعدني يقلك إنت قبل ما يمشي". أطرقت قليلاً محاولاً البحث عن مشكلة حقيقية في كل هذا، ثم قلت أخيراً مغالباً ابتسامتي الساخرة: "طيب معناها رح يخبّرني قبل ما يمشي متل ما وعدك، ووقتها بنعرف لوين بدو يروح. وين المشكلة؟ لهلأ ما فهمت..". عاد بوجهه إلى الوراء مسنداً ظهره من جديد، وتطلّع في وجهي بنظرةٍ لم تعجبني، إذ كانت تشبه النظرة التي نرفعها بوجه شخصٍ ما، كراية استسلام بعد أن أتعبنا غباؤه.

قال الباشا أخيراً بعد أن تنهد: "المشكلة إنو خَلَص.. راح!".

الفصل الثلاثون

لم يجُل بخاطري يوماً، أن يكون في هذه الدنيا المتعِبة عمل مريح بوسع المرء أن يتخذه مهنةً دائمة يتقاضى عليها أجراً مجزياً آخر الشهر. حين استلمت أول راتب، ظننت بأن محاسب الباشا يود اختبار أمانتي، فبادرت من فوري بتنبيهه إلى قيمة المبلغ الذي سلمني إياه، فقال ضاحكاً: "إي هاد هو راتبك يا أستاز جلال!".

لا أعلم ما الذي يُسعد أمي حقاً، إذ ظننتها سترقص فرحاً حين دخلت عليها بذلك المبلغ الذي يعادل راتب ثلاثة موظفين في القطاع الحكومي، فإذا بها تقول بفم متبرم عاقدةً حاجبيها: "إشو كل هاد؟ بس ما يكون عبيتصدّق علينا حضرة الباشا!". وضعتُ النقود على الطاولة أمامها وجلست على الأرض إزاء قدميها. "لا.. إشو صدقة الله يسامحك!" قلت مستعيراً نبرة كبريائها. "وحياتك يا إمي، ابنك شايلّو كل شغل المخزن على اكتافو" كذبت. إذ كان فعلياً قد سلمني أصغر مخازنه وأقلها حركةً، فكنت أقضي معظم ساعات العمل في قراءة الكتب التي كان الباشا يحضرها لي بنفسه إلى المخزن. "حرام تضيّع كل هالوقت صافن بالبضاعة وانت عبتستنى تبعت طلبية أو تستقبل شحنة كل كم يوم" كان يقول لي.

"إمي؛ التجار ما بيعرفوا أبوون وقت الدفع" أضفت أخيراً، كي تأخذ النقود.

في واقع الأمر، فإن قراءاتي لم تبدأ فعلياً في ذلك المخزن، إذ واظب الباشا على إعارتي كتبه مع بداية تعارفنا. "راسك أصغر من جسمك بكتير. بدنا نخلق شوية توازن، لتقدر تقلّص مسافة الاغتراب بين روحك وجسدك" قال بينما يناولني أول كتاب. أومأت برأسي مصادقاً، وقد فهمت معنى كلامه بيُسر رغم ظاهره المُلغز. كان الكتاب هو الأمير الصغير لأنطوان إكزوبيري. للوهلة

الأولى، عندما رأيت حجم الكتاب الصغير وقلة صفحاته وغلافه الطفولي، ظننتها حكايةً للأطفال، وقلت في سري أيعقل أن يكون دماغي بكل هذا الصغر في نظر الباشا؟ لكن، وما إن انتهيت من قراءته الأولى حتى شعرت بقلبي قد غدا أكثر رحابة، فقرأته مرةً أخرى مأخوذاً بفتنته الغريبة. وهنا بدأت أشعر بتحرك شيء ما في رأسي، كما لو أن نبتةً تحاول شق طريقها إلى خارج التربة. لا أعلم ما إذا كانت الشجرة التي أحملها الآن في رأسي شجرةً كبيرةً مثمرة، غير أني على يقين بما يحيط بها من أشواك واخزة، لا تنفك تلسعني، وفطرٍ سامّ، أشمُّ رائحته الرطيبة على الدوام.

"لساتك عبتكتب رسايل لـ ولا حدا؟" سألتني فطوم التي أطلت عليّ من وراء السور القائم بين منزلينا، بينما كنت مضطجعاً على المصطبة أسقي شجرة الليمون صباح يوم جمعة. "على إيش واقفة؟" سألتها متأملاً رأسها الصغير الذي بدا كقنفذ سمين وقف فوق السور. "على ولا شي" قالت ضاحكةً، فضحكت. "انتبهي ما توقعي" قلت. وصمتنا معاً. "بقدر أقطف ليمونة؟" سألتني على استحياء. "أنا بقطفلك" قلت مُنقلاً عينيّ بين الثمار مفتشاً عن واحدةٍ صفراء. "أي وحدة بدك؟" سألتها أخيراً وقد وضعت الخرطوم من يدي، وبدأت بالنهوض بينما أراقب تتبع عينيها الدهشتين لتعاظم طولي إلى أن استقمت تماماً. أشارت، بعد بحث، إلى أعلى ليمونة استطاعت رؤيتها. "بس هَي خضرا!" قلت منبهاً. "إي مَي مشكلة" أجابت وهي تضحك. مددت يدي وقطفتها لها، ومشيت إليها فوق التربة محاذراً الطين والأغصان معاً. "تفضلي" قلت بينما أضعها في يدها. مدت يدها الثانية وحطت بها مثل عصفور صغير على ظهر يدي، وأخذت تمرر رؤوس أصابعها الدقيقة الناعمة على العظام الناتئة تحت جلدي الخشن، وكأنها تتحسس نقوش ظهر سلحفاة. في تلك اللحظة المدهشة، تذكرت عدم أحقيتي بأن أصير أباً.. "إي لساعتني عبكتب لـ ولا حدا!" همست لها بعد أن اجترحت ابتسامةً لها طعمٌ مر. "يلا انزلي ادخلي ع البيت" قلت، وعدت إلى سقي بقية الزرع، وقد شعرت بوخزةٍ في قلبي: أيعقل أن أكون حقاً أكتب لـ لا أحد؟

كان تعلقي بشذا يتعاظم اطراده مع كل رسالة جديدة أكتبها إليها، رغم أنها ظلت متمسكةً بالامتناع عن الرد.

في حكاية الأمير الصغير، كان الأمير قد مر بكوكب يسكنه رجل سكير. كان السكير جالساً إلى المائدة ملازماً الصمت، ومن حوله مجموعة من القناني الفارغة ومجموعة من القناني الملآنة، كما تقول الحكاية.

فقال الأمير للسكير: ما تصنع هنا؟

قال السكّير بصوت ملؤه الحزن والأسى: أشرب.

قال الأمير: ولماذا تشرب؟

قال: لأنسى.

قال الأمير، وقد أخذته فيه الرأفة: لتنسى ماذا؟

قال السكّير وقد أطرق برأسه: لأنسى عاري.

قال الأمير الصغير، وقد أحس برغبة في إسعافه ومساعدته: وأي عار؟

قال: عار الشرب. قال هذا ولزم الصمت[31].

لقد بدأت أشعر كما لو أنني ذلك السكير الذي يشرب لينسى عار شربه، فهأنذا إنما أواصل الكتابة إليها لكي أنسى في كل مرةٍ عارَ تجاهلها الردَّ على الرسالة السابقة!

"بركي ما عبيوصلوّا الرسايل؟" سألت الباشا بعد شهور من مراسلتها، غير أن مبعث ضيقي لم يكن هاجس سكير الأمير الصغير، بقدر ما كان شعوري بعدم الاكتفاء بالبوح لها، أو الاستجابة لخفق قلبي كما عبّر الباشا سابقاً. لقد بدأت أشعر بحاجةٍ ملحة إلى قراءة كلامها، معرفة أحوالها، تلمُّس مشاعرها. أريد الولوج إلى قلبها!

"الرسالة يللي ما بتوصل المفروض يرجعلك اياها مركز البريد" قال الباشا ناقضاً فرضيتي. "طيب لايمتا بدي ضل عببعتلا؟" سألته بنزق طفل. "إذا زهقت، خلّص، لا عاد تبعت.."، أراد بإجابته الخبيثة تلك أن يجرّني للاعتراف بعِظم حاجتي إليها. أطرقت في أفكارٍ ملتبسة. "إيش رايك روح زورا؟" غمغمت أخيراً دون أن أنظر إليه. "إي إيش فيّا! بركي المسكينة طول هالوقت في حدا عبيستلم عنا الرسايل وما عبيوصّلا اياهون" قال، دون أن ألمس في صوته الاقتناع بذلك التبرير. غير أني لم أكن بحاجةٍ حينها إلى سماع مبرر مقنع للذهاب إليها، بقدر ما كنت بحاجة إلى الحصول على مباركته وحسب، أعني مباركة الأب لابنه. "ما عندي جواز سفر" عاجلته قبل تراجعه. فنظر

في عينيّ بارتباك بائن وقد أدرك وقوعه في الفخ. "إي أنا بطلّعلك واحد، ما في مشكلة" قال مستسلماً. "جيبلي معك بُكرة الهوية وصور شخصية" قال بينما يقوم لمغادرة المخزن. "ما عندي صور!" قلت، وقد أفزعتني فكرة الذهاب إلى مصور.

صباح اليوم التالي كنت جالساً على كرسي مرتفع مخصص لتصوير الأطفال، بينما اعتلى المصور طاولة الشاي للحصول على لقطة مستقيمة. كان الباشا واقفاً إزاءه يتأملني بكثير من الانتباه، كمن يراقب تجربةً علمية. "اتطلع لهون بالكاميرا إزا بتريد" قال المصور متبرِّماً، فأشحت عينيّ عن الباشا.

في اليوم التالي أحضر لي الباشا الصور بنفسه، بعد أن أخذ منها حاجته لاستصدار الجواز. كان المصور قد أرفق بالصور الصغيرة صورةً طبعها بالحجم الكبير، كهديةٍ منه ربما. أصرّت أمي على وضعها في برواز وتعليقها في الصالة رغم معارضتي الشديدة، إذ بدوت فيها كمن وقف مرتاعاً بانتظار أن تنفذ فيه عقوبة الرمي بالرصاص. لم يكن اعتراضي على تعليقها بالطبع بسبب خوفي من نظرة السخرية في عيون من سيرونها من الضيوف القلائل، فهي نظرة اعتدت رؤيتها أكثر من رؤية وجهي في المرآة. وإنما كان اعتراضاً على اضطراري أن أرى في كل يومٍ خوفي من عيون الناس، وقد تخلد الآن في لحظةٍ أبدية.

"خايف؟" سألني الباشا في محطة الحجاز وقد وقفنا إزاء الحائط بانتظار موعد انطلاق القطار. كانت القاعة مكتظةً بالركاب. المقاعد الخشبية احتُلّت بأكملها من قبل النساء والشيوخ والشباب الكسالى، بينما وقف البقية إزاء حقائبهم في وجوم ونزق، يطوف حول أرجلهم الأطفال في كآبة كأحصنة ملاهٍ أوشكت على إتمام دورتها الأخيرة. كانت عيون هؤلاء جميعاً مُلقاةً إليّ. منهم من كان يسترق النظر بحذر كل قليل، ومنهم من كان مُصوِّباً عينيه نحوي مثل صيادٍ شرس، وآخرون تقدموا نحوي ببضع خطواتٍ خفيّة للحصول على رؤيةٍ أوضح، بينما الأطفال كانوا بين مرتاع ومعجبٍ ومتحفزٍ قلق. شعرت بأن الجميع ينتظرون سماع إجابتي.

"لا.. مالي خايف" أجبت بحزم.

الوقت يسير ببطءٍ حبات العرق اللزجة على جبيني. القاعة تزداد ازدحاماً وانكماشاً كأخطبوطٍ يلتهم الفريسة في تمهلٍ كئيب. الحرارة قاتلة، والهواء مخنوق بالهسيس ورائحة الجلود

الدبقة.

"انتبه ع حالك منيح، ولا تنسى تتصل على أب صالح إزا صار معك شي" قال الباشا قبل أن أصعد القطار.

صعدت إلى شقة شذا بخطىً ملتبسة. أخذت نفساً عميقاً وقرعت جرس الباب. كانت ضغطةً خاطفة بالكاد لامس إصبعي زر الجرس، فأتت تغريدة الكناري قصيرة مبتورة، وكأن رصاصةً باغتته. سمعت وقع خطوٍ رشيق يقترب، اختُلست إليّ نظرة من خلال العين السحرية، ليفتح الباب بعد برهة رجلٌ سمين أظنه يكبرني بعشرة أعوام. أبيض الوجه بوجنتين ورديتين تحملان نظارة طبية رقيقة الإطار. شعره أشقر منفوش كمِزعة الصوف. وكان يرتدي بيجاما منزلية زرقاء. لم أحتج إلى قول أي شيء، كان يعرفني تمام المعرفة. "أهلين عبيل! حمد الله ع السلامة، تفضل.. تفضل" قال مبتسماً وقد بدا على وجهه بعض الحرج.

كان هذا الرجل هو زوج شذا. أما شذا فلم تكن سوى امرأةٍ عادية، صارت عملاقةً بحيلةٍ سينمائية.. بينما كانت رسائلي إليها طوال تلك الشهور بمثابة تسليةٍ دورية لها ولزوجها المرح..

الفصل الأخير

عائدٌ إلى دمشق، وفي حقيبتي وحشٌ صغير..

كنت قد غادرت ڤيلا الشهباء عصر الأمس رفقة خلدون، حاملاً صندوق عبيل ولوحته التي طلبت من الباشا استعارتها، على أن أعيدها إليه فور انتهائي منها. "فيك تحتفظ فيها" قال الباشا بينما ينزلها عن الجدار، وأردف في أسىً حاول إخفاءه: "عندي غيرها كتير" لم أكن قد علمت بعدُ ما الذي أراد مني عبيل فعله إزاء قصته، إلى أن قرأت ليلاً رسائله إلى شذا، في وكر خلدون الغرامي، فوجدت بينها رسالةً إليّ، يبدو بأنه قد كتبها في الليلة السابقة:

صديقي هشام

أعلم بأننا لسنا بصديقين، لكني أظنك توافقني الرأي بأن مثل هذه المسميات قد تنازلت هي نفسها عن شروط استحقاقها منذ زمن بعيد، مذ تنازل الإنسان عن جوهر الأشياء مقابل القشور. غير أني وبرغم وجاهة ما تقدم، إنما أدعوك بالصديق لأني قد وضعت بين يديك أنت دون سواك: روحي وذاكرتي وقلبـي.

أظنك تتساءل الآن وقد تملكتك الحيرة: لماذا أنا؟ ربما لو كان مبعث تساؤلك أمراً قدرياً بحتاً، لنصحتك بالتخلي عنه دونما إبطاء. فهو سؤال يا صديقي قد أفنيت سني عمري الفائتة في البحث عن إجابته، بغير جدوى. أما وأن سؤالك هاهنا يخص اختياري قص حكايتي لك أنت دون سواك، فالإجابة ممكنة، لكنها، وبكل أمانةٍ أقول: ليست لديّ!

على أية حال، فلننتقل إلى السؤال الأهم؛ وهو ما الذي أريده منك. حسناً. إن الأمر بهذه البساطة: هذه الأوراق إنما كُتبت لك أنت، فخذها!

كنت قد ظننت حين عقدت العزم على الكتابة لك، بأن كتابة الأوجاع تمحوها من القلب، لأكتشف بعد بضع صفحات أنني إنما أصنع لها جسداً، أخلق مسخاً كما فعل ڤيكتور فرانكنشتاين. لكن ما الذي يخشاه مسخٌ من مسخٍ مثله؟ ساءلت نفسي بعد أن حاولت التوقف عن الكتابة غير مرة دون جدوى. فمن يدري؟ لربما كان هذا ما أحتاجه حقاً: خلق مسخٍ هائلٍ، عيناه دمعي، شفتاه ذاكرتي، صدره أوجاعي وأحزاني وخوفي، قدماه قلة حيلتي، ويداه ضعفي. حتى إذا أتممت خلقه، أحرقته، فيستحيل إلى رمادٍ حالكٍ، تذروه أنفاسي بعيداً في العدم.

غير أن لدائرة القدر صنعتها العجيبة.. فمثلما لم تقوَ أمي أن تقاوم حبها لوليدها بعد انمساخه، لم أستطع إيذاء وحشي الصغير بعد أن اكتمل. بل لم أستطع أن أراه إلا مخلوقاً ضعيفاً، له وداعةُ زهرةٍ بريةٍ، وهشاشةُ أوراق الخريف. فأخذت أرعاه، كالشاةِ الصغيرة في كنف الوحيد في الأحراش. أشذِّب صوفه في كل يوم، أطعمه وأشربه، ثم إذا جُن الظلام أُنيمه على سحائب الناي الحزين.

ظلت الحال هكذا إلى أن استيقظت ذات صباح على لفحة هواءٍ باردٍ في الغرفة. نظرت إلى النافذة، كانت موصدة. أصخت السمع في وجل، الدنيا غارقة في سكونٍ مطبق؛ لا نداء باعة، لا هدير دراجةٍ نارية، لا صراخ جارة، لا لهو أطفالٍ، ولا حتى زقزقة عصافير!

ارتج في قلبي رعبٌ ظليم، فنهضت من فراشي وعدوت إلى غرفة أمي. كانت ميتة..

كيف بوسع الأمهات أن يُمتن هكذا بغير وداع؟ لو أنها على الأقل ألمحت إلى نيتها بالرحيل، لكنت رجوتها ألا تفعل، فإن أصرّت، فلربما أقنعتها على الأقل باصطحابي..

ها أنا الآن طفلٌ وحيد، أضاع أمه في زحمة السوق. أغلقت المحالُّ أبوابها، ومضى الجميع إلى بيوتهم، فبقيت وحدي وسط السوق تلفني الريح الباردة صارخةً في أذنيّ. أنقّل عينيّ بارتياع بين جدران الزجاج المعتمة. جسدي الضئيل يرتجف. أحاول فتح فمي كي أناديها، فلا أقوى على خوفي، فأبكي.

طفلٌ وحيد، بالكاد أقدر على رعاية ما تبقى مني.

أحضرت صندوقاً، حبست فيه وحشي الصغير، وألقيت له المكاتيب كلها، لعله يلتهمها. ثم دسست محبسه تحت السرير، محاولاً نسيانه، لكي أقوى على الرحيل من دونه.

أما وقد ظهرتَ قُبيل رحيلي، فخُذه عني يا صديقي، أرحني من عوائه الليلي، من تخبطه صباحاً داخل الصندوق مثل كابوسٍ تفلّت من منامي. خذه وافعل به ما شئت. أسكنه في بيتك، اعرضه للناس كأي مسخ في سيركٍ كبير، أحرقه إن أحببت، أطعمه للجرذان في قبوٍ مهجور. افعل به ما شئت، فلست أقوى على فعل شيءٍ من كل هذا.

عبيل

عائدٌ إلى دمشق. في حقيبتي وحشٌ صغير. قلبـي طاحونةٌ تدور في كآبة ساعةٍ على وشك التوقف. يداي باردتان، كجثتين على الطريق بلا هوية. رأسي ميدان حربٍ لا احتدمت ولا وضعت أوزارها. عيناي ساهمتان بالمباني الواجمة من وراء النافذة. فيما هدير الحافلة يرجّني بوقعه الرتيب كمكائن النسج العتيقة، وهسيس ركّاب الصباح يغفيني، فيوقظني طنينُ ذبابة.

انتهت

Notes

[1←]
بتغدر: القصد منها (تقدر بمعنى تستطيع)، لكنها تُلفظ هكذا في اللهجة الحلبية.

[2←]
أُخذت اقتباسات هيگل عن ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير 1984.

واقتباسات كافكا عن ترجمة مبارك وسّاط، منشورات الجمل 2015.

[3←]
بمعنى انتظر في اللهجة الحلبية.

[4←]
بدي: بمعنى (أريد أن) في اللهجة الحلبية.

[5←]
أعني، احتفظ بها ريثما أتصل بك وأطلب منك قراءتها.

[6←]
أريد استعادة الرسائل، لو سمحت.

[7←]
ولاك: تُستخدم للنداء في حالة الغضب أو التقريع في اللهجة الحلبية.

[8←]
أرواد: جزيرة سورية تابعة لطرطوس.

[9←]
الشغّيلة: العمّال باللهجة السورية.

[10←]
السيبة هي مِرقاة أو سُلّم نقّال، وهي عبارة عن سلّمين ملتصقين من أحد الأطراف. يقف عليها الدهّان ليبلغ بفرشاته الأماكن المرتفعة.

[11←]
مَي: بمعنى (ليست) في اللهجة الحلبية.

[12←]
كُهنه: بمعنى (ها هو) في اللهجة الحلبية.

[13←]
لسّاعتو: بمعنى (لم يزل) في اللهجة الحلبية.

[14←]
اجلس يا رجل!

[15←]
عِنّا: بمعنى (عندنا) في المحكية السورية.

[16←]
أضيَق.

[17←]
أحضِر لنا.

[18←]
يقصد الناس.

[19←]
مولانا هو اللقب الذي عُرف به جلال الدين الرومي.

[20←]
من موقع النسابون العرب.

[21←]
لم تدهنه.

[22←]
ولِمَ لا!

[23←]
ربما.

[24←]
المركز الثقافي الألماني بدمشق.

[25←]
السياسية هي المسمى الشعبـي لقوى الأمن السياسي في سوريا.

[26←]
أغنية لفيروز غنتها في فيلم "بنت الحارس" إنتاج 1968، فأصبحت من أكثر الأغاني التي تغنيها الأم العربية لطفلها لينام.

[27←]
الوظيفة: الواجب المنزلي.

[28←]
الجنينة: حديقة المنزل باللهجة السورية (تصغير جنة).

[29←]
أغنية شعبية للمطرب الكردي السوري محمد حسين صدرت عام 1985.

[30←]
أغنية لمارسيل خليفة صدرت عام 1976 عن قصيدة "جواز السفر" لمحمود درويش.

[31←]
ترجمة الشاعر اللبناني يوسف غصوب، المنشورات العربية.